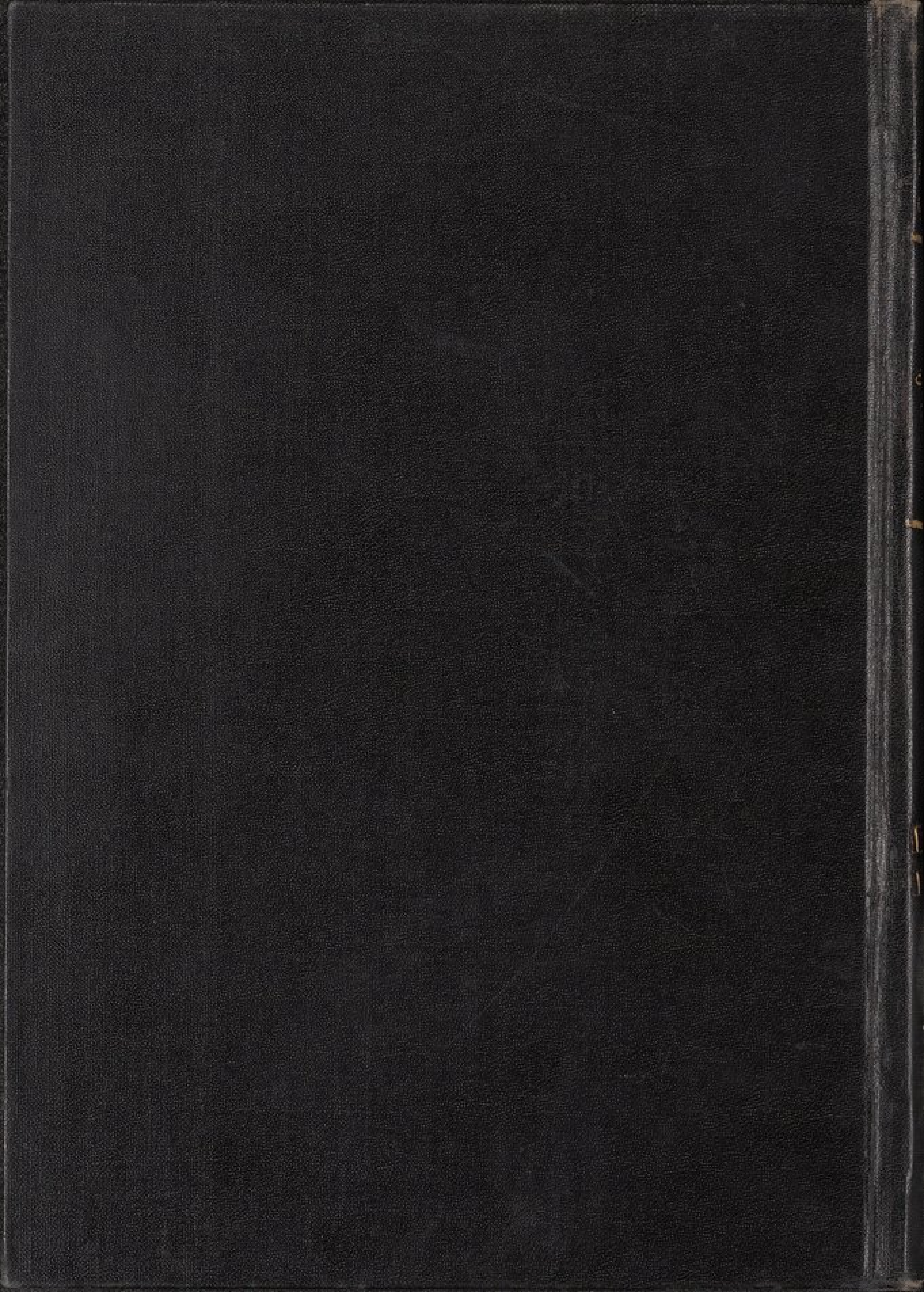
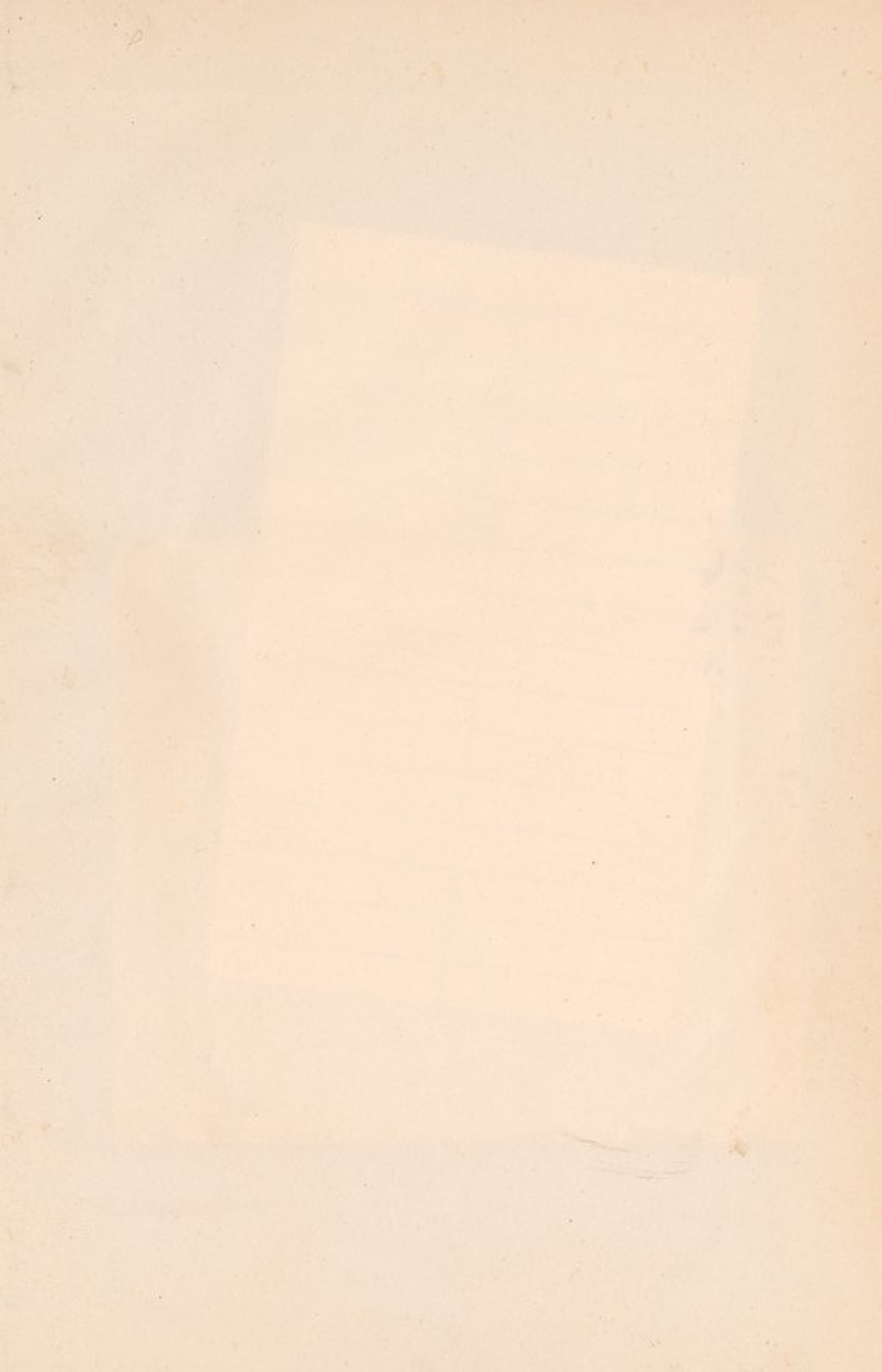










للسنة الجامعية ١٩٤٩-١٩٥٠

مطبعة الجامعة السورية

١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م



الفهرس



توطئة

هذا الكتاب الذي تتقدم به الجامعة السورية الى جمهور القراء هو مجموعة المحاضرات العامة التي القاها لفيف من اساتذتها في مدرجها الكبير خلال العام الجامعي ١٩٤٩ — ٥٠ ، وذلك تبعاً للخطة التي وضعتها في تنظيم سلسلة من هذه المحاضرات كل عام تدعو اليها اعضاء الاسرة الجامعية والجمهور المثقف .

والجامعة بتنظيمها هذه المحاضرات انما تقوم بواجب مستمد من صميم مهمتها . فمهمتها نحو طلابها لا تقتصر على تلقينهم الدروس النظامية ، بل تتعدى هذا الى تنمية مواهبهم وتوسيع افقهم بما تزودهم به من ثقافة شاملة نيرة وما تهيئه لهم من اسباب النشاط الحر في مختلف ميادين العلم والاجتماع .

ثم ان مهمة الجامعة لا تقف عند حدود طلابها ، بل تتعداهم الى المجتمع الواسع وعليها — اذا ارادت تأدية وظيفتها حق التأدية — ان تكون في محيطها مركز اشعاع للفكر الجاد الى الحقيقة ، المخلص لها ، المنكب على اكتسابها ونشرها بين الناس .

وقد قوي في هذه الأيام في بلاد العالم جميعاً الشعور بالحاجة الى هذه الثقافة العامة . واتضحت كذلك تبعة الجامعة وسواها من مؤسسات التعليم العالي في تلبية هذه الحاجة . فلم يعد جهد هذه المؤسسات محصوراً ضمن جدرانها ، ووقفاً على اساتذتها وطلابها ، بل اخذ ينفذ من هذه الجدران ويعمل في المجتمع باعثاً للفكر وموجهاً للنشاط الفردي والاجتماعي .

والثقافة العامة التي تنبعث من الجامعة ، عن سبيل المحاضرات وسواها ، انما تقوم على اسس من العلم الاختصاصي ، ولكنها تبسّط هذا العلم ، مظهرة مبادئه الاساسية ومعنية بصورة خاصة بما فيه اثارة للفكر وتوجيه للعمل .

وهذا هو الهدف الذي توخاه الاساتذة في المحاضرات التي يضمها هذا الكتاب. وقد رأت ادارة الجامعة السورية ان تعمم فائدة هذه المحاضرات فعمدت الى جمعها ونشرها. ومن هنا كان هذا الكتاب ، الذي يرجى ان يتبعه في كل عام كتاب من نوعه يشمل المحاضرات التي القيت فيه .

فعسى ان يكون في الجهود التي بذلها الاساتذة المحاضرون ، وفي حرص الجامعة على تثبيتها ونشرها ، تحقيق لجانب هام من الرسالة الجامعية وخدمة للعلم والثقافة العامة في البلاد .

قسطنطين زريق
رئيس الجامعة السورية

مظاهر الحرية في العرب [1]

لعميد كلية الآداب الاستاذ شفيق جبري

لما تكلم المسعودي على السبب الذي من أجله اختارت العرب سكنى البدو قال :

ورأت العرب ان جولان الارض وتخير بقاعها على الأيام اشبه بأولي العز ، واليق بذوي الأنفة ، وقالوا لأن نكون محكمين في الارض ، نسكن حيث نشاء اصلح من غير ذلك ، فاختاروا سكنى البدو من أجل هذا . —

وذكر آخرون ان القدماء من العرب لما ركّبهم الله عليه من سموّ الأخطار ونبل الهمم والأقدار وشدة الأنفة والحمية من المعرّة والهرب من العار بدأوا بالتفكير في المنازل والتقدير للمواطن فتأملوا شأن المدن والأبنية فوجدوا فيها معرة ونقصا .

وقال ذوو الآراء منهم : ان الابنية والتحويط حصر عن التصرف في الأرض ومقطعة عن الجولان وتقييد للهمم وحبس لما في الغرائز من المسابقة الى الشرف ولا خير في اللبث على هذه الحال . —

اذا اردنا شرح هذا النوع من الكلام بلغة العصر الذي نعيش فيه فلا نجد لفظاً يمثل الصفة الغالبة على العرب التي أشار اليها المسعودي الا لفظ الحرية ، غير ان الحرية لم يكن لها في عصورنا القديمة المعنى الذي نجده لها في عصرنا هذا ، فما كان الحر في تلك الأحقاب الا ضد العبد وما كانت الحرية الا ضد العبودية .

العبدُ يقرعُ بالعصا والحرّ تكفيه الاشارة

الحرُ يلحى والعصا للعبدِ وليس للملحف مثل الرد

ولهذا لا نرى في كلام المسعودي لفظ الحرية وانما نرى فيه عبارات أو الفاظاً قريبة منها ، فان قوله : نسكن حيث نشاء ، يفصح عن حرية مركبة في الطبع وان قوله : حصر عن التصرف في الارض ومقطعة عن الجولان وتقييد للهمم وحبس لما

---

(١) ألقيت على مدرج الجامعة الكبير يوم الاربعاء في ١٤-١٢-١٩٤٩ .

في الغرائز من المسابقة الى الشرف ، يعرب عن ميل الى الحرية وبعد من أضدادها. —

فالحرية مركبة في طبائع العرب ، وقد يكون للبيئة التي عاشوا فيها سنين طويلة الأثر الأبلغ في هذه الحرية ، وهذا ما أشار المسعودي اليه اشارة خفيفة ،اشار الى ما في الأبنية والتحويط من الحصر والتقييد والحبس ، فقد تعودالعرب في صحروا تهم التي ينقطع فيها النظر ان يتنقلوا من بقعة الى بقعة وان يهجروا من ارض الى ارض طلباً للماء والكلأ أحياناً ، وحذراً من عدو أحياناً ، فهذا التنقل قد ولد في نفوسهم على ممر العصور شغفاً بالحرية . —

فلما جاء الاسلام وجاءت الخلافة معه انتشرت فكرة الدولة في العرب وكان اهل البدو مادة هذه الدولةفي بدء الامر فنقلوا اليها الحريةالتي ورثوها في البادية . —

اني لا أحاول في حديثي هذا الكلام على الحرية في الاسلام من حيث هو دين من الاديان فان هذا الكلام بعيد الشقة ،مترامي الاطراف قد يستلزم حديثاً خاصاً أو جملة أحاديث وانما الذي أحاوله في هذه الساعة ذكر مظاهر من الحرية في سلطان العرب ولست افتش عن خطب لرجال هذا السلطان أستخرج منها هذه المظاهر فقد كانت خطب الخلفاء والعمال في اكثر الاحيان بمنزلة بيانات وزارية في عصرنا هذا ،انا نعلم ان هذه البيانات تصور روح الحرية ابلغ تصوير في بعض الاوقات ولكن اصحابها اذا ألقيت اليهم مقاليدالحكم ضربوا الحريةالضربةالقاضية،ولهذالا الجأالى خطب الخلفاء والعمال فقدتتناقض الاقوال والافعال فيهاوقدتنسجموانما اذا حاولت اللجوءالى استخراج مظاهر الحرية في سلطان العرب فقد يلزمني ان ادخل قصور الخلفاء على زمن بني امية وبني العباس وان اسمع احاديث الناس في نقد اصحاب تلك القصور واشهد حلم الخلفاء والامراء والعمال عن هذا النقد ولا أرى بأساً قبل ان اصل الى هذا كله بالاشارة الى روح في عصر من عصورنا القديمة تجلت فيها الحرية في الدين والادب والسياسة . —

يقول الجاحظ في أول كتاب الحيوان ، في اثناء ترغيبه في اصطناع الكتاب واحتجاجه على من زرى على واضع الكتب :

« وينبغي ان يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا، على انّا قد وجدنا من العبرة اكثر مما وجدوا كما ان من بعدنا يجد من العبر اكثر مما وجدنا فما ينتظر العالم باظهار ماعنده وما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه وقد أمكن القول وصلح الدهر وخوى نجم التقية وهبت ريح العلماء وكسد العي والجهل وقامت سوق البيان والعلم » .

فاذا جاوزنا مبدأ هذه العبارة التي مثلت لنا كيف تتسلسل آثار العقول فيؤدي كل عصر نتائج مايجده من العبرة الى العصر الذي يليه ويزيد كل عصر في هذه العبرة بقدر ما يتيسر له من العلوم والتجارب، اذا جاوزنا مبدأ هذه العبارة التي تبسط فيها « باسكال » في بعض أفكاره وشارك الجاحظ في معناها تراءت لنا صفة عصر الجاحظ نقية صافية ، فما هي هذ الصفة بل ماهي هذه الصفات : امكان القول وصلاح الدهر وخي نجم التقية وهبوب ريح العلماء وكساد العيّ والجهل وقيام سوق البيان والعلم.

هذه خصائص قد تخللت القرنين : الثاني والثالث. أفلا يحق لنا بعد معرفتها ان نقول في عصرها ماقاله احد شعراء فرنسة في عصره :وأي عصر أحفل بالمعجزات .

أبرز صفة من صفات هذا العصر حرية الفكر ولم يعبر الجاحظ عن هذه الحرية باللفظة نفسها وانما عبر عنها بقوله : وقد أمكن القول وصلح الدهر وخوى نجم التقية وهذا دليل آخر على أنهم لم يجعلوا للحرية المعنى الذي نجعله لها اليوم .

ماهي مظاهر هذه الحرية ؟

قويت في العصر الذي ذكرته ثلاث نزعات : نزعة المعتزلة ونزعة المجددين في الأدب ونزعة الشعوبية في السياسة .

اذا حاولت الكلام على المعتزلة تراخى أمد هذا الكلام وقد تكون هذه المحاولة خروجاً عن الموضوع وحسبي الاشارة الى ناحية الحرية فيهم .

فالمعتزلة أعظم مظهر من مظاهر الحرية في العرب وقد يكفينا الرجوع الى إمام من أئمتهم حتى تتبين لنا نواحي هذه الحرية فاذا بحثنا عن عقل في المعتزلة يمثل لنا

حرية التفكير فقد يكون عقل الجاحظ اكمل العقول التي أدركت روح هذه الحرية، كان لايؤمن الا بما تراه العين أو تسمعه الاذن أو يذوقه الفم أو يشمه الانف أو تلمسه اليد هذا من جهة الحكم الظاهر على الأمور واماً من جهة الحكم الباطن على هذه الامور فانه لايقر الا بما يقبله العقل ولا يرده وهذا مذهبه في آفاق العلم وهو مذهب التصحيح والتميز فلم يجعل الجاحظ سمعه هدفا لكل توليد ولا جعل قلبه قرارالكل زور وقد غلب العقل عليه في ابواب الدين غلبته في أبواب العلم .

ذهب الجاحظ في امور الدين مذهبه في أمور العلم فكما نبه في العلم على المسائل التى خرج فيها أصحابها عن العقل فكذلك نبه في امور الدين على المسائل التي لا تطابق العقل فالجاحظ لايريد الا العلة والبرهان في كل مسئلة من المسائل وهذا ابرز مظهر من مظاهر حرية فكره ،لقد عابوه باستهزائه من بعض الأحاديث اومن بعض الايات ولو انصفوا لعدوا له فضلا عظيما في التفسير والتأويل ، فقد كان يرد على بعض الطاعنين في القرآن فيهيب بهم الى الصواب آخذا عليهم مداخل الطرق ومخارجها يحمل الالفاظ مرة على ظواهرها اذا كانت الحكمة في حملها على الظواهر ومرة على بواطنهـا اذا كانت الحكمة في حملها على البواطن حتى لايبقى للطاعنين متنفس يتنفسون منه .

ولولا خوفي التطويل لذكرت بعض تفسيره الذي تظهر عليه آثار الحرية ولكني لا أرى مندوحة عن الاستشهاد بمثلين مختصرين .

كره الجاحظ الغريب من تأويل الأحاديث كما كره الغريب من تفسير الآيات ولم يخل من تهكم على بعض المفسرين وقد يظهر تهكمه من مجرد ذكره لتفسيرهم من هذا النوع قوله :

وزعم بعض المفسرين وأصحاب الأخبار ان أهل سفينة نوح كانوا تأذوا بالفار فعطس الأسد عطسة فرمى من منخريه بزوج سنانير فلذلك السنور أشبه شيء بالاسد وسلح الفيل زوج خنازير فلذلك الخنزير أشبه شيء بالفيل . قال كيسان : فينبغي ان

ان يكون ذلك السنور آدم السنانير وتلك السنورة حواءها ، وضحك القوم .

اكتفى الجاحظ في هذا المقام بمجرد التهكم دون شيء من الرد ولكنه لما تعرض لبعض المفسرين الذين فسروا قوله عز وجل « والتين والزيتون » لم يكتف بالتهكم وحده فقد زعم بعض المفسرين ان التين دمشق والزيتون فلسطين فقال الجاحظ :

والكلمات في هذا الموضع ليس يريد بها القول والكلام المؤلف من الحروف وانما يريد النعم والاعاجيب والصفات وما أشبه ذلك فان كلا من هذه الفنون لو وقف عليه رجل رقيق اللسان صافي الذهن صحيح الفكر تام الأداة لما برح ان تحشره المعاني وتغمره الحكم .

وما اكثر المواطن التي ظهرت عليها اثار حرية فكره في التفسير والتأويل فلسنا نعرف فكرا أشد انطلاقاً من القيود من فكره ،لقدذاق لذة الحياة العقلية وتقلب في أعطافها فخالط عالم الافكار واستأنس بهذا العالم خاطب العقل في قرن متكامل ولكن هل نعلم اي عقل خاطبه ، لقد خاطب العقل الذي ينكره كل باطل من الأباطيل وكل قيد من القيود .

لقد أسرفت بعض الاسراف في الكلام على الجاحظ ولكني لم أسرف هذا الاسراف الا لانه يمثل حرية التفكير أنطق تمثيل وهذه الحرية انما هي مظهر من مظاهر المعتزلة كما قلت ،الذين تجردوا للقضاء على الخرافات والاباطيل مستندين الى العقل وحده في امورهم .

وكما نزع المعتزلة الى الحرية في الدين فبنوا تفسيرهم وتأويلهم على أصول العقل وحدها فأدخلوا عليها نمطاً من التفكير خلصها من كثير من الخرافات والاباطيل فكذلك نزع بعض أئمة الادب الى الحرية في الأدب فأطلقوا من قيوده ولئن كان الجاحظ امام الحرية في امور العقل لقد كان ابن قتيبة امام الحرية في امور الأدب وقد اشتملت مقدمة كتابه الشعر والشعراء على قطعة من الكلام تكاد تكون غاية في هذه الحرية وبلغت هذه القطعة من الشهرة كل مبلغ حتى أحاط بها علم الادباء ومع هذا كله

لاارى بدا من الاستشهاد ببعضها فلا نزداد تكريراً لها الا ازدادت حسناً فمن قول ابن قتيبة وقد أراد بهذا القول بعض المتقدمين والمتأخرين من الشعراء :

فاني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه موضع متخيره ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده الا انه قيل في زمانه ورأى قائله ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص به قوماً دون قوم بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده وجعل كل قديم منهم حديثاً في عصره وكل شريف خارجيا في أوله فقد كان جرير والفرزدق والأخطل يعدون محدثين وكان ابو عمر بن العلاء يقول: لقد نبغ هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا كالخزيمي والعتابي والحسن ابن هانيء فكل من اتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له وأثنينا عليه به ولم يضعه عندنا تأخر قائله ولا حداثة سنه كما ان الرديء اذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه .

لست اعلم قولاً في حرية الرأي في الأدب أبلغ من هذا القول على شدة رصانته وقوة منطقه فالذين يريدون ان يحصروا الادب في افق خاص لا يتزحزح عنه يشكل عليهم ولا ريب فهم الادب على حقيقته وجوهره فكيف يريدون ان يستمر الشعراء في صورهم البدوية في عصر زهت فيه الحضارة كيف يريدون ان يتغنى الشعراء بالشيح والقيصوم في عصر ملئت فيه الدور بالورد والبنفسج ، ان العصر الذي عاش فيه ابن قتيبة تكاملت فيه حضارة بني العباس فكان لابد للشعراء من ان تنعكس على شعرهم صور هذه الحضارة ولا بد لهذه الصور الحديثة من لغة حديثة غير لغة معاطن الابل ومرابض الغنم هذا ما حمل ابن قتيبة على ان ينظر الى الشعراء نظرة مجردة لا يتعصب للمتقدمين منهم أو المتأخرين ولا يتعصب على فريق من هذين الفريقين وانما ينظر الى شعر المتقدمين والمتأخرين من حيث الحسن لا غير فلم يستطع امام مثل ابن قتيبة انطلق فكره في الادب هذا الانطلاق ان يتقيد بتفضيل شعراء الجاهلية على أمثال بشار وابي نواس

لمجرد تقدمهم وانما نظر الى الشعر نظرة خالصة مطلقة من كل قيد وهذا منتهى الحرية في الأدب .

وجاء بعده ابن فارس فقال في رسالته الى ابن سعيد الكاتب وقد انكر على ابي الحسن محمد بن علي العجلي تأليفه كتاباً في الحماسة :

فماذا الانكار ، وله هذا الاعتراض ، ومن هذا حظر على المتأخر مضادة المتقدم ، وله تأخذ بقول من قال : ما ترك الاول للآخر شيئاً ، وتدع قول الآخر : كم ترك الاول للآخر وهل الدنيا الا ازمان ولكل زمن منها رجال وهل العلوم بعد الاصول المحفوظة الا خطرات الافهام ونتائج العقول ، ومن قصر الآداب على زمان معلوم ووقفها على وقت محدود ، وله لا ينظر الآخر مثل ما نظر الاول حتى يؤلف مثل تأليفه ويجمع مثل جمعه ويرى في كل ذلك مثل رأيه .

وما تقول لفقهاء زماننا اذا نزلت بهم من نوازل الأحكام نازلة لم تخطر على بال من كان قبلهم ، او ما علمت أن لكل قلب خاطراً ولكل خاطر نتيجة وله جاز ان يقال بعد أبي تمام مثل شعره ولم يجز ان يؤلف مثل تأليفه وله حجرت واسعاً وحظرت مباحاً وحرمت حلالا وسددت طريقاً مسلوكا وهل حبيب الا واحد من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ، وله جاز ان يعارض الفقهاء في مؤلفاتهم واهل النحو في مصنفاتهم والنظار في موضوعاتهم وارباب الصناعات في جميع صناعاتهم ولم يجز معارضة ابي تمام في كتاب شذّ عنه في الابواب التي شرعها فيه ، امر لا يدرك ولا يدرى قدره ، ولو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير ولذهب أدب غزير ولضلت افهام ثاقبة ولكلت السن لسنة ولما توشى احد لخطابة ولا سلك شعباً من شعاب البلاغة ولمجت الاسماع كل مردد مكرر وللفظت القلوب كل مرجع ممضغ .

هذه حرية في الادب لا تجد لها مثيلا حتى في هذا العصر الذي نعيش فيه ، عصر الحرية في العلم والادب والحياة بأجمعها وبفضل هذه الحرية افلت الادب من قيوده فدخل في طور جديد لا عهد له بمثله من قبل فاستعد لقبول الافكار الحديثة في الفلسفة والعلم والعواطف الجديدة في الشعر فنزع عنه صور البدو التي لازمته قبل اختماره وقبل اتصاله

بما انحدر اليه من مذاهب الفلسفة والعلم والتفت الى صور الحضارة فوسع هذه الحضارة على انبساط مذاهبها وامتداد أفاقها وما عجز عن تمثيلها في مجامع نواحيها ولو جمد على طوره الأول، طور الجاهلية لما استطعنا ان نرى في تضاعيفه باعيننا قصوراً حيطانها من زجاج وسقوفها من ذهب وبركها من رخام ولفاتنا شيء كثير من الحضارة التي اختمرت في أيام بني العباس .

هذه نماذج من حرية في الدين وحرية في الأدب اذا اضفنا اليها نموذجاً آخر من الحرية في السياسة القومية ادركنا ان شطراً من عصر بني العباس قد تكاملت فيه الحرية على اختلاف انواعها .

نشأت الشعوبية في العرب وكان همها الاكبر الطعن على العرب في كل مذهب من مذاهبها، طعنت على خطباء العرب بامور كثيرة فلم تجد للعرب فضلاً في خطبها وعقولها وحكمها وحروبها وآلات هذه الحروب ولم تنظر اليهم الا نظرتها الى رعاة ابل وغنم قد جفا كلامهم وغلظت مخارج اصواتهم وساءت مآكلهم وخشنت ملابسهم ، والخلاصة هم الشعوبية الاكبر تهديم سلطان العرب في كل ناحية من النواحي، في الدين والسياسة والعلم والادب ، فقد تتبعوا العرب في كل شيء والفوا كتباً في مثالبهم حتى تصدى من العرب من رد عليهم وفند مزاعمهم ولا شك في ان اتساع صدور العرب لجماعة يحاولون تهديمهم في حياتهم وسماحهم لهم ببث افكارهم اكبر دليل على حرية الرأي في زمنهم وليس معنى هذا ان اصحاب الامر كانوا يسكتون عنهم فقد كانت الشعوبية ذنباً من الذنوب لان للحرية حدوداً اذا جاوزت هذه الحدود وخاصة في أمور قومية فقد تؤدي الى ذهاب السلطان ولكن على الرغم من تعقب الشعوبية فقد استطاعت ان تنشر دعوتها وتبث أفكارها وتشغل العرب بالرد عليها، وهذا كله مظهر من مظاهر الحرية .

الى جنب هذه الحريات التي شهدنا طائفة من آثارها في الدين والأدب والسياسة القومية نشهد طائفة منها في حياة العرب العامة، من ذلك حرية المرأة وحرية التربية وحرية القضاء واذا اضفنا الى هذا كله حرية الناس في مقامات الخلفاء والأمراء والعمال

تبين لنا ان العرب قد بلغوا من الذين نسميه في عصرنا هذا: الديمقراطية ما بلغته أعرق الامم فيها .

لقد ظهرت حرية المرأة على أوجه كثيرة فقد كانت تملك في بعض الاحيان حرية الزواج حتى في الجاهلية ، فاذا خطبها احد استشارها أهلها في ذلك فاما ان تمتنع واما ان تجيب، حتى إن الحجاج نفسه على الرغم من شدة سلطانه خطب امرأة فلم يكن لاهلها بد من الرجوع الى رأيها في الزواج .

وكما كانت المرأة تملك حريتها في الزواج فكذلك كانت تفكر في ان يكون امر الطلاق اليها وهذا قليل ولكن الأمر غير القليل انما هو تحدثها الى الرجال وقد كثرت الشواهد في تاريخنا على حجابها مرة وعلى سفورها مرة في هذا التحدث ، بلغت المرأة من حرية الاجتماع الى الرجال في الماضي ما بلغته المرأة في أعظم الامم في أيامنا هذه فقد كانت النساء يعقدن مجالس ادب على نحو « الصالونات » في هذا الزمن ومجالس سُكَيْنَةَ مشهورة في الأدب ولكن النساء كن لا يبرزن للرجال في تلك الاجتماعات على ان السفور كان مباحاً في بعض الحالات فما كانوا يحجبون جواريهم ما لم يلدن واكثر احاديث النساء في المجالس التي اشرت اليها فيها غناء وادب ثم كان يحضر فيها الغداء فيتغدى القوم بأنواع من الاطعمة الحارة والباردة ومن الفاكهة الرطبة واليابسة ثم كان يدعى بانواع الاشربة وحسبنا ان نعرف طبقة الشعراء والمغنين الذين كانوا يحضرون المجالس فقد كان يحضرها ابن أبي عتيق وابن أبي ربيعة والاحوص وجرير والفرزدق وكثير وجميل ونصيب من الشعراء وابن سريج ومعبد ومسجح وابن عائشة وابن محرز والغريض من المغنين .

ولسنا نستطيع ان نتصور حرية المرأة في عصورنا البعيدة الا اذا حضرنا مجلساً من مجالسها فرأينا كيف كانت دار جميلة تغص بالناس وكيف كانت الجواري يقمن على رؤسهم بالمناديل والمراوح الكبار بين كل عشرة نفر جارية تروّح وكيف كانت جميلة ترقص ويرقص معبد والغريض وابن عائشة ومالك وفي يد كل واحد منهم عود يضرب به على ضرب جميلة ورقصها وكيف كانت جميلة في بعض المجالس تجعل على

رؤس جواريها شعوراً مسدولة كالعناقيد الى اعجازهن وتلبسهن الثياب المصبغة وتضع فوق الشعور التيجان وتزينهن بأنواع الحلي !.

واذا أردنا ان نفتش عن مجتمعات الرجال والنساء فلا نهتدي اليها بقدر مانهتدي اليها في مواسم الحج ومواكبه فكأنما الحج كان معرضاً لزينة النساء وحريتهن، كان الحج منبتاً خصيباً ينبت فيه شعر الشعراء .

ولكن المرأة لم تتمتع بحريتها في أمثال هذه الاجتماعات الا وقد عظم نصيبها من الثقافة الأدبية وقد كانت آفاق الثقافة حينئذ حفظ المرأة لبعض الشعر وحسن ذوقها في هذا الحفظ وصواب نقدها في بعض الاحيان وقد كلّم عمر بن أبي ربيعة فاطمة بنت عبد الملك بن مروان فقال: فكلمت آدب الناس وأعلمهم بكل شيء وقد وصف بعض النساء بحضور الذهن وسرعة الجواب .

وامتدت الحرية الى الدور فكنا نجد الولد في بعض الاحيان يصرح برأيه في أبيه دون شيء من التهيب فقد سأل ابراهيم الموصلي ابنه اسحق ذات يوم عن رأيه فيه وفي ابن جامع فقال له اسحق :رأيتك ولا شيء اكبر عندي منك قد صغرت عندي في الغناء معه حتى صرت كلا شيء .

وقد كان اسحق يعيب اباه ابراهيم في صنعته ويخاصمه ويقول له : أما بازائك من ينتقد أنفاسك ويعيب محاسنك وانت لاتفكر ، تجيء الى صوت قد عمل فيه ابن سريج لحنا فتعارضه بلحن لايقاربه والشعر اوسع من ذلك فدع ما قد اعتورته صناعة القدماء وخذ في غيره .

ونجد مثل هذه الحرية في القضاء نفسه، قال ابراهيم بن المهدي لجعفر الطبال . حذق فلانة الجارية ضرب الطبل ولك مائة دينار ، اعجل لك منها خمسين ، قال :نعم فعجلت له الخمسون ، فلما حذقت طالب ابراهيم بتتمة المائة ، فلم يعطه . فاستعدى عليه أحمد بن ابي دواد الحسني خليفته ، فأعداه ، ووكل ابراهيم وكيلا ، فلما تقدموا القاضي مع الوكيل اراد الوكيل ان يكسر حجة جعفر فقال : اصلح الله القاضي . سله .من اين له هـذا الذي يدعي ، وما سببه ، فقال جعفر : اصلح الله القاضي ، انا طبال ،

وشارطني ابراهيم على مائة دينار على ان احذق جاريته فلانة ،وعجل لي خمسين ديناراً ومنعني الباقي بعد أن رضي حذقها فيحضر القاضي الجاريـة وطبلها واحضر انا طبلي ويسمعنا القاضي، فان كانت مثلي قضى لي عليه والا حذقتها فيه حتي يرضى القاضي، فقال له : قم عليك لعنة الله وعلى من يرضى بذلك منك ومنها .

ان خبراً مثل هذا الخبر يدلنا على استعمال الناس حريتهم في القضاء على الرغم من حرمةهذا القضاء، فاذا كان كلام جعفر الطبال ضربا من الهزل فان احتمال القاضي له دليل على سعة صدره واذا كان كلامه نوعاً من الجد فهذا دليل على ان الناس كانوا أحرارا في مرافعاتهم .

وما كان يحيي بن اكثم وهو قاضي القضاة يرى بأساً بان يسمع عريب المغنية وما رأى الناس اضرب منها ولا احسن صنعة ولا أحسن وجها ولا أخف روحا ولاأحسن خطاباً ولا أسرع جواباً ولا العب بالشطرنج والنرد ولا اجمع لخصلة حسنة وقد كانوا يسألونه عن هذا كله ولا يستحون .

وما كان أبو حنيفة نفسه يرى بأساً بان يلبس سواده وطويلته ويركب الى عيسى ابن‌موسى ويسأله اطلاق سبيل جاره وقد لقيه العسس وهو سكران فحبسوه . —

لم يتمتع المسلمون وحدهم بأشباه هذه الحريات فقد كان لاهل الكتاب من النصارى واليهود حرمة تختلف على اختلافهم في جلالة القدر قبـل الاسلام وبعـده فكانت النصارى أحب الى المسلمين من غيرهم واقرب مودة وقـد فصل انا الجاحظ اسباب هذه المحبة وقرب هذه المودة وقد يطول ذكر هذا التفصيل وانا اتصـرف في تلخيصه بعض التصرف :فقد جاءالاسلام وملوك العرب رجلان :غساني ولخمي وهما نصرانيان وقد كانت العرب تدين لهما وتؤدي الاتاوة اليهما فكأن تعظيم قلوبهم لهماراجع الى تعظيم دينهما .

غلبت النصرانية على ملوك العرب وقبائلها على لخم وغسان والحارث بن كعب وقضاعة وطي في قبائل كثيرة واحياء معروفة وجاء الاسلام وليست اليهودية بغالبة على قبيلة الا ما كان من ناس من اليمانية ونبذ يسير من جمع اياد وربيعة .

فعطف قلوب دهماء العرب على النصارى الملك الذي كان فيهم والقرابة التي كانت لهم

اما اليهود فقد حسدوا المسلمين على نعمة الدين والاجتماع بعد الافتراق والتواصل بعد التقاطع وشبهوا على العوام واستمالوا الضعفاء ومالؤا الاعداء والحسدة ثم جاوزوا الطعن وإدخال الشبهة الى المناجزة والمنابذة بالعداوة فجمعوا كيدهم وبذلوا أنفسهم وأموالهم في قتالهم واخراجهم من ديارهم وطال ذلك واستفاض فيهم وظهر وترادف لذلك الغيظ وتضاعف البغض وتمكن الحقد .

وكانت النصارى لايتكلفون طعناً ولا يثيرون كيداً ولا يجمعون على حرب فكان هذا أول اسباب ما غلظ القلوب على اليهود وليّنها على النصارى ثم كان من أمر المهاجرين الى الحبشة واعتمادهم على تلك الجهة ما حببهم الى عوام المسلمين وبقدر ما نقص من بغض النصارى زاد في بغض اليهود . —

وقد كان للنصارى امتياز ظهر في مراكبهم وملابسهم وصناعاتهم وامتنع كثير من كبرائهم من اعطاء الجزية وسبوا من سبهم وضربوا من ضربهم . وكان منهم كتاب السلاطين وفراش الملوك واطباء الاشراف ولم يكن اليهودي الا صباغاً او دباغاً او حجاماً او قصابا أو شعابا أو خماراً . —

بعد هذا كله أصل الى مظاهر الحرية في مقامات الخلفاء والامراء والعمال ، من مبادىء الديموقراطية في عصرنا هذا حرية الكلام وسنشهد في عصورنا القديمة من هذه الحرية ما لا نشهد امثاله في يومنا هذا . —

قد تكون قضية الشورى التي جعلها عمر رضي الله عنه قبل وفاته عنوان مبادئنا الديموقراطية في القديم ولكني اتخطى الكلام عليها فانا نعلم كيف تشاح اصحابها على الخلافة وأخروا ابرام الامر ورجا كل واحد منهم ان يكون خليفه حتى قال معاوية لم يشتت بين المسلمين ولا فرق اهواءهم الا الشورى التي جعلها عمر الى ستة نفر ، فلم يكن رجل منهم الا رجاها لنفسه ورجاها له قومه . —

لانستطيع ان نتهم معاوية في هذا الرأي بالذي نسميه في مصطلح هذا اليوم : الرجعة فقد ظهر من سعة صدره في احتمال اذى الكلام وهو خليفة مالا يظهر من

غيره فليس بقليل ان يدخل عليه شعبة بن غريض وكان من اليهود فيطعن على نزاهة معاوية وميله الى نفع اصحابه وينسبه الى الكذب واللؤم ثم يقول له: انك ميت الحق في الجاهلية وميته في الاسلام، ولم يقل معاوية بعد هذه القوارص الا : قد خرف الشيخ . —

ولقد جازوا في مقام معاوية حد هذه الحرية فخرجوا من سبه وشتمه الى التشبب بابنته رملة ولم يعاقب عبد الرحمن بن حسان على هذا التشبيب وكان يقول لابنه يزيد ليس العقوبة من أحد أقبح منها بذوي المقدرة . —

وتطاول أمر حرية الكلام من بعد معاوية في خلافة بني أمية فكان الاخطل يهجو المسلمين ويدخل على عبد الملك بن مروان بغير اذن وعليه جبة خز وحرز خز في عنقه سلسلة ذهب فيها صليب ذهب تنفض لحيته خمراً وبلغ من دالته على عبد الملك انه كان يقول له قد يبس حلقي فمر من يسقيني يعني خمراً وكان يقول لخال بشر بن مروان: انا اكرم منك، واذا لاموه على ذلك قال لهم: ان ابا نسطوس وضع في رأسي كؤوساً ثلاثا فوالله ما اعقل معها . —

وبلغ من حرية الكلام في مقام عبد الملك بن مروان انه اذا انشده الاقيشر اياته في الخمر وقال له عبد الملك احسنت يا أبا معرّض ولقد اجدت وصفها واظنك قد شربتها قال له الاقيشر: والله يا امير المؤمنين انه ليريبني منك معرفتك بهذا . —

ولقد كان ابناء مروان من الخلفاء والامراء يذوقون الحرية ويقدرونها حق قدرها فلهذا كانوا يصبرون على مرارتها فاذا قال ايمن بن خريم الأسدي لوالي مصر عبد العزيز بن مروان: والله ايها الامير انك لملول طرف قال له عبد العزيز: لو كنت كذلك ما صبرت عليك، تنازعني التحية وتؤاكلني وتتكيء على وسائدي وفرشي وبك ما بك يعني وضحاً كان بأيمن .

وهكذا كانوا يكاشفون الأمراء والعمال بعيوبهم وطبائعهم وأمزجتهم .

وقد كانوا يعظونهم في بعض الاوقات كما فعل خالد بن صفوان بن الاهتم مع هشام بن عبد الملك حتى ان هشاماً لما سمع الوعظ بكى حتى أخضل لحيته وبل عمامته

فأفسد عليه خالد لذته ونغص عليه مأدبته ولما عاتبوه قال لهم: اليكم عني، اني عاهدت الله عز وجل ان لا أخلو بملك الا ذكرته الله عز وجل .

وقد كثرت الشواهد على اتساع صدر هشام بن عبد الملك لحرية الناس في كلامهم فكان يبلغه عن بعض الناس قولهم فيه ابن الحمقاء فيحلم عنهم .

واحتمل مثل هذه الحرية الجبابرة منهم امثال ابراهيم بن هشام وهو خال هشام ابن عبد الملك فقد استأذنه شاعر بني مروان نصيب في الانشاد فأذن له فأنشده قصيدة مديح ففضل عليه ابراهيم شاعراً آخر فقال نصيب: والله ماتصنع المديح الا على قدر الرجال، كما يكون الرجل يمدح حتى عجب الناس من شجاعة نصيب، على ابراهيم ومن حلم ابراهيم عنه .

هذا شيء من حرية الكلام في مقام خلفاء بني مية وامرائهم وعمالهم فقد كانوا يستطيلون عليهم ويطعنون على نزاهتهم ويحطون من مقاديرهم ويشببون ببناتهم ويسمعونهم مايكرههم ويغضبهم ويبكيهم فكانو يحلمون عنهم ويسكتون .

واذا انحدرنا من دولة بني امية الى دولة بني العباس وجدنا كثيراً من آثار الحرية حتى في المعتقدات والاستخفاف بالمقدسات .

انا نعرف ما وصلت اليه عداوة بني أمية وبني العباس وعلى الرغم من شدة هذه العداوة لم يسمح خليفة مثل أبي العباس السفاح بالاشتطاط في سب بني امية في مجلسه فكان يصغي الى كلام مواليهم الذين استعملوا من الحرية في الدفاع عنهم مالا ينتظر احتمال مثله من قبل السفاح .

وقد بلغ من حرية الناس في مقام الخلفاء في بعض الاحيان انهم كانوا يستخفون بالمقدسات كما استخف ابو دلامة بكتاب الله في مجلس المنصور . ثم أفضى الامر بالشعراء الى هجاء الخلفاء وسكوت الخلفاء عنهم فلم يعاقب المأمون الحسين بن الضحاك على هجائه اياه وكذلك سكت عن هجاء دعبل وكان يقول للذين يطلبون قتله: فاما القتل فاني لست استعمله الا فيمن عظم ذنبه .

واشتهر المأمون في زمنه بالميل الى الحرية فكما اتسع صدره لهجاء الشعراء فكذلك

اتسع عقله للمناظرات فكان يطلق لأصحابه الكلام والمناظرة في مجلسه .

وقد دفعت الناس حريتهم في مقام الخلفاء الى حريتهم في حضرة القواد والكتاب ومن هم في هذه الطبقة فكان أبو نواس يمر به القواد والكتاب وبنو هاشم فيسلمون عليه وهو متكىء ، ممدود الرجل لايتحرك لأحد منهم .

وكما استفاضت حرية الناس في مقامات رجال السياسة فقد استفاضت حريتهم في المعتقدات فكان فريق منهم يفسدون الأحداث ويدخلونهم في مذاهبهم .

الى اي شيء انتهت هذه الحرية ؟

بويع ابراهيم بن المهدي ببغداد وقد قل المال عنده وكان قد لجأ اليه أعراب من أعراب السواد وغيرهم من أوغاد الناس فاحتبس عنهم العطاء فجعل ابراهيم يسوفهم ولا يرون له حقيقة الى ان خرج اليهم رسوله يوماً وقد اجتمعوا وضجوا فصرح لهم بانه لا مال عنده فقال قوم من غوغاء اهل بغداد: اخرجوا الينا خليفتنا ليغني لاهل هذا الجانب ثلاثة اصوات ولاهل هذا الجانب ثلاثة اصوات فتكون لهم عطاء .

الى هذا القدر من الاستخفاف بالخلافة وصلت الحرية في آخر الامر .

هذه انماط من الحرية على مختلف أنواعها شهدنا آثارها في خلال القرنين الثاني والثالث، في الدين والادب والسياسة والاجتماع وغير ذلك ولكن الغريب في تأريخنا ان هذه الحريات لم تكن مطردة فقد نشأت في عصر نشأ فيه شيء من العنف والتعذيب والقتل وقد يكون الخليفة نفسه مصدر الحريات واضدادها واذا بحثنا عن اسباب هذا التناقض فقد يتعذر علينا الاهتداء اليها ولكني أرى ان السبب الارجح انما هو فقدان المبدأ العام في الدولة أو السياسة العامة فيها فلم يكن للدولة مبادىء واحدة يعمل بها الخلفاء والامراء والعمال وانما كان كل واحد منهم يعمل بحسب هواه أو مزاجه أو طبيعته أو خلقه أو الساعة التي يكون فيها ولهذا استفاض التناقض في سياسة الدولة في عصر واحد والذي شهدناه في تتبع التأريخ ان الشعراء كانوا أجرأ الناس على رجال السلطان فكما كانوا رسل الحرية فكذلك كانوا ضحاياها فكانوا يحبسونهم ويضربونهم الضرب المبرح او يصلبونهم او يحرقون دورهم او يقتلونهم ولم ينج من اشكال هذا

التعذيب الفحول منهم أمثال بشار وأبي العتاهية ودعبل وغيرهم .

والمؤلم ان ادبنا خال من نزعات الحرية فلم تستفض هذه الحرية في أضعافه لقد كان بعض الأئمة احرارا في أدبهم أي لم يجمدوا على قديمه وانما جروا فيه على أطوار العصور ولكنهم لم ينشروا فيه ما يقوي الحرية ويوطدهاوانما كانت الحرية في اكثر الاوقات نوعا من الهجاء ولا نكاد نجد في تضاعيف ادبنا من صور الحرية الا الشيء القليل مثل أبيات المعري المشهورة : ظلموا الرعية أو مثل سطور وردت في رسائل الخوارزمي أو مثل أبيات لأبي نخيلة فقد وقف أبو نخيلة مرة على باب أبي جعفر واستأذن فلم يصل وجعلت الخرسانية تدخل وتخرج فتهزأ به فيرون شيخاً اعرابيا جلفا فيعبثون به فقال له رجل عرفه: كيف ترى ما انت فيه في هذه الدولةفقال ابياتا ، منها:

وحلة تنشر ثم تطوى ... وطيلسان يشترى فيغلى

لعبد عبد أو لمولى مولى ... ياويح بيت المال ماذا يلقى

ولكن هذا المسكين قد ذبحوه وسلخوا وجهه وألقوا جسمه الى النسور حتى مزقت السباع والطيور لحمه ، ولم يبق منه الا عظامه !

فلو شاعت هذه النزعة في ادبنا وتسلسلت فيه على ممر العصور لبلغنا من الحرية ما بلغته الامم العريقة فيها يومنا هذا .

ليست الحرية قولا مؤلفاً من حروف وانما الحرية عقيدة مؤلفة من ايمان فاذا لم تكن الحرية عقيدة واقتصرنا على مجرد التغني بها في بيانات او خطب او تصريحات أصبحناضحكة بين الامم .

ولكن مادامت هذه الجامعة قد خلقت لترويض العقول على الحرية والأذهان على الاستقلال فالحرية ستكون عقيدة النشيء الكريم في حاضره وآتيه .

الرحلة النجمية (١)

لعميد كلية الهندسة الاستاذ وجيه السمان

الليل سا كن هادىء والسماء صافية تزهر فيها الوف النجوم وفي المشرق سحابة نور دكناء محمرة تبشر باشراق القمر بعد قليل بقرصه البرتقالي الجسيم والزهرى تتألق قرب المغرب بنورها اللامع ساحبة اذيالها من السماء لتترك المجال فيها لمليك الليل الذي سيتربع على عرشه السماوي بعد قليل . والشعرى والجوزاء وبنات نعش تدور دورتها اليومية غير عابئة بشيء . . .

في مملكة الفضاء هذه التي لا نشعر بعظمتها وهولها الا في الليل ، وطالما حجبتها عنا أنوار المدن . والتي لطالما ألهمت الشعراء الأدباء والهبت أحاسيسهم ووعظت الزهاد وهدتهم الى عظمة الخالق وقدرته ، واجنت اشواق المحبين ووجد العشاق المفارقين ، يرسل العالم اليوم بصره مسلحاً بأضخم النظارات الفلكية واجسم المراقب فيقيس أبعاد السيارات وتوابعها بدقة مدهشة ويصورها بالتفصيل حتى أنه ليستطيع ان يصور البيوت المبنية في القمر ، لو كان في القمر بيوت ، ثم يتقدم في بحثه وتنقيبه فينتقل من النظام الشمسي الى الكواكب الثابتة التي هي عنا من البعد بحيث ان اقربها الينا يستغرق ضوءه ليصل الينا عدة أعوام فيقيس ابعادها ايضاً وحجومها ثم درجة حرارة سطحها وتركيب كل منها ويدرس ماضيها ويتنبأ بمستقبلها ويتعداها بالبحث والتنقيب الى المجرة ومنها الى المجرات والسدم والعوالم النجمية الجديدة التي لم يكن وجودها ليخطر ببال أحد من البشر والتي تبعد عن نظامنا الشمسي بمئات الالوف من اعوام النور بل بالملايين .

---

(١) القيت على مدرج الجامعة الكبير مساء الاربعاء في ٢٨—١٢—١٩٤٩

لم يكن البشر ليبقى حيال هذا العالم الرحب مكتوف الخيال فقبل ان يعرف عنه ما صار يعرفه الآن ، كان خياله كثير الجولان في مملكة السماء فوصل النجوم بالآلهة ووضع لها القصص والاساطير وحمله مركب الوهم الى القمر كما فعل سير انودوبرجراك فارتفع في الفضاء وهو يحمل مغناطيساً فوق رأسه . ومن قبله بديع الزمان الهمذاني الذي انطق احد ابطال مقاماته بقوله : (والله لو وضعت اسفلك على النجوم ودليت رجليك على التخوم واتخذت الشعرى خفاً والثريا رفاً وجعلت السماء منوالا وحكمت الهواء سربالا فسديته بالنسر الطائر والحمته بالفلك الدائر ما كنت الاحائكا).والواقع انه كلما ارتفعت امكانيات البشر زاد تفكيرهم بمغادرة هذه الارض الى احد كواكب المجموعة الشمسية . ولما اخترعت المناطيد ظن الناس انهم سيجدون فيها المركب المثالي الذي سيوصلهم الى القمر ، ثم لما رأوا ان المنطاد لا يستطيع الارتفاع إلا في وسط غازي وان بين الارض والقمر فضاء واسعاً خالياً من الهواء ومن اي غاز آخر انتقل تفكيرهم الى المدفع كوسيلة لقذف السفينة التي ينوي ان يمتطيها معتزمو الرحيل الى السيارات لزيارتها .

واول من فكر بالرحلة الكونية تفكيراً علمياً منطقياً هو القصصي الفرنسي جول فيرن الذي عاش في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وصاحب القصص المشهورة التي يبحث اكثرها في الرحلات والمغامرات والتي كانت اكثر حوادثها تستبق الامكانيات المادية في ذلك العصر . وذلك حين كتب قصته التي اسماها :الرحلة الى القمر . على ان الاسس العلمية التي بنى عليها قصته هذه نوقشت في عهده وظهرت هفواتها ، وقد اصبحت نقاط الضعف التي فيها معلومة . وخلاصتها ان الرحلة تجري في سفينة ليست في الحقيقة الا قنبلة جبارة يطلقها مدفع جبار فيكسبها السرعة الكافية التي تخلصها من جاذبية الارض وتكفل لها السير عبر الفضاء حتى تصل الى القمر الذي هو قصد المسافرين الذين قبعوا في داخلها . وهذا المدفع الجبار يبلغ طوله ٣٠٠

متراً وهو قائم فوق الارض وقد صب معدنه فيها مباشرة ، وتدفع القذيفة بواسطة كمية كبيرة من المواد المتفجرة التي كانت معروفة حينئذ ويبلغ وزنها ١٠٧ اطنان .

وقد فكر جول فيرن بان هذا المدفع يستطيع ان يكسب القنبلة في خلال جزء صغير من الثانية سرعة هائلة تبلغ ١٦ كيلو متراً في الثانية ، على ان من المعلوم الآن ان هذه السرعة المكتسبة في أمد وجيز جداً يجعل ركاب السفينة تحت تأثير ثقل يعادل ٢١٤٠٠ مرة الثقل العادي للواحد منهم وتكفي ايضاً لاماعتهم ، هذا فضلا عن ان الهواء النسيمي سيقف حائلا دون مرور القذيفة كأنه جدار سميك من الحديد ، وسيرفع احتكاك جدار القنبلة به حرارتها الى الاحمرار في اقل من ثانية . فلكي تصبح المسألة قابلة للحل كان لابد من زيادة طول المدفع .

فلو اردنا ان نجعل التسارع المطبق على القذيفة تدريجياً ، وان نجعل المسافرين لايشعرون بثقل اكثر من ضعف ثقلهم العادي (وذلك شيء يحتمله الانسان) فان طول المدفع ينبغي ان يصير عندئذ ٦ آلاف كيلو متر ، ولكي لا يمانع الهواء نفوذ القنبلة ، فان فوهة المدفع ينبغي ان تقع خارج طبقات النسيم .

ولما وضعت هذه المسألة على بساط البحث من جديد بعد نصف قرن تقريباً ، حيث بحثت بالتفصيل تبين ان ثمة عقبتان تحولان دون تحقيقها وهما الجاذبية الارضية والهواء فينبغي ايجاد وسيلة للتغلب على الجاذبية اولا ، ثم ينبغي اجتياز طبقات الهواء بسرعة معتدلة ، والجهاز الوحيد الذي بين ايدي الانسان الآن لتحقيق هذا المشروع هو الجهاز المسمى بالصاروخ .

الجاذبية — تقيدنا الجاذبية الارضية بالارض كما يقيد الغل السجين ، ولا حيلة لنا في التخلص منها ، وكل ما يحيط بنا ، سواء اكان من صنع الطبيعة ام من صنع الانسان خاضع لناموس الجاذبية . ولا ريب في ان العالم نيوتون عندما وضع اسس هذا الناموس لم يخطر بباله انه سينطبق على المراكب التي سوف تصل بين سيارات النظام الشمسي على ان الجاذبية وان كانت في بدء الرحلة عقبة كئوداً فان السفينة متى بلغت اعالي الفضاء صار في امكانها ان تستفيد من الجاذبية بفضل ناموس السقوط الحر .

وينبغي ان لاننسى بهذه المناسبة ان ناموس الجاذبية يقضي بان شدة الجاذبية تتناقص

كلما ابتعدنا عن الكوكب الذي يجذبنا — فبفضل هذه الخاصة نستطيع مفارقة الكرة الارضية .

لننظر في أمر هذه الجاذبية مستعينين بشيء من الحساب . ان القنبلة متى فارقت المدفع اخذت سرعتها بالتناقص ومحركها بالانعطاف بسبب الجاذبية . حتى تنعدم السرعة فتتجه نحو الارض الى ان تسقط عليها . وكلما كانت سرعة القذف الابتدائية كبيرة امكن ايصال القذيفة الى مدى ابعد . فقذائف المدافع ينبغي زيادة سرعة انطلاقها اذا اريد زيادة بعد مرماها . واذا زدنا هذه السرعة الى حد كبير امكن ايصال القنبلة الى مكان بعيد جداً عن نقطة الانطلاق ولا يعوقنا في ذلك حقاً سوى مقاومة الهواء .

فلتبسيط المسألة لنجرد الارض من هذا الغلاف الغازي ولنزد في سرعة اطلاق القنبلة التي نقذفها أفقياً فالحساب البسيط يدلنا حينئذ على انه متى بلغت سرعة الانطلاق الافقية ٧٩٠٠ متراً في الثانية اصبح محرك هذه القنبلة دائرة مركزها الارض اي انها تصبح تابعاً من توابع الارض كالقمر ، واذا قذفت بسرعة ١١١٨٠ م / ثا فان محركها ينقلب الى قطع مكافيء اي انها تستطيع عندئذ الابتعاد عن الارض والتخلص من جاذبيتها وتسمى هذه السرعة الاخيرة بسرعة التحرر من جاذبية الارض .

الهواء الجوي واثره في الرحلات النجمية — ان الصاروخ المندفع بسرعته الهائلة لن يقضي في هواء الارض مدة طويلة ولكن ذلك لايغنينا عن ان نحسب لهذا الجو حسابه . قد يقول الانسان ماشأن بضع عشرات من الكيلومترات باذاء الـ ٣٨٤٠٠٠ كيلومتراً التي تفصلنا عن القمر او باذاء ٧٨ مليوناً من الكيلومترات التي تفصلنا عن المريخ ؟ ان شأنها حقير طبعاً ولكن لابد لنا من الوقوف لحظة حيال هذه الطبقة الغازية التي تغشينا ، لكي نرى الى اي حد سيساعدنا وجودها في رحلتنا النجمية او سيعيقنا . ان الهواء الذي لابد منه للطائرة لحملها من جناحيها لن يساعد الصاروخ الذي يمضي بالاندفاع بل يعيقه .

ان طبقة الهواء التي تمتد من سطح الارض الى ارتفاع ١١ كيلو متراً تسمى تروبوسفير وهي التي تجوس ارجاءها الطيارات الآن ، والطبقة التي تليها حتى ارتفاع

٨٠ كيلو متر تسمى ستاتوسفير ويوجد بعدها الى مايقرب من ٢٠٠ كيلومتر ذرات من الهواء تكفي لتسخين الشهب حتى توهج ومن الممكن ان توجد ذرات من الهواء على ارتفاع ٩٠٠ كيلومتراً كما تشهد بذلك حوادث الفجر القطبي .

لذلك لابد من مراعاة امرين مهمين جداً وهما اولا ان لا تكون سرعة الصاروخ عند انطلاقه من الارض كبيرة في البدء وان لاتبلغ قيما كبيرة الا بعد ان تكون السفينة النجمية قد بعدت عن الارض باكثر من الف كيلو متر وذلك لانه متى بلغت السرعة كيلومترين في الثانية ارتفعت درجة الحرارة في القسم الامامي من الصاروخ الى ١٦٠ ومتى بلغت السرعة ٣ كم / ثا صارت الدرجة ٢٦٦ ومتى بلغت السرعة ١٠ كم / ثا بلغت الدرجة ٧٥٤ . والامر الثاني المهم هو تأمين الجو الملائم للحياة داخل السفينة النجمية لانها ستنتقل في سيرها من الجو الذي اعتاد الانسان ان يعيش فيه الى جو آخذ هواؤه بالتخلخل الى ان يزول تماماً عندما يصبح الصاروخ في الخلاء المطلق.

ماهو الصاروخ ؟ اذا تأمل احدنا في سهم من الاسهم النارية وهو يرتفع في الجو في امسية من امسيات الاعياد فهل يخطر بباله ان هذا السهم يمثل نموذجاً صغيراً ومبسطاً جداً للسفينة النجمية او بالاحرى للجهاز الذي سيدفعها ؟

ان مبدأ الارتداد الذي يندفع بفضله السهم كما ترتد البندقية عندما تطلق رصاصتها وكما يرتد المدفع الى الوراء عندما يطلق قذيفته ، هو المبدأ الوحيد الذي يستطيع الاعتماد عليه للتخلص من قيد الثقالة وللابتعاد عن الارض ولا يمكن ابداً بفضل الطائرة العادية ذات الاجنحة الوصول الى هذه النتيجة . فالمحرك الارتدادي الذي يطير به الصاروخ محرك بسيط جداً يغذى بمادة مشتعلة كالكحول او بنزين الطائرات وبالاوكسجين اللازم لاحراقها ، ولما كان الصاروخ سيطير في الفضاء الخالي من الاوكسجين لخلوه من الهواء فلا بد اذاً من ان يحمل معه ذخيرة من الاوكسجين كما يحمل ذخيرة من الوقود . وقد حل الالمان هذه المشكلة في نهاية الحرب الماضية باستعمال الماء المحمض الذي فيه ذخيرة كبرى من الاوكسجين وذلك في تجربة الصواريخ الدافعة للقنابل التي سميت بالقنابل الصاروخية او سلاح الانتقام رقم ٢ على ان هذا

الحل قابل للتطبيق اذا كانت المسافة التي سيقطعها الصاروخ صغيرة اي بضع مئات من الكيلومترات وقد وجد الالمان انفسهم امام مشكلة صعبة عندما فكروا بصنع صواريخ بعيدة المرمى ليرسلوها الى الولايات المتحدة التي تبعد عنهم عدة آلاف من الكيلو مترات ، وذلك لان كمية الوقود والاكسجين اللازم عندئذ تصبح عظيمة الى حد يتضاءل الى جانبه وزن القنبلة التي يراد ايصالها وهي الغاية الاساسية من المشروع .

فكيف اذاً بارسال سفينة كبيرة محملة بالرجال والعدد والغذاء الى كوكب يبعد مئات الالوف او عشرات الملايين من الكيلومترات ، ذهاباً واياباً ؟

ان المصدر الوحيد للقدرة التي يمكن ان تحل هذه المسألة العويصة هو القدرة المنتشرة من تحطيم الجوهر الفرد والتي اشتهرت في بلادنا باسم الطاقة الذرية ، وقد ظهرت هذه الطاقة للمرة الاولى بشكلها العنيف عند انفجار القنبلة الجوهرية المسماة بالذرية ، لكنه يرجى في المستقبل القريب ان يتم اختراع المحرك الذي سيستفيد من هذه القدرة بشكل الين وامرن بكثير من الشكل العنيف الذي اطلقت فيه هذه القدرة عند انفجار القنبلة .

ان تحقيق السفينة النجمية متعلق على تحقيق المحرك الجوهري ، ذلك لانه بفضله وبفضله فقط يمكن توليد القوة المحركة في السفينة النجمية دون الاضطرار الى حمل كميات الوقود والاوكسجين هائلة تجعل امر هذه السياحة مستحيلا .

اوصاف السفينة النجمية — لما كان تحقيق هذه السفينة معلقاً قبل كل شيء على المحرك الجوهري الذي سيدفعها عبر الفضاء فلا بد من ادخال بعض التحفظ في اعطاء الوصف الكامل لها ، ويتعلق شكلها بالذخر الذي ستحمله من القدرة وبالغاية المطلوبة منها وبطول رحلتها وعدد ركابها وطريقة سيرها ومع ان تغيرات كثيرة يمكن ان تعدل معتقدات العلماء في هذا الشأن ، فان من الاكيد ان الشكل الخارجي للسفينة ينبغي ان يكون طبق قوانين الايروديناميك وان تصنع من معدن يتحمل تغيرات الحرارة ، وان يكون من الكثافة بحيث لا ينفذ منه الهواء ، ولحفظ ارواح الركاب ينبغي حمايتهام من نفوذ الاشعة فوق البنفسجية المنتشرة في الفضاء ولا سيما في الطبقات العالية منه قبل ان

يمتصها غاز الاوزون المحيط بالارض فتصل الينا مخففة جداً ، فينبغي اذاً جعل جدار السفينة على طبقتين يفصل بينهما طبقة من غاز الاوزون .

اما التقسيم الداخلي وحجوم الغرف وفرشها فذلك خاضع لامكانيات التوسع داخل السفينة وينبغي ان تجهز الجدران بجميع اجهزة القياس والدلالة كما ينبغي ان يكون فيها طاقات من الزجاج السميك المتين لتسهيل الرصد والملاحظة .

هذا وان الاكسيجين اللازم للتنفس يؤمن في قناني خاصة كما يؤمن عادة في الغازات ويطرح غاز الكربون الزائد والناتج من التنفس بواسطة جسم يمتصه كالكلس الصودي يوزع داخل الغرف . ولا يعدم المسافرون وسيلة للاضاءة سواء اكان ذلك بنور الشمس الدائم عليهم ، او اذا غاب عنهم احياناً بضوء الكهرباء كما انهم يستطيعون الانتفاع باشعاع الشمس في الحصول على درجة ثابتة داخل السفينة .

تصميم الرحلة والاستعداد لها — عندما يقرر الطيار ان يقوم برحلة جوية طويلة يهيء هذه الرحلة بكثير من الدقة حتى يؤمن لها نصيبها من النجاح فيرسم على خريطة الكرة الارضية الطريق الاوفر ، ويعين المراحل والمواعيد ويسجل النبوءات الجوية.

ولا حاجة الى القول بان الرحالة السماوي عندما يعتزم السير في الفضاء يجد نفسه امام مشكلة اعسر من الاولى بكثير لان الطيار ينتقل في حيز معين وامام سطح ثابت مقسم الى مناطق معروفة ولديه رسم الطريق على خارطة ولديه نقطة ثابتة هي القطب المغنطيسي .

اما الرحالة السماوي فلا يستطيع الاهتداء بالكواكب ولا بالموصلة ولا بالنجم القطبي ولكن لديه وسائل اخرى لحسن الحظ لان العالم الذي ينتقل فيه هو عالم الفلك اي عالم الدقة والضبط وهذه الدقة والضبط اللذان يسودان الاجرام السماوية يستطيع رحالتنا ان يستعين بهما في توجهه نحو الهدف .

لذا فان الرحالة كالطيار ، قبل ان يمتطي صهوة الفضاء ، يرسم على الخريطة السماوية الطريق الذي سيسلكه بعد ان يدخل في حسابه حركة الكواكب وشدة الجذب التي ستؤثر بها على سفينته ، فرادى او مجتمعه .

قلنا ان الموصلة تفقد هاهنا خاصتها وفائدتها ، ومع ذلك فان الرحالة النجمي يحتاج في كل لحظة الى ان يعرف مكانه في الفضاء والى اين هو ماض بين النجوم وذلك لئلا يحيد عن طريقه ، وقد يقول قائل انه لن يتيسر لهذا الملاح ان يقوم بقياسات دقيقة وهو في مركب مندفع بسرعة تبلغ عشرات او مئات الكيلو مترات في الثانية . اننا نجيبه ضاربين مثل الارض التي تعتبر بهذه المناسبة سفينة جبارة تمخر في الفضاء واذا كانت سرعتها في سيرها هذا لا تداني سرعة السفينة النجمية فان ذلك لا يغير شيئاً من المسألة . ان في استطاعة الانسان وهو فوق متن هذه السفينة الارضية ان يعين بدقة وفي كل لحظة ، المكان الذي هو فيه من الفضاء والمسافات التي تفصله عن الاجرام السماوية ، وذلك بدقة بالغة لا تمكنه من ان تقدر الزاوية التي يرى ضمنها هذه النجوم من فلك الارض فحسب ، بل ان يتنبأ قبل قرون عديدة عن اليوم والساعة والدقيقة والثانية والمكان من الارض الذي يستطيع منه ان يرى حدثاً فلكياً معيناً .

اذاً فالانسان يمارس الملاحة النجمية منذ زمان بعيد بدون ان يعلم بذلك ومن قبل ان يخطر بباله السرعة التي يندفع بها في الفضاء .

اذاً فعلى الملاح النجمي قبل ان يبدأ رحلته ان يجمع بين يديه جميع العناصر التي ستمكنه من معرفة مكانه على المحرك الذي يتبعه وذلك في كل خمس دقائق مرة . وعندئذ يصبح في إمكانه ان يشرع في رحلته عبر الفضاء .

هذا وان الصاروخ بعد مفارقته للارض يظل على اتصال وثيق بها بواسطة الرادار ويفيده ذلك في معرفة بعده عنها كما في تقدير سرعته ويفيده معرفة الزاوية التي تؤلفها السفينة مع جسمين من الاجسام السماوية في تقدير اتجاهه .

الطرق المختلفة للسير في الفضاء — يمكن تقسيم الرحلة النجمية الى ثلاثة ادوار مختلفة .

١ — الطيران بتأثير المحرك الارتدادي حتى الوصول الى السرعة التحريرية من جاذبية الارض .

٢ — السير بطريقة السقوط الحر على محرك اهليلجي الى ان تقترب السفينة من ساحة جاذبية النجم المقصود .

٣ — الهبوط على هذا النجم باحدى الطرق المهيأة وذلك حسبما يكون له جو نسيمي ام لا . ويمكن قطع المرحلة الثانية بطريقة اسرع بكثير من طريقة السقوط الحر وهي :

٤ — السير بطريقة التسارع الثابت .

ولا ريب في ان الهدف الاول للرحلات السماوية سيكون القمر لقلة بعده عن الارض بالنسبة الى الاجرام السماوية الاخرى . ولما كان القمر يدير نحو الارض احد وجهيه دوما فان الفائدة ستكون في زيارة وجهه الآخر الذي لا نعرفه وقد كان التفكير يتجه في البدء الى القاء هذه الرحلة على عاتق صاروخ مجهز بكافة اجهزة القياس والتصوير على ان لا يكون فيه أحد بل يوجه بصورة آلية لكن المهندس الالماني هوهمان ، وهو اكثر العلماء اختصاصاً في هذه الامور ، ابان انه يستحيل على هذا الصاروخ ان يصل الى القمر بدون معونة البشر في داخله .

وقد قدر الطريق الاوفر لهذه الرحلة بانه يقوم على اعطاء الصاروخ محركا اهليلجياً متطاولا الى ان يصل المنطقة التي يتساوى فيها جذب الارض وجذب القمر ومن بعدها يترك ليهبط عليه هبوطاً حراً .

قدر بعض العلماء المشتغلين بهذه القضية ان الرحلة من الارض الى القمر بطريقة السقوط الحر تستغرق اربعة ايام ونصف ، ولكن يسود الاعتقاد انه سيكتفى في المحاولات الاولى بالدوران حول القمر ، وان محاولة الهبوط عليه لن تجري الا فيما بعد.

الطيران بطريقة السقوط الحر — عندما يفارق الصاروخ الارض بحركة متسارعة ويبلغ السرعة القصوى المسماة بسرعة التحرر لا يبقى ثمة خطر في ان يسقط على الارض من جديد وعندئذ يمكن ايقاف محركه بحيث يتابع سيره بطريق العطالة او بعبارة اخرى بفضل السرعة المكتسبة وهذه السرعة تأخذ بالتناقص بسبب الجاذبية الارضية وهذه الجاذبية لا تؤثر في الصاروخ وحده فحسب بل انها تؤثر بنفس الشدة في كل ما يحتويه من الاجسام فاذا طرأ على الصاروخ تباطؤ قدره متر في الثانية طرأ مثله على كافة الاجسام ولذلك فانها ستبقى ساكنة بالنسبة الى جدار السفينة مهما كان الوضع

الذي تشغله وكيف يمكن لجسم ان يقع على ارض الغرفة اذا كانت هذه الارض تفر منه بنفس سرعته ؟

متى اندفع الصاروخ بالعطالة او بعبارة اخرى بطريق السقوط الحر اصبح جسما مستقلا لا تؤثر فيه القوانين التي تؤثر ، على سطح الارض ، بالاجسام ويمكننا ان نقول ان الثقالة تكون كانما زالت عنه تماماً .

المظاهر الغريبة التي تطرأ في وسط ليس فيه ثقالة — اذا نحن كنا في ذلك الصاروخ وهو يتحرك بحركة السقوط الحر وافلت من يدنا ، صدفة ، القلم الذي نكتب به فاننا سندهش لاننا لن نراه يسقط بل سيبقى في الهواء كأنه معلق ، في المكان الذي سقط فيه ، بخيط لا نراه ، فهذا الحادث الغريب — وهو في تلك الظروف شيء تافه — سيتكرر دوما وسنلاقيه في كل حركة من حركاتنا فيدهشنا في البدء ثم يسلينا .

فاذا اعدنا التجربة باجسام نلتقها متزايدة الثقل بالتدريج ، آملين ان نراها تسقط فانها تبقى في مكانها حيث يتساوى في ذلك العالم ثقل كافة الاجسام مهما اختلفت اثقالها على سطح الارض ولا يبقى فرق في الثقل بين فقاعة الصابون وكرة ثقيلة من الرصاص لانهما ستظلان معلقتين في سقف الغرفة .

ولن نفلت نحن ايضاً من حكم هذا القانون ، لذلك ينبغي ان لا تكون حركاتنا فجائية لانها قد تقذفنا فنرتطم بجدران الغرفة بل ينبغي ان يكون فيها كثير من الليونة والبطء وذلك لان عضلاتنا تظل محتفظة بقوتها ، فابسط حركة منا ترمي بنا الى سقف الغرفة كقطعة من الريش فنصطدم به ونرتد الى ارض الغرفة وننزو من جديد الى السقف . لذلك لابد لنا من زرع جدران الغرفة بمقابض ثابتة نعتمد عليها في انتقالنا . وكل جسم نلمسه سيأخذ بالحركة ، فالمحبرة ستعوم واذا هي انقلبت فان المداد لن يسيل منها . والخلاصة انه اذا نحن لم نثبت في داخل الصاروخ كل جسم في مكانه الخاص فاننا سنعوم في جو من الفوضى لاحصر له ولا يمكن وصفه .

وهنا سؤال لابد منه وهو هل يستطيع الجسم البشري التلاؤم مع وسط كهذا يختلف

عن الوسط الذي خلق له تمام الاختلاف ؟ وهل يمكنه ان يشعر دوماً بدون ضيق بذلك الشعور الغريب الناتج من انعدام الثقالة ؟ اي ان لايحس بثقل رأسه بين كتفيه وبثقل كتفيه على جنبيه وجنبيه على ساقيه وساقيه على قدميه وثقل قدميه على الارض التي تحاول الافلات منه كلما اراد ان يطأ عليها . وذلك لانه ليس في وسعنا الآن ان نخلق على ظهر الارض وسطاً اصطناعيا ليس فيه ثقالة . اما الاطباء فانهم لايرون بأساً من انعدام الثقالة اذ يقولون ان التنفس وامتصاص الاغذية فعلان مستقلان عن الثقالة اذ في استطاعة الانسان ان يتنفس ويأكل وهو مضطجع او مقلوب وكذلك طرح الزوائد الطعامية يحصل بالتقلصات العضلية .

السير بتسارع ثابت — تكفل هذه الطريقة بقاء ثقالة مناسبة داخل السفينة النجمية ولتحقيقها ينبغي استعمال المحرك الارتدادي الذي يشتغل بواسطة القدرة الجوهرية . وعندما تسير السفينة النجمية على هذا الاساس تقطع في الثواني المتتابعة مسافات متزايدة لان قانون هذه الحركة يقول ان المسافات المقطوعة متناسبة مع مربعات الازمنة اللازمة لقطعها . ولذلك نرى انه بينما كان ينبغي عدة اسابيع للوصول الى الزهرى واكثر من ذلك للعودة يكفي ٣٥ ساعة فقط للوصول الى الزهرى بطريقة التسارع الثابت وللمريخ ٤٩ ساعةو٢٠ دقيقةوللقمر ٣ ساعات و ٢٧ دقيقة .

ومن البديهي ان بقاء التسارع ثابتاً طول الطريق يجعل سرعة الصاروخ في الثانية مخيفة اذ انها في الرحلة من الارض الى المريخ تبلغ ٨٨٥ كيلو متر في الثانية وبالرغم من كبرها فان هذه السرعة لن تكون خطيرة على الانسان لانه سيصل اليها بالتدريج .

التابع الاصطناعي — الآن وقد وصلنا الى هذا الحد من بحثنا احب ان اتطرق الى الكلام عن التابع الاصطناعي الذي كان الالمان يدرسون مشروعه قبل انهيار جيوشهم والذي اخذه عنهم الحلفاء وامريكا خاصة فقد كانوا يعتزمون صنع كوكب صغير يطلقونه من الارض ليندفع الى بعد ٣٦٠٠٠ كيلو متر حيث يبقى ثابتاً بالنسبة الى الارض ويشترك معها في حركتها الدورانية .

ولكي نفهم كيف يمكن لجزيرة مساحتها عدة كيلو مترات مربعة ان تطير الى

الابـد حول الارض دون ان تحتاج الى محرك ، لنتصور بالفكر جسماً ما على خط الاستواء الارضي فهو خاضع لقوتين متعاكستين وهما ثقله اي قوة جـذب الارض له والقوة الثانية هي القوة النابذة الناتجة من دوران الارض وتسعى هـذه القوة الثانية في قذف الجسم نحو الفضاء ولكنها في الواقع اصغر بكثير فالشخص العادي الذي وزنه ٧٠ كغ تبلغ القوة النابـذة المؤثرة فيه اذا كان في خط الاستواء ٩٦٥ غراماً بحيث ان وزنه الظاهري في خط الاستواء لايبقى سوى ٦٩٫٣٥ كغ .

فلنفرض ان الارض صارت تدور بسرعة اكبر من سرعتها الحالية فقوة جاذبيتها تبقى على حالها في حين ان القوة النابذة تزداد لانها متماثلة مع مربع السرعة الزاوية ولو دارت الارض اسرع منها الآن بـ ١٧ مرة لعـدلت القوة النابذة الثقل فتصبح الاجسام التي في خط الاستواء عديمة الثقل .

ومن البديهي انه لايمكن ان تدور الارض بسرعة اعظم من سرعتها الحالية بـ١٧ مرة ولكن يكفي ان نعطي للجسم المتحرك سرعة افقية تساوي التي يكتسبها فيما لو كانت الارض تدور بتلك السرعة الهائلة حتى يمضي في سبيله بدون ان يسقط — على ان هذه التجربة غير ممكنة لوجود الهواء ولكن اذا رفعنا هذا الجسم في الجو حتى خرج عن منطقة الهواء اصبحت المسألة ممكنة الحل .

فاذا كان ارتفاع الجسم عن الارض ٣٠٠ كيلو متراً مثـلا فمن السهل حساب السرعة التي ينبغي اعطاؤها له ويكون ذلك باشتراط تساوي جاذبية الارض والقوة النابذة فنجد عندئذ ان السرعة ينبغي ان تبلغ ٧٫٧ كم / ثا .

على انه لافائدة من هذا الكوكب الصغير التابع لانه سيمر فوق رؤوسنا بسرعة هائلة . لكن فكرة التابع الثابت بالنسبة للارض هي اكثر اجتذاباً للرغبة .وتحقيقه يسير على نفس المبدأ . اذ لو فرضنا ان الجسم الذي كان في خط الاستواء صار يرتفع شاقولياً فهو في الحقيقة يدور مع الارض لاحتفاظه بسرعته التي كان عليها لما كان على الارض ، فكلما ابتعد عن الارض نقصت قوة الجاذبية وزادت القوة النابذة الى ان يأتي حين تتساوى فيه هاتان القوتان فيبقى الجسم متوازناً مهما كان حجمه ووزنـه .

ويدل الحساب على ان الارتفاع الذي ينبغي ان يبلغههو ٣٦٠٠٠ كيلو مترتقريباً اي مايقارب ٦ امثال نصف قطر الارض .

يمكن صنع هذا التابع قطعة قطعة ، وايصالها الى مكانها المناسب في الفضاء الواحدة بعد الاخرى ثم وصل هذه القطع فيما بينها حتى تؤلف جزيرة صغيرة في بحر هذا الفضاء الواسع ، ولاريب في ان القواعد التي ستتبع في ايصال هذه الجزيرة الى محركها هي عين التي سبق ذكرها بمناسبة السفينة النجمية فلا حاجة بنا الى الرجوع اليها .

واما الاناس الذين سيعيشون في هذه الجزيرة فيتحتم عليهم ان يلبسوا دوما ثياب الغطاسين وان يضعوا فوق رؤوسهم الاقنعةالفولاذية التي تؤمن لهم ضغطالهواءالمناسب ولا يخلعوا هذه الثياب الا متى دخلوا الى غرفهم المحكمة الايصاد . ولما كانت الثقالة معدومة على سطح هذه الجزيرة لتساوي القوة النابذة مع جاذبية الارض فان من اللازم تثبيت الركاب بارض سفينتهم باستعمال نعلين مغناطيسيين مثلا ، او بتوليد ثقالة اصطناعية بواسطة الدوران ، واذا خرج الركاب من سفينتهم بألبسة الغواصين تحتم عليهم ان يربطوا انفسهم بالمراسي والحبال حتى لا تطيح بهم عثرة بسيطة ، فتقذف بهم الى الفضاء العريض حيث لايستطيعون العودة .

لقد لوحظ انه اذا ركض الانسان على اصغر تابعي المريخ ، واسمه ديموس ركضاً سريعاً ، فانه قد يبلغ السرعة التي تحرره من جاذبية هذا التابع الصغير الذي لايزيد قطره على ١٠ كيلو مترات ، فينفصل عنه ولا يستطيع الرجوع اليه ابداً . وبهذه المناسبة نذكر ان بعض مفكري الرحلات السماوية قد فكر ان يقول خلال رحلته النجمية الاولى بسرقة هذا التابع الصغير من مملكة المريخ وذلك بان يركب فيه بعض الصواريخ ويفجرها في الوقت المناسب فيوجه ديموس نحو الارض ليستفيد منه في غايات ارضية . كأن يجعله محطة تأوي اليها السفن النجمية في رحلاتها عبر الفضاء وتتزود منها بما تحتاج اليه من ذخيرة ومئونة ، فيولد الكهرباء فيه بمحرك حراري يستفيد من حرارة الشمس ويكون منبعه الحار متجها نحو الشمس فتبلغ درجته

+ ١٢٠ درجة ومنبعه البارد نحو الفيء في الفضاء ، حيث تبلغ الدرجة — ١٠٠ درجة فتتولد القدرة بثمن زهيد ويستفاد منها في الانارة والطهي وتشغيل اجهزة الراديو وتأمين اسباب الرفاهية ، وتصبح هذه الجزيرة كالجزر العائمة التي كان يزمع تأسيسها في الاتلانتيك والباسفيك لتموين السفن بالخضار الطازج ، وستكون سلطة الخس المستنبتة من غاز بلا ماء الفحم المتراكم في هواء زفير سكان الجزيرة اعظم مثال على طريقة الاسترداد التي كان الالمان ابطالها في خلال الحرب المنقضية .

ماهي الفائدة من هذا التابع الاصطناعي ؟ ان الدافع الاول على التفكير بهذا التابع كان ذا غايات عسكرية صرفة وأهم الفوائد العسكرية التي تتوخى منه هو الذي استعار انتباه الالمان وهو الاستعانة بهذه الجزيرة على توليد الحريق في الارض عن بعد بواسطة مرايا جسيمة تركز اشعة الشمس على الهدف ، فالاشعة المركزة بهذه الوسيلة اشد انواع اشعة الموت خطراً ، وليس ثمة حاجة الى التركيز المفرط الذي يوصل درجة الحرارة الى القيم العالية التي تنصهر فيها أشد المواد مقاومة للحرارة بل ان الدرجة المتوسطة التي تحصل من التقاط اشعاع الشمس بمرآة سطحها الف متر مربع وتركيز هذا الاشعاع على سطح قدره ١٠٠ م٢ ، ان هذه الدرجة كافية لتوليد الحريق على سطح الارض لاسيما في اواخر الصيف فتبيد الغابات والمحاصيل ، وفي ذلك بلاء عظيم للأمة التي تسقط عليها هذه الكارثة .

قد يقال : كل هذا خيال يتلهى به الانسان على هامش العلم الصحيح ، فيرضي بذلك روحيته الحالمة ولكن العقل لايؤمن بذلك ولايقبله المنطق لانه يستحيل تحقيقه اذا قيل ذلك فلنذكر بان هذا شأن كل المخترعات والمكتشفات في امسية حدوثها . لقد كان مفهوم القدرة الجوهرية التي آمن بها الناس جميعاً يلاقي مثل هذا الانكار منذ عشرين عاماً وكان قليل من العلماء يؤمن بامكان اطلاق القدرة الهائلة المختزنة في اعماق الجوهر الفرد ، ثم صارت القنبلة الجوهرية والعمود الجوهري فاصبحا شيئين عاديين في حياة البشر .

ولنذكر الوف الصواريخ التي طيرها الالمان على انكلترا والصواريخ التي كانوا يعتزمون اطلاقها على امريكا ولنستمع من حين الى آخر الى الانباء التي تذاع علينا بشأن التقدم في صناعة الصواريخ في امريكا وروسيا وانكلترا . من زيادة في الارتفاع الذي تصل اليه وفي المسافة التي تقطعها وفي السرعة التي تبلغها . اذا ذكرنا كل ذلك وامثاله في جميع المخترعات التي تتسابق الدول في تحسينها ، وصلنا الى النتيجة الاكيدة الآتية : وهي ان السفينة النجمية قد اوشك صنعها ان يتم ولا ينقصها الا اخراج المحرك الجوهري الى حيز الفعل وهو لا يبعد ان يصبح حقيقة راهنة في السنين العشر المقبلة . ان غداً لناظره قريب .

ان التغاضي عن الواقع والحقيقة لا يفيد العاقل شيئاً ولا يرضي الا نفسية الخامل والجبان ، واننا معشر العرب منذ بدأنا نعي امرنا وامر غيرنا ونضع انفسنا في مكانها الحقيقي من هذه الدنيا ، وصرنا ندرك سبق الغرب لنا قد قضينا الاعوام الكثيرة نسمع باختراعات الغرب واكتشافاته ونشاهدها تغزو حياتنا فنعجب بها وندهش منها ونحترمها ونستفيد منها او نذعن لقوتها الغالبة دون ان نساهم ولو قيد شعرة في ميداني الاختراع والاكتشاف . فهل سنرضى بتمثيل هذا الدور الى الابد ؟ ولسنا أقل ذكاء منهم وليست عقولنا دون عقولهم في شيء . ولكن السبق المخيف الذي سبقونا به في الماضي قد أيأس الكثيرين منا لانه ينقصنا الايمان بمواهبنا ولا نعرف كيف نستفيد من هذه المواهب ولا كيف نسخر الزمن لاغراضنا كما يسخره غيرنا على الاقل، بل نحن ندع الزمن يزيدنا خطأ على خطأ وضعفاً على ضعف وجهلا على جهل . اذا لم يشتغل طلابنا بدروسهم بكل جوارحهم وقواهم ، بل شتتوا جهودهم في ما عداها من الافعال وهم في السن الوحيدة التي تأمنت لهم فيها سبل الدراسة والتفرغ ، ولم يشتغل علماؤنا بعلومهم غير ملتفتين الى اي شيء آخر ، ولم يكن لجامعتنا شعار يمثل عقلية الانكباب التام على العمل ، هذه العقلية التي لابد منها للنجاح فاننا لن نصل الى اي شيء وسنظل في مؤخرة الامم والعوبة في يد الامم .

لقد رأيت في اوربا الشعار الآتي Technique d'abord معلقاً في امكنة كثيرة وليس لكلمة تكنيك ما يقابلها في العربية ولو زعم الزاعمون، فهذا النقص دليل اكيد على ان فقدان الاصطلاح ناتج عن فقدان المسمى بذاته ، وان الرغبة في الاتقان والتمام والكمال والدقة — وقد كان كل ذلك من خصائص اجدادنا القدماء وتطبيق العلم والمنهج على الماديات والمعنويات لم تنبت بعد في قلوبنا . فلنستنبتها ونغذيها ونثمرها لانه بدونها لن يكون لنا كيان في عداد الاحياء والاحرار .

❀❀❀

تاريخ اللغة البرتغالية [1]

للاستاذ جورج ليان

هبط هندي من منسكه الى المدينة بعد انفراد وزهد طويل ، فوصلها تعباً من وعثاء السفر ، ومما قاساه من عذاب في رحلته ، فقد كان قليل الزاد الا بما في دماغه. طرق الباب وولج العتبة للقاء داعيه ، حاسر الرأس احتراماً ، خاشع الطرف حياء ، امام مجمع ضم بين جدرانه نخبة علماء بلاده ، وعيون وطنه ، القى عليهم السلام وقال: انى لي ان احظى بشرف المثول بين ايديكم وتلبية دعوتكم للانضمام الى حلقتكم النيرة بالعلوم والمعارف ، وقد اصبحتم مشكاة هذا المجتمع ودليله في معارج معرفة سفر الحياة بما افضتموه عليه من خيرات تجاربكم وافكاركم ، واذ يتعذر علي ان اضارعكم حكمة واختباراً ، فقد عزمت على ان ارى ما ترون واسمع ما تسمعون ، واتعلم ما تعلمون . واسمحوا لي ان اتقدم خطوة وازيح النقاب عن وجه كأس المعرفة ، واضع على مائه وريقات من الزهر ، يعطر المكان ولا تشغل حيزاً .

ايها المحفل الكريم :

لغة جديدة ، وثقافة جديدة ، انقل أول حجر من أحجارها الضخمة في المغرب ، لأضعه في أس بناية المعرفة في الشرق . أنقل ثقافة ملايين من البشر بسطت عليهم سياسة الأقوياء ظلالها ردحاً من الزمن ، فأزالت معالم حضارتهم ومحت آثار جهادهم واكتشافاتهم من معاجمها . واللغات تحيى ابداً حياة آلية ، اي ان بقاءها يتوقف دائماً على قوة ثقافة الشعب وسمو ادبه وبليغ نفوذه ، وعامل القوة هو الفعال أبداً في تدعيم اللغة ونموها وانتشارها فاذا ارتقى الانسان علماً وسطا عليه الترف فقد القدرة على التقدم والنجاح وهذا ما أصاب الاسبان والبرتغاليين الذين انغمسوا في الترف فانحطوا سياسة وتفرق شمل الوحدة التي تمتعوا بها حيناً في القرون الوسطى حتى القرن

---

(١) القيت على مدرج الجامعة السورية الكبير مساء السبت في ٧/١/٥٠

السادس عشر ولما صحوا من صدمة استيلاء الاجانب على ثروتهم العلمية وجدوا قافلة العلوم والفنون والصنائع والثقافة العامة قد سارت وتركتهم وراءها بعيدين ، نشطوا ايوم وفتحوا خزائن مكتباتهم المليئة بنفائس المخطوطات العلمية والادبية والفلسفية والفنية فاذا بها ودائع عربية نفيسة وآثار كتابية نادرة .

اننا نفتح صفحة جديدة في تاريخ الثقافة العربية ونعيد الى الاذهان ذلك العصر العربي الزاهر في شبه الجزيرة الايبرية حيث ازدهر العلم والعمران والحضارة في ظلال العرب .

قد يتساءل البعض ، وما شأننا واللغة البرتغالية والاسبانية ؟ الا يكفي طغيان الفرنسية والانكليزية الدوليتين على كل لغة في بلادنا ؟ فنجيب :

ان رابطة الفكر من امتن الروابط وأقواها بين الشعوب ، ولا شك أن محور هذه الروابط هو الصلات الثقافية البريئة من كل طعن ، والبعيدة عن كل مأرب والمنزهة عن كل استثمار يغنم به فريق ويغرم آخر . فالبرتغالية والاسبانية لغتان حيتان لا يقصد بنشرهما وتعميم ثقافتهما تأييد فكرة أو بث مبدأ من المبادىء ، لكن مايربطنا بهما وبشعبيهما بحكم الفتح القديم يوجب علينا ان نرجع قليلا الى التاريخ فنتعلم ولو قليلا من الذين كنا علمناهم ، وتركنا آثارنا وعلومنا بينهم ، علينا ان ننقل الى ادبنا ما لم يزل منه مكنوزاً في ديارهم ، ومن التاريخ مالايزال مجهولا لدينا .

ويجدر بي ، ان انوه بما صرح به سعادة سفير البرتغال في البرازيل ، الدون جوان انطونيو بيانكو ، اذ اشار في احدى مواقفه الرسمية الى الروابط المتينة التي استحكمت بين البرتغال والشعوب العربية وهي صلات الدم والعرق واللغة قال : أني أعدّ البرتغالية كأبنة شرعية للعربية ، والكل يتمنى ان يكون هذا الكرسي البرتغالي في الجامعة السورية ، فاتحة عهد ثقافي جديد بين الشعوب المرتبطة بوشائج الدم الاسبان والبرتغال والعرب .

ويصرح رجال العلم والأدب في اسبانيا « ان كل الأمم ، حتى تلك التي لا صلة لها بتاريخ اسبانيا والبرتغال وآدابها وتقاليدهما ، تعنى بدراسة آثار العرب في المعاهد

الفنية والمجامع الادبية ، بينما العرب انفسهم في غفلة عن هذه الكنوز الثمينة والآثار العظيمة » .

لم يتصل العرب بعد نزوحهم عن الاندلس بالاسبان لاسباب وعوامل شتى فكانت القطيعة منذ عدة قرون بين الشعوب العربية وشبه الجزيرة الايبرية ، وكان مرور الزمن عاملا رئيسياً على محو الاسباب التي دعت الى هذه القطيعة . فالعرب اليوم غيرهم بالأمس في المعترك الدولي ، يتبادلون الوفادات الرسمية مع الجميع ويحضرون المؤتمرات الدولية العلمية والفنية والاقتصادية والسياسية . وتحتك مصالحهم في كل النواحي العملية بمصالح أمم الارض . فحاجتنا الاساسية اذن كدول ذات كيان ، ان نأخذ بالاسس التي استندت اليها الدول القديمة في دعم تكوينها على ان لاتقتصر على تعلم لغات الآخرين فحسب ، بل على درس تاريخهم وعاداتهم واخلاقهم وميزاتهم وشؤونهم العامة والخاصة وان تكون دراساتنا لأحوال امم الغرب مماثلة لدراساتهم العميقة عن الشرق تلك التي بلغت ذروة عالية من الدقة والتخصص والبراعة . حتى لنجد بين متعلميهم ، العدد الوفير ممن يتقن اللغة العربية ولهجات اقاليمها ومناطقها المتعددة ، ليس لخدمة الأدب بذاته — ولا لمجد الله — بل خدمة لمصالح دولهم فيفدون الينا افراداً وجماعات في بعثات رسمية ، وعلى شكل وفود علمية او تحت ستار النبش عن الآثار والسياحة وجوب الاقطار للتعرف بما في الشرق من عجائب وغرائب .

أيها السادة :

انا مقتنعون جداً بوجاهة فكرتنا ، وعلى أساسها نبدأ دراساتنا وابحاثنا اللغوية والادبية والتاريخية التي لنا بها صلة مباشرة مع شبه الجزيرة او مع الشعوب الاميريكية اللاتينية الجديدة . ولكي نتعرف الى شعب ما يتحتم علينا درس تاريخ لغته ونشأتها ولما كانت اللغة البرتغالية هي محور موضوعنا وجب الاطلاع على تاريخها القديم توصلا الى فهم أدبها وعلاقته بأدبنا .

ان أصل اللغة البرتغالية هندي اوروبي تغلبت عليه اللاتينية وهي لغة شعب ساد شعوباً متعددة وامتد سلطانه السياسي والثقافي الى معظم مقاطعات اوربا وافريقيا وآسيا

كما بسط اروقته على شبه الجزيرة الايبرية (الـعـبرية) ، فغدت الامة الرومانية أمة تضع تحت جناحها امماً مختلفة في الجنس واللون ، متباينة في المدنية والعمران .

فاللاتينية هذه وهي احدى اللهجات الايطالية كأختها الأوسكو والأميريكو ، كانت لغة الجمهورية اولا والامبراطورية بعدئذ ، وقد امتازت اللاتينية بصفتين متباينتين ، العامية والفصحى . فالأولى منهما كانت لغة الشعب والثانية لغة الآداب والديوان . وتوسطت مع الزمن بين هاتين الصفتين لغة العائلات المختارة ولغـة الخطبـاء والوعاظ اليوميين ، الذين كانوا يبيحون في خطبهم ومواعظم واحاديثهم الخاصـة من الكلمات والعبارات ما لا تجيزه لغة الأدب ، فنجمت عن ذلك فوارق بينة في المصطلحات ، لم تؤد الى انحطاط اللغة بسبب استعمال كلمات وعبارات حوشية ، بل لبست مع الزمن حلل الجدة والابداع ، وتهذبت لهجتها تدريجيا . وارتقت رقيا محسوسا بما أفاضه عليها خيال الادباء والشعراء في أحقاب متتالية من وحي نهيّ ، حتى أصبحت لغة مقبولة وسهلة ممتعة تغلغلت في روح الامة وصارت تعبر عن صور حياتها وروحيتها وتفكيرها ومدنيتها وأثرت الحياة الرومانية ببعض مظاهرها واشكالها ، في لغة الاقليم ولهجاته وعاداتـه واراداته ومدنيته حتى صار كل ما في شبه الجزيرة روماني الصبغة . ولم تكن خطـة روما القديمة في تطبيق سياستها الاستعمارية للسيطرة على الشعوب سوى الخطة ذاتهـا التي يتمشى عليها استعماريو العصر الحاضر . اما رومانية شبه الجزيرة الايبرية فلم يتم بسهولة . ودامت سيادة اللاتينية وقوتها على هذا النحو من التأثير في المنطقة الايبرية من اوائل القرن الثالث قبل الميلاد حتى أواخر القرن الاول بعده اي منذ اجتاحت جيوش الفاتح كينو سيبيون وجنود أخيه بوبليو شبه الجزيرة حـتى قيام محرري البرتغال فيرياتو وسرتوريو اللذين شقا عصا الطاعة واعلنا العصيان العام ومقاومة كل ما هو روماني . وامتدت ثورتهما الى اسبانيا بينما كانت روما ترسل الحملات التأديبية لاخماد الفتن والثورات المتعاقبة التي لم يخمد اوارها حتى زحفت جنود البربر على شبه الجزيرة في القرن الخامس للميلاد وطردت آخر جندي روماني فيها .

ومما لا شك فيه ان معظم البرتغالية حالياً هو من اصل لاتيني ، والشعب البرتغالي

يقول انه احد ورثة مخلفات الرومان ، على اعتبار ان اللغة اللاتينية والثقافة الرومانية احتلتا المكانة الاولى في طول البلاد وعرضها فسيطرتا على المعارف العالية والآراء والمنشآت وأثرتا في ترتيب الآداب الاجتماعية والعادات العملية وقواعدهما وفي العقائد الدينية والمذهبية واشكال ادارات الاحكام والقوانين وغيرها . ولكن هذا التأثير كله قد تأثر هو ايضاً بما طرأ عليه من مصطلحات شعوب شبه الجزيرة وعاداتهم وتقاليدهم وما ألفوه في حياتهم الخاصة والعامة . وهكذا بدأت اللغةالبرتغالية تتميز لفظاً واجتماعاً رويداً رويداً وتتخذ شكلا خاصاً ومنحى صريحاً يفرق بينها وبين لهجات ولغات اسبانية المتعددة وازدادت هذه الفوارق بعدئذ حتى الفتح العربي في القرن الثامن للميلاد بدخول تعابير مغايرة لخصائص اللغة الاصلية كاستعمال المجاز والاستعارة فصار للبرتغالية مرونة اللغات الحية وسهولة الاشتقاق وقوة الابتكار والابداع ، الا ان البرتغاليين تركوا قليلا من المصطلحات بألفاظها الاصلية في الاسبانية والفينيقية واليونانية والأوسكاراس والسلتية والجرمانية والعربية ولغات الشعوب الاخرى التي اجتاحت شبه الجزيرة ، وكانت مماثلة لها روحياً وسياسياً كالكستالية والفرنسية والايطالية والانكليزية . ولم يستطع البرتغاليون تحاشي اقتباس كلمات افريقية واسيوية وهندية امريكية بحكم ولعهم بالفتح وبالنظر لامتداد سلطانهم الى ما وراء البحار ، كما تسربت منهم بالوقت ذاته كلمات وعبارات كثيرة الى اللغة اليابانية حينما اكتشفت طلائع البرتغاليين جزر اليابان حوالي ١٥٤٢ .

ونخرج من هذا التحديد الى ان اختلاط الفاتحين بالسكان الاهلين في شبه الجزيرة ، كان في المناطق الشرقية والجنوبية اشد منه في ناحية الاطلنتيك وهذا ما سبب تباين اللهجات وانفصام الوحدة اللغوية وانقسامها الى اسبانية وبرتغالية ولا شك ان للاعتبارات السياسية اساساً متيناً في تكوين القومية في اواخر القرن الحادي عشر فانطبعت بطابع أدبي خاص ميزها عن بقية اللغات في شبه الجزيرة الاسبانية .

تشتق كلمة برتغال من بورتوس كاله اوبورتو كاله نسبة الى مدينة بورتو احد مرافىء تلك البلاد. واول من استعمل هذه الكلمة الكاتب هيداسيو في القرن الخامس فكانت

الرسائل والوثائق وقتئذ تكتب باللاتينية الحوشية حتى اواخر القرن السادس عشر . وتطورت هذه اللغة تدريجياً وحلت بجدتها محل اللاتينية القديمة في الشعر والخطابة والأدب، ثم ضبطت قواعدها وتصاريفها وافعالها وماشت جنباً الى جنب اللغة الاسبانية. ويمكن اعتبار دور الانتقال من جاهلية البرتغال الى مدنيتها من ظهور ملحمة كامويس الخالدة بين الملاحم السبع المشهورة في العالم . وبقيت اللهجات في الاقاليم كما هي وتعددت بعد فتوحات البرتغاليين واتصالهم في ماوراء البحار بشعوب آسيا واميركا وبلغت الآداب والثقافة البرتغالية اوجها في ذلك العصر مرافقة عظمة الامة وقوتها وسلطانها الواسع حتى استقلال البرازيل وانفصالها عن البرتغال ، حيث نشأ في العالم البرازيلي ادب جديد تمثل بروح جديدة وعقلية جديدة مع طابع استقلالي بلغ ذروته في العصر الملكي واوائل العهد الجمهوري مساراً الادب الغربي بنزواته ونزعاته وسموه وغاياته حتى اواسط القرن الثامن عشر ومن ثم أخذ بالانحطاط والتبذل حتى وقتنا الحاضر بسبب ما طرأ عليه من عوامل شتى كما طرأ على بقية آداب العالم .

ولقد تحرر الادب البرازيلي من القيود القديمة فلا يحتفظ منها الآن الا بالقدر الصغير الذي يخدم اهداف الادب وبذلك مضى مستقلا مصعدا في مرتفعاته ما شاء له التصعيد لا يحسب لأحد حساباً ولاينظر خلفه ليرى من تبعه ومن لم يتبعه، وهذا الاتجاه في الادب البرازيلي المعاصر ظهرت طلائعه في حملة اقلام جريئين خالفوا اتجاهات ادباء النهضة الاقدمين الذين ماجرأ أحد منهم على حمل القلم قبل ان ترسخ قدمه بأعماق الثقافة المعروفة في عصره . فقد كان الاديب وقتئذ يدرك انه ينشيء ادباً هو ذلك الشيء الذي يتصل اتصالا مباشراً بالجزء الممتاز في كيان الانسان، واما ادباء البرازيل وبعض ادباء البرتغال المعاصرين فانهم اندفعوا الى اختصار الطرق والهرب من الجهد اللغوي واتخذوا قوة البيان مركباً هيناً لا يكلف اكثر من صف العبارات وتنميقها كيفما اتفق ليطلق على هذا العمل الزهيد بعدئذ اسم الادب المبتكر والعمل الاصيل . . .

وما دامت هنالك جماهير ينتشر بينها التعليم عاما بعد عام وتنجذب بطبيعتها الى اللون اليسير الخفيف الشائق ، وما دام هنالك ناشرون يريدون الربح ويمدون الناس بما

يشتهون ، فلا بد ان يكتب الذيوع لهذا النوع من الادب. وقد كتب الشاعر الكبير اولافو بيلاك في احد ابحاثه عن اللغة البرتغالية في البرازيل ما نعتبره حجة في تعريف هذه اللغة في تلك البلاد . اذ اشار في موضوعه الى ان القسم الاعظم من كلمات اللغة الوطنية ليس من ابتكار الانسان بل وليد الارض فبين الالوف والالوف من الكلمات التي نتكلمها ونكتبها في البرازيل ما لا معنى له في البرتغال ، منها قسم في اسماء النباتات والحيوانات وما يعلو الارض من مظاهر طبيعية وزراعية وقسم في الملاحة والصناعة . فمن تلك الكلمات البرازيلية الاصلية ما هو من اصل هندي او افريقي ومنها ما هو من ابداع الشعب وابتكاره ، استوحاها من مشاهدة التقلبات الطبيعية كالنور والوان السماء ، ومن فيضان الانهر واعصارات الاوقيانوس وصخب الرياح وحفيف الاوراق وزقزقة العصافير من كل الاجناس والانواع وجميع اصوات المخلوقات الحية التي تعيش هناك بينها وتسمعها » .

فهذه العوامل قد زادت في ثروة اللغة البرتغالية وضاعفتها ، والامم النشيطة هي التي لا تقف جهودها عند حدود لغتها ، بل تماشي قافلة العلوم المتقدمة في معارج الترقي والتطور . وهكذا ندرك ان الأدب لا ينبت وحده في صحراء قاحلة ولا في جزيرة من الجزر النائية ، وانما ينبت وسط المجتمع ويستمد جذوره من حياته ، فما يهز المجتمع من قوى ادبية واجتماعية وغيرها لا يلبث ان تجد صداه في صور الادب، واثره في توجيه نزعاته وصياغة اشكاله ، كما ان الادب يصبح بدوره احدى القوى الفعالة في بناء النظم الاجتماعية وتغذية الحركات الفكرية .

واننا قضاء لفريضة الأدب نعرف العرب على الروح البرتغالية في شاعرين هما كاسترو آلفس وكازميرو دي أبريو وكل ما في الأدبين البرتغالي والبرازيلي بوجه عام هو حنين وشوق الى البلاد الأم ومن فيها ، انغام غرام، والحان هيام، ونشائد اخلاص، حب وخوف، وامل ويأس، وتشبيب ورثاء . فمن ذلك :

أيا شوقي الى فجر حياتي ، الى طفولتي التي لن يأتي الزمان بمثلها وآها لحبي وأحلامي وازهاري ، في الغدو والآصال تحت ظل الموز بين البرتقال

في تلك الأيام الجميلة كنت اتنشق أنفاس الطهارة كأنها نفحات الأزهار الطيبة والبحر أمامي بحيرة هادئة صافية، والسماء فوقي وراء ازرق لامع والعالم دوني أحلام ذهبية شهية! والحياة انشودة الحب الشجية.

فياحبذا تلك الحياة الجميلة الهادئة وحبذا تلك الليالي المطربة التي قضيتها على نغمات الحب النقي.

والسماء مزينة بالأنجم الزهر! والرياض مدبجة بأنواع الزهر.
والارض ملآنة بنوافح العطر! والارض تلثم الرمال والقمر يقبل البحر.

هذه من أطايب كازميرو الشهير في ذكريات شبابه.

ولنسمع هينمة الشاعر كاسترو الفس الراسخ العقيدة:

اذكر! واذكر حينما كنت صغيراً ألعب على الشاطيء، والبحر يزبد وأمواجه ترتفع وتعلو كالجبال حاملة معها الزبد الأبيض فيناطح الجو!

قلت لأمي في تلك اللحظة، أي موسيقى قاسية هي هذه الاعاصير المخيفة؟ هل يوجد ما هو أعظم من الاوقيانوس او ما هو اقوى من الرياح؟

تبسمت أمي ونظرت الى السماء وأجابت. كائن نخافه يابني ولا نراه، هو أعظم من البحر وأقوى من الأعصار — هو الله!

. . . .

ولنسمع أيضاً كاسترو آلفس يصف شعور عبقري فيجيد:

لو جاب الارض مراراً لنأى عنه الناس، ولو عاش عمراً فقير معدم واحشاؤه خاوية بقرب الأرض الغنية والنهر الجاري ليس له مأوى يأوي اليه في أرض الله الواسعة لايجد عطفاً من أحد حتى ولا في الغابات.

واذا انشد صديقاً لايجده وان وقف خطيباً لم يظفر بسوى التصفيق.

يسير جاهداً في أرض وعرة يرتقي بمواقفه من نصر الى نصر، مجده قوته وزاده فاذا قيل هذا عبقري خالد لا يموت أجاب ذاته! هل عشت يوماً لأخشى أن أموت ولا أخلد.

فمن هـذه المقطوعات ندرك ان ادب اللغـة البرتغالية كبقية آداب العـالم ، قسم يتصنع ادباؤه في النظم فيأتون بالتافه ، وقسم ينقل الحقيقة المجردة فتأتي أشعاره طبيعية مؤثرة في القلوب ومثل هذا القسم الثاني منظومات الاقليةمن شعراء البرتغال والبرازيل.

ايها السادة !

هذه لمحات خاطفة من الأدب الذي نحن بصدده واليكم قطعـة للشاعر فيلاسبيا الذي يتفـاخر بنسبه العربي في البكاء على غرناطة الاندلسية وقد نظمها المرحوم فوزي معلوف شعرا .

غرناطـة اوآه غرناطـة ! ... لم يبق شيء لك من صولتك
هل نهرك الجاري سوى ادمع ... تجري على ما دال من دولتك
والنسمة الغاديـة الرائحـة ... هل هي الا زفرة نائحة ؟

. . .

ما عدت في النهر كسلطانة ... جبهتـا في مائـة ساطعـة
للقبـة الحمـراء في تاجهـا ... وهـج وللمأذنـة اللامعـة
آه على أمجـادك الضائعـة ... شيعتهـا بالنظرة الدامعـة

. . .

للهحمراوك ، تحسو الأسى ... وحيـدة في الروضة الخالية
لم يبق لا زهـوة ندمانهـا ... ولا صدى أعيادها الماضية
ولم يعـد للحب فيها أنـين ... ينقله العـود عن العاشقـين

. . .

بينا يجيـل البـدر ألحاظـه ... باهتـة في المرمر اللامع
بـين اريج الزهر المنتشي ... وبين شدو البلبل الساجع

. . .

وقصرها الحـاوي بارجائه ... كم غمر الليل بضوضائه !
اذا الجواري خاطرات على ... سجـاده جـارية جاريـه

اروع ما في الشرق من رقصة ... تنسجه اقدامها العاريه

. . .

غرناطة اواه غرناطة ... ما انت الا خرب قابعة
تحمل اسراب السنونو الى ... افريقيا انباءك الفاجعة
هناك ابناؤك من يأسهم ... باكون ، لاباكون من يأسهم

. . .

عرّوا من الأغماد بيض الظبى ... ووشحوا الخيل ببيض السروج
ويمموا البحر فلما بدت ... منك على الأفق جبال الثلوج

. . .

خروا على اوجههم راكعين ... وزفروا من قهرهم صارخين
غرناطة آواه غرناطة ... ضعت فيا للعظم الضائعة
فيزفر الموج ويبكي لهم ... حين يرى اعينهم دامعة !

. . .

وختاماً لابد لي من توجيه التحية العاطرة مع كلمة شكر لحضرة السيد يوسف اليازجي صاحب فكرة انشاء الكرسي البرتغالي في الجامعة السورية وقد عرفتموه شخصياً اثناء زيارته لهذه المدينة الخالدة وتبرعه ببناء جناح خاص في هذه الجامعة العامرة فنرجو ان يقيض الله لهذه الامة كثيرين من امثاله حتى نصل الى الدرجة التي وصل اليها الغرب في كل نواحي الحياة العلمية والاجتماعية .

نحو كيان انساني جديد (١)

للاستاذ الدكتور عزة مريدن

تفتحت عيون الاقدمين الأوائل ، على الحاجة الملحة لوسائل الحياة ، فبحثوا عما يحفظهم ويقيهم شرور العاديات ، واستنجدوا عقولهم الصغيرة ، يستمدون منها الحيلة، وفكروا على سجيتهم وفطرتهم ، تفكير الطفولة والطهر والبراءة . وغرق الانسان القديم في أحلامه السطحية ، فرأى نفسه في ارجاء العالم الفسيحة ، وحيداً أعزل لاحول له ولا طول ، لاتنبه أفكاره ومشاعره الا حاجته الى مأكله ومشربه ومأواه ، ولا تثير عواطفه الهزيلة ، الا نزعات غريزية غامضة ، وقامت بين جسمه وحواسه ، مفارقات مبهمة ، كانت مبعث نزاع داخلي دائم ، وأوشك أن تتفكك عرى كيانه ، فاذا هو يرى المرأة بجانبه ، فاستعان بها لتكون بلسماً لجراحات نفسه ، وعلاجاً للآلام الشائعة في أرجاء حسه ، وتقلص ظل حياته الفردية ، وحلت محلها حياة العائلة فالجماعة فالأمة . وسار في تقدمه صعداً يدفعه الى سلوك سبيله ، العقل والعاطفة والصدفة والاختبار ، حتى نهضت حياته وسما عقله ، وتشعبت أفكاره وكثرت وسائله. واذا عدنا الى تاريخ الانسان ، وآمنا بالتقارب والشبه المطلقين ، بين كل شخص وآخر عجبنا كيف أخذ الناس بعدئذ ، يمتاز بعضهم عن الآخر ، الافراد عن الافراد ، والجماعات عن الجماعات ، فهذا صحيح الجسم عميق الحيلة واسع التدبير ، وهذا سقيم الجسم ضعيف التأمل محدود التفكير ، وهذا بطل نبيل رائع ، وهذا وضيع مغمور ضائع ، وهذا قوي منتج ذكي ، وهذا ضعيف كسول غبي ، فما هي عوامل هذا الاختلاف الواضح ، وهل يدخل في طوق الانسان ، وقد نبهه الواقع الملموس ، الى هذا التمايز الصريح ، أن يتصرف بآرائه ، تصرفاً حكيماً رشيداً ، فيوجد على هذه

---

(١) ألقيت على مدرج الجامعة السورية الكبير مساء الاربعاء في ١٩٥٠/١/١١

الدنيا انساناً آخر ، جديداً بجسمه وصحته ، جديداً بعقله وخلقه ، جديداً بتفكيره واتجاهه ؟

يجب ان يتناول البحث أولاً ، ما اذا كان هذا التمايز ، وليد الصدفة المجردة ، أم ان عوامل مختلفة عديدة ، تداخلت تداخلاً فعلياً صريحاً في جميع ذلك ؛ ان كلمة الصدفة لم يعد لها وجود الا في اذهان اولئك المتواكلين ، الذين يقعدهم حب المعرفة الحقيقية ، عن البحث في أسرار مايجري على سطح الأرض ، بل ان كلمة الصدفة يجب أن تكون مرادفة لكلمة الجهل ، فما من أثر بغير مؤثر ، وما من نتيجة بغير سبب ؛ فهل هي الوراثة ، التي يعزو اليها علماؤها الشيء الكثير ؟ واذا كانت هي العامل الاصيل ، فالى أين مردها وماهو مأتاها ؟ وهل هي مادية تنتقل فيها صفات الجسم من الوالد الى ولده أو حفيده ، أم هي معنوية تنتقل فيها المزاياوالاخلاق ، مثلما ينتقل الاستعداد لبعض الامراض الموروثة ؟ وهل هي كامنة في الجسم كله ، أم في مجموعه العصبي وغدده ومفرزاته ؟ وهل الجسم الصحيح الكامل ، هو الاصل في كل ما نراه من انتاج عقلي وابداع فكري ، أم أن العقل على حاله التي وجد عليها ، هو المالك المسير للتفكير والحافظة والذاكرة والقوى العقلية الاخرى ؟ وهل العوامل كامنة في تلك السموم الداخلية المنبعثة عن جسم مريض ؟ وما هي أسباب هذه الامراض ؟ أيكون مردّها الى مجرد دخول الجراثيم الى الجسم ، ونحن نعلم ان اليهود منيعون على الاصابة بالسل ، وان الزنوج على عكس ذلك ، كثيرو الاصابة بهذا المرض الفتاك ، وان الانكلوسكسون تتهافت أجسامهم على الاصابة بالقرمزية ، تهافت البعوض على النور ، أم ان الامراض ناجمة عن اضطرابات أخرى ذات أسباب عديدة ؟ وما هي الدواعي الحقيقية لهذه الاضطرابات ؟ وهل يتداخل الاقليم الذي يعيش فيه الانسان في تكوين جسمه وعقله ؟ ام ان للسموم الخارجية من تبغ وغول وأرواح، آثاراً أشد واكبر ؟ وكيف نشأت هذه الفروق الطبقية بين بني الانسان ؟ وهل الأخلاق أصل ثابت فيه ، أم أنها مكتسبة وتتداخل عوامل شتى في ابرازها على الحال الذي تكون عليه ؟ وأخيراً ، وربما كان يجب أن يكون أولاً ، هل تتصل سلامة الجسم

وصحة العقل وانتاج الفكر ، بحياة الانسان الجنسية ؟ وهل كان للمرأة النصيب الاوفى في بعث العباقرة والشعراء والمكتشفين ، وخلق الساسة والادباء والمفكرين ؟

ان إعمال الفكر المجرد ، والحكم لصالح الحقيقة وحدها ، يرينا ان عناصر هذا التمايز كامنة في ذلك كله .

سئل اينشتاين لماذا تغير الناس ؟ فأجاب : لأنه تغير طراز حياتهم ومعيشتهم ، فتغيرت نفوسهم وطبائعهم .

ولا بد قبل أن نعرض هذه المؤثرات ، من ان نقرر حقيقة واقعية تعد في طليعة أسباب هذه المفارقات، وهي ان مجموع هذه الاضطرابات المختلفة ، ليست وليدة عمر قصير ، وانما يرجع تاريخها الى مئات آلاف السنين ، انها وليدة قرون مظلمة ، عاش فيها الانسان عيشة الوحوش والبهائم ، انها وليدة غزوات وحروب ومجاعات ؛ لقد ولدت تباشير هذه الاضطرابات ، في زمن لم يكن فيه الانسان القديم ، قد ورث عن آبائه او جدوده ، أمراضاً عصبية أو حرضية ، ولقد كان الانسان القديم جديداً في عهده ، لم تغيره مفاسد الحياة المعقدة ، ولم تفسده آثام المدنيات المتشابكة ، ولم تكن في جسمه سموم داخلية بسبب بساطة غذائه وبساطة عيشه ، ولم يكن يعرف السموم الخارجية من تبغ وغول وأرواح وابازير وأدوية، ولم تكن نفسه قد أشربت تلك الغرائز المكتسبة من انانية وحسد وحب للسيطرة والانتقام ، حتى اذا تتالت القرون ، وتتابعت الاحداث والسنون ، دب الفساد في جسمه وكيانه ، وانحرف راضياً أو مكرهاً عن جادة الفطرة السليمة البريئة ، فكان ما كان مما سوف اذكره .

أما الوراثة ، فلا شك مطلقاً في حظها الكبير من كل هذا ، وهي مادية او معنوية ، مادية — تنتقل بها صفات أمراض بنفسها او استعداد لها كانتقال الربو والسمن وداء السكر ورمل الصفراء ، معنوية — تنتقل بها صفات ومزايا او استعداد لها ايضاً كالذكاء وكرم الخلق والشذوذ والجنون ، غير أن الباحثين اليوم ، لم يعودوا يقبلون ذلك الاطلاق الذي ارتضاه علماء الوراثة الاقدمون ، يقول (فهرنه) ان في جسم الانسان قدرة على التنبه والتكيف والتفاعل ، يمكن مراقبتها وقياسها

والتجربة عليها ، وان محاولة التكيف مع البيئة ، هي جزء غير صغير من هـذه القدرة الهامة ، اما (متشورين) وهو من أكابر علماء الوراثة فقدقال : عدلوا اعمال الجسم الاساسية ، من غذاء ومعيشة وطراز حياة واقليم ، أضمن لكم تعديل الموروثات السيئة ، من الآباء الى الابناء ، وقوضوا اسباب الوراثة وعواملها ، يتمتع الجسم بقدرته وخصائصه ، ويجاريه في هذا المذهب (رابو) وهو من اشهر المشتغلين بشؤون الوراثة فهو يقول : ان القواعد التي بنيت عليها عوامل انتقال الامراض والصفات بالوراثة ، وان تكن ذات قيمة عملية كبرى ولكنها ليست قطعية ابداً ، بل نستطيع تكييف هذه المورثات على النحو الذي نريد .

واما الجسم نفسه ، وهو الذي يؤلف وحدة متماسكة كاملة فهو بيت القصيد ،فان جميع الحوادث الحيوية الوراثية او المكتسبة الأصيلة او الطارئـة ، تجري على كل جزء من اجزائه ، مادية كانت أم معنوية ، ولقـد قلصت حوادث السنين وطوارىء الأزمان ذلك الجسم الصحيح المثالي ، ولم نعد نقع معاشر الاطباء على واحد قياسي ، يصح ان نجعله مثلاً على الجسم الكامل الصحيح ، فهناك عوامـل كثيرة ، ادت الى هذه النتيجة السيئة ، منها الامراض المختلفة الطارئة ، وهي ما لاقبل لنا نحن اليوم ، بدفع غوائلها كلها ، رغم وسائلنا الراقية الحـديثة ، فأحرى بالانسان الذي عاش في القرون المظلمة، الا يكون قد استطاع دفع غوائلهـا ايضاً ، فخلفت في جسمه عقد نقص أصيلة ، أورثها للاجيال من بعده . وهناك غدد الجسم واجهزته المختلفـة ، التي يختص كل واحد منها ، بعمل فسيولوجي يؤديه ، ثم تتضافر هذه القوى الجسمية،على تكوين الحوادث العقلية ، ولسنا نستطيع ابداً ، كما يحاول بعض الفلاسفة ، ان نفصل حوادث العقل عن حوادث الجسم ، ففي جهاز الهضم مثلاً ، يفضي الوهن المعـدي المعوي ، والامساك والقرحة الهضمية وقصور الكبد والزحار المزمن ، الى اضطرابات نفسية كثيرة ، قـد تكون أقسى على المريض من هـذه الامراض نفسها ، فيعتريه اضطراب فكري واختلاط عقلي ، ويرى الحياة تعيسة شقية ، الى جانب حسرة شديدة وغم عظيم ، ثم تحدث الحلقة المفرغة المعيبة،اذ الامراض المـذكورة توهن الاعصاب

والدماغ ، فيفضي هذا الوهن الى التأثير كرة أخرى في اعراض تلك الامراض، فتزداد حدتها وتشتد وطأتها ، فتؤثر بدورها في المجموع العصبي مرة جديدة ، ولا تنقطع هذه الحلقة المعية ، الا بعد جهود جبارة ، يصرفها طبيب حازم رشيد .

وفي الغدد الصم ، ذات الافراز الداخلي ، نجد أمثلة بارزة على اسباب انقطاع هذه الوحدة الجسمية المتماسكة ، ولتطوي الغدد الدرقية والكظران والمبيضان والخصيتان على اسرار واسرار ، ولعل كثيراً من الحوادث المرضية التي نشاهدها كل يوم، يتصل اتصالاً وثيقاً باضطراب هذه الغدد ، كبله الاطفال المنسوب الى قصور الدرق ، ونقص النمو المنسوب الى قصور النخامية ، وهبوط الضغط المنسوب الى اضطراب الكظرين ، والحوادث المختلفة ، الجسمية والفكرية ، في المرأة والرجل ، المنسوبة الى خلل في وظائف المبيضين والخصيتين .

اما المجموع العصبي ، وهو الركن الركين في كيان الجسم ، فيستحق من هذا البحث اهتماماً خاصاً ، يقول كثير من علماء النفس ، ان اكثر اسباب الامراض النفسية ، عند المصابين بها او المستعدين لها ، هي في العلل الجسدية ، ولا سيما في امراض الغدد الصم وفقر الدم وامراض المعدة والكبد، حتى اننا معشر الاطباء لم نعد ننظر للمصاب بالنوراستهنيا او الهستيريا او الماليخوليا على انه مصاب بامراض نفسية خالصة بل رحنا نفتش عن اسباب هذه العلل النفسية ، في سل الرئة اوهبوط الاحشاء اوضعف الغدد اوامراض الامعاء ، ولا أدلّ على ارتباط الجسم بالعقل، من ان ضعاف العقول أقل وزناً ونمواً ، وان للعاهات التي تنتاب الانسان ، اثراً في الانتاج العقلي ، فتخلّف فيه العاهة شعوراً بالنقص ، يظهر جلياً في سلوكه واعماله ، وفي انتاجه وتفكيره ، وكثيراً ما يصبح في المجتمع عضواً أشل ، عالة على غيره ، بل قد يكون اكثر ضرراً على المجتمع من ذلك ، ولقد لوحظ ان اكثر المجرمين او الذين يحملون ميلاً اليه ، كانوا مرضى في سني حياتهم الاولى ، او في مطلع شبابهم ، فخلّفت امراضهم عقداً في نفوسهم ، لم يفطن اليها اباؤهم ، فقضوا بذلك على مستقبل ابنائهم ، وحرموا المجتمع من اعمدة كان يمكن ان يرتكز عليها لو كانوا أصحاء .

ويرى « فرويد ويونغ » بان متاعب الحياة ومشكلاتها ، هي الحاجز الاول الذي يصاب عنده الانسان ، باضطراب العقل وجمود الفكر وضعف الخاطر ، وانه لابد للتغلب على آثار الاعياء الفكري ، الارثي اوالمكتسب من تربية الانسان تربية تمنع انطلاق موروثاته ، وتؤهله لمجابهة اعباء الحياة ومصاعبها ، إما بنفسه من غير معونة ، او بارشاد بسيط ، كما يجب ان نعالج امراضه الجسمية ، ونجعله عارفاً درجة كفاياتـه ، متلمساً مواطن ضعفه ، محاولاً ان يقيس نفسه ، بما يرجوه لها من مثل عليا ، متسامياً برغباته ونزعاته ، نحو آمال الحياة الحلوة وأمانيها العذاب .

ولنعلم ان أقسى الوراثات المرضية ، هي وراثة الامراض العصبية ، فهي تنشأ قبل ان يتكون الطفل في رحم امه، تنتقل من الأب مع نطفه ، او من الأم مع بويضتها ، كالصرع الذي يعد اليوم اشد الآفات العصبية ، ولا سيما بعد ان اتسع نطاق البحث فيه فاصبحت اكثر الاختلالات العصبية تنسب اليه ، وبات الطبيب الاختصاصي قادراً على قياس العمل الدماغي وذبذبة كهربائيته، هـذه الطريقة التي ابتدعها (ويليام دورل) الانكليزي وهذ بها الامريكيون والفرنسيون ، فجاءت بحيث يستطاع معرفة المصاب قبل ظهور اعراض المرض فيه ، وتشخيص الآفات العصبية المختلفة ، من تسجيل الموجات الدماغية على شريط لاقط ، وتدارك المرض قبل استفحاله .

واما السموم الخارجية ، فاثرها واضح بيّن ، في الاخلال بوظائف الجسم والعقل أخص منها التبغ والغول والارواح، فليفعل التبغ في الجسم ؛ ولاسيما اذا بولغ باستعماله، فعلاً لايقل أذاه عن كثير من السموم ، فهو يصلب الشرايين ويلهب المعدة والقلب ، وهو السبب الغالب في حدوث السرطان في الشفة او اللسان ، وليؤذي الغول كل عضو في جسم الانسان ، واذا لم تبد آثاره العاجلة في الشارب المدمن ، فلا بد ان تظهر في اجسـام اولاده ، او عقول احفاده ، وهكذا يصدق القول المأثور : الآباء يأكلون الحصرم والابناء يضرسون .

ولقد كان لهذا السم أثر بيّن في تقويض دعائم الانسان الماضي والحاضر ، وسيكون له اسوأ الأثر في الاجيال القادمة . وإني لأحشر كثيراً من الادويـة ، في

زمرة السموم ايضاً ، فان الطب اليوم يستغني ببعض عشرات الادوية ، عن تلك الخزانة العريضة ، المحشوة بادوية عديدة ، لانفع منها ولا طائل تحتها ، ولقد اصبحنا ننظر الى عالم الامراض نظرة جديدة ، تختلف في معناها ومبناها ، عما كان ينظر اليه اطباء الماضي ، وذلك بسبب اتساع البحوث الطبية التي كانت ابوابها مغلقة حتى اليوم فان الاطباء الامريكيين المحدثين ، يرون ان المعالجة البريئة ، هي التي تقوم على الغذاء اولاً ، وعلى الوسائل الحكمية المبذولة في الطبيعة ، كالشمس والهواء اخيراً ، وهم يرون ان جهاز الهضم ، الذي يحفظ حياة الانسان بالغذاء ، قد يعجز احياناً عن هضم الاغذية المألوفة فكيف بهيتقبل ادوية معدنية وعضوية ، معقدة الذرات والتراكيب وكيف بالجسم كله ، لايتفاعل حينئذ تفاعلاً تبدو آثاره واضحة جلية .

ولست استطيع المرور على ادعاء الامريكيين ، بكشف هذه الحقيقة العلمية ، دون ان اذكر الطبيب العربي ابا بكر الرازي ، الذي يعود اليه الفضل الحقيقي الاول في ذلك ، فقد قال : ان استطاع الحكيم ان يعالج بالاغذية دون الادوية فقد وافق السعادة ، ومن الاقوال المأثورة عن الطبيب العربي الشهير بالكندي انه قال : ان الدواء من البدن كالصابون من الثوب ، ينقيه ولكنه يخلقه .

ولننظر الآن في الاقليم ، بين اسباب التمايز ، فقد تعرض الرازي في بحوثه ايضاً لهذه الوسيلة الجديدة ، على رأي الامريكيين المحدثين ، يقول الرازي مانصه :

باختلاف عروض البلدان ، تختلف المزاجات والاخلاق والعادات وطباع الادوية والاغذية ، حتى يكون مافي الدرجة الثانية من الادوية في الرابعة ، وما في الرابعة في الثانية ، ويقول العلماء الامريكيون اليوم ، ان اصلاح الانسان ، يجب ان يتناول البيئة التي يعيش فيها ، فالاقليم والهواء والغذاء ، عوامل هامة في تكييف الانسان وبعثه جديداً على غير النحو الذي كان عليه ، وهم يجدّون في اقلمة الصحيح والمريض على السواء ، ويجعلونهما في محيط وضغط جوي وهواء وحرارة ، تتناسب كلها مع حالة الجسم والعقل ، ولا يدَعون الجسم الصحيح اوالمريض يتكيف مع المحيط الذي هو فيه ، فينقلون من درجة عرض الى درجة ، من الاقاليم الباردة الى المعتدلة ، ومن

السهل الى الجبل ، ومن الساحل الى الداخل ، ولقدتغلب الفيزيائيون المحدثون ، على جفاف التربة والهواء ، بهذا الضباب الاصطناعي ، الذي ينقلب الى امطار غزيرة كما تغلب الكيمياويون الزراعيون على شح الارض ، بالاسمدة والتعمير ، ولكنهم لم يستطيعوا التغلب على طبيعة الجو وحرارته واقليمه ، ولا على كهاربه المذبذبة في اجوائه ، كما لم يقوَ الاطباء والمربون ، الا على نقل الانسان من مناخ لايستطيع احتماله والعيش فيه ، الى مناخ يتلاءم مع حالة جسمه وعقله ، وكثيراً ما نرى شفاء الامراض بهذه الاقلمة ، وانقلاب الجسم الى حال حسنة جديدة ، ألا نرى شفاء السل الرئوي في المصحات الجبلية ، والسل العظمي في الاقاليم الساحلية ، وفاقة الدم في المرتفعات وارتفاع الضغط في المنخفضات .

ثم ان هذه الاقلمة ، ذات أثر بيّن فيما نسعى اليه ، للحصول على جيل جديد ، قوي بجسمه وعقله ، قريب من المثالية المرجوة ، وإن العقول النيرة ، وكثير من العبقريات ، وليدة البيئة المواتية والوارثة الملائمة .

ولعل هزال العبقريات او انعدامها بيننا ، ناجم عن عدم توفير الاسباب لظهورها ، فلسنا نشك بوجود العبقريات الكامنة ، التي لاينقصها الا البعث والتحريض ، وقد دلت الاحصاءآت الامريكية ، على ان الانتاج الفكري والعملي . قد ازداد كثيرا منذ ما اخذت هذه الامة الراقية ، توفر لابنائها جميع اسباب الحياة المثالية ، فنصبوا الاقلمة على رأس هذه الاسباب ، ووضعوا للزواج خطوطاً ومناهج ، وجعلوا للطعام والشراب فنوناً ، ورسموا للنوم والرياضة والمطالعة ، قواعد ثابتة ، ووفروا على الباحثين والمؤلفين ، عناءً عظيماً وجهداً كبيراً ، وكان عندهم لكل شيء من مرافق الحياة ، انظمة وآلات وادوات .

وفي مقال رائع لرئيس الجامعة السورية الاستاذ قسطنطين زريق ، حول تفرغ المفكرين ، ما يضع تحت انظار المسؤولين ، الخطوط العملية ، لتحقيق انتاج عقلي عربي ، يتوفر للمتفرغ فيه ، صفاء الذهن وجود القريحة ، مبتعداً عن مشاغل الحياة

المادية الاخرى ، وليستطيع كثير ممن تتوفر لهم وسائل التفكير المثمر ، ان يكونوا في عداد المفكرين المنتجين .

هذا هو المجموع العصبي ، من ناحيته المادية ، المتصلة اتصالاً جسمياً بكيان الانسان ، اما آثار هذا المجموع من حيث اتصاله بالانسان اتصالاً روحياً ، فلا تدخل تحت حصر ، هي كل ما نراه على وجه الارض ، من حوادث مادية ومعنوية ، يقول (ألكسي كاره ل) ان الانسان لا أقدر مما يتصور عقله ، والعقل قبس مضيء ينثر الاشعة فيما حوله ، اشعة قد تكون نيرة مفيدة خيّرة ، وقد تكون مؤذية محرقة قتالة ، ولولا ما فيه من قوى موزعة ، تضفي على هذه الحياة سناءً وبهاء ، لما ادرك الكاشفون والعلماء ، سر ما يكتشفون وما يعلمون ، ولئن كان صغيراً في الانسان الاول ، فقد ألبسته تجارب السنين حللاً جديدة،ومرّسه نهوض العلم ، فاذا بين الناس كثير من العقلاء والعلماء والمفكرين ، اما إخضاعه لما يحول بينه وبين انطلاق قدرته فانه يذويه ويسير به نحو التفكك والجنون ، وقد ذكرت بعض المؤلفات الامريكية ان إلهام اهل الفن ، مشهور بعدم خضوعه لقاعدة ، ومجيئه وذهابه من غير بشير ولا نذير ، ويستنتجون من ذلك ، ان للعقل نشاطاً دورياً،مدللين بما وصل الى علم الباحثين عن نشاط (كهت وشيلي وفكتور هوغو) وبعض الفنانين من امثال (بتهوفن وموزار وتشايكوفسكي) الذين ينتجون انتاجاً خصباً في ازمنة معينة ، يفصل بينها بعض شهور ، وهي حال يجب ان نسبر غورها ، ثم نسعى لتكييفها على نحو نعيد به انتاج العلماء والادباء والفنانين منطلقاً غير محدود بالزمان او المكان ، فليس العقل تمثالاً منحوتاً ، وانما هو قدرة ، يمكن اصلاحها وتحويرها ، كما نصلح الجسم ونعالج الامراض وانه لمن المؤسف حقاً الا يكون العلم ، وهو عماد الحياة الحاضرة في الامم كافة ، قادراً على توجيه العقل في طريق سوية دائماً ، فكم تصرف العقل بالعلم ، فكانت على وجه الارض ، شرور ومفاسد ، وهذه الحروب وادواتها الجهنمية ، هي صنع العقل والعلم متساندين ، شبه تساند العقل والعلم في اكتشاف الجراثيم وابتداع البنيسلين .

ولقد جاد الزمان بعدد غير قليل ، من رجال العقل والفكر والذكاء ، الذين

كان انتاجهم مضرب الامثال ، ويروى ان افلاطون تعلم الى جانب اللغـة اللاتينية ، الهندسة والجبر ، وهو في سن الثامنة ، ودبج كتاباً عن تاريخ روما وهو في سن السابعة ، والف ابن سينا حلقة لتعليم الطب وهو ابن سبع عشرة سنة، وصنف آثاراً من الكتب الفريدة ، وهو لما يتجاوز الثلاثين ولقد كتب في ترجمة حياته عن نفسه مانصه :

لقد اتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب ، وانا ابن عشر سنين ، وصارت ابواب العلم تتفتح عليّ ، ثم رغبت في علم الطب ، وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه ، حتى بدأ الفضلاء يقرأون عليّ هذا العلم . وتعهدت المرضى ، فانفتح عليّ من ابواب المعالجات المقتبسة من التجربة مالا يوصف ، وانا مع ذلك اختلف الى الفقه واناظر فيه ، وانا في هذا الوقت من ابناء ست عشرة سنة ، وفي هذه المدة ، مانمت ليلة واحدة بطولها ، ولما بلغت ثماني عشرة سنة . كنت قد فرغت من قراءة كتب العلوم كلها ، فأخذت اصنف فيها ، ولي اذ ذاك احدى وعشرون سنة ، وفي هـذه السن ، صنفت كتاب الحاصل والمحصول في قريب من عشرين مجلدة .

ولكن مابال بعض الفلاسفة المفكرين ، وبعض العباقرة المبدعين ؟ وماذا كان شأن (ديوجين) حينما حمل مصباحه في رابعة النهار وجعل يفتش عن الرجل ؟ بل ماشأن روسو وغوته ونيوتن وباسكال وفولتر وبلزاك وموسه ونتشه — الفيلسوف الذي نستشهد بالكثير من اقواله وآرائه ، وهو قد دخل مستشفى المجانين عدة مرات في حياته ، وأميل زولا الذي كان لاينام قبل ان يعد مصابيح الشوارع ونوافذها وابوابها والسيارات التي تمر فيها ، كما كان يغلق عليه باب غرفته ثم يقضي ساعات طويلة واضعاً خياشيمه في ثقوب الباب ، محاولاً اكتشاف الوان الطعام التي تطهى في المطبخ من روائحها ؟ مالنا وبعض الغلاة المسرفين ، الذين ينتقصون من اقدار هؤلاء العظماء ، أليس في كل انسان خلة من الجنون ، بعضها خفيف تستطيع الارادة دفعه والتغلب عليه ، وبعضها معتدل يتجلى بشذوذ صاحبه ، وبعضها كبير خطر يبدو باضطراب الحكم وفساد التفكير ، مع ميول غريبة معوجة ، تهيب بصاحبها الى ممارسة الشر

في كثير من الاحيان ، أليس هؤلاء هم الذين يهبون البشرية بين حين وآخر ، رجالاً يدعوهم التاريخ ابطالاً وهم ليسوا سوى رجال الشر والظلم والحرب ، انهم اناس لاتنفع فيهم حيلة ، لأن كل خلية من خلايا جسومهم وعقولهم تأصلت فيها سموم واقذار ، لم تكن لهم طاقة على دفعها او التخلص منها ، الا اذا كانوا يسيرون، منذما تفتحت عيونهم لنور الحياة ، على المنهاج القويم ، الذي يرسمه اطباء الجسم والنفس اليوم . ويذكر التاريخ من هؤلاء بعض اباطرة الرومان الظالمين، الذين افسدتهم البطنة ، وقوضت عقولهم الملذات والترف واحتساء الخمرة الدائم، فراحوا يبتهجون بمرأى الشجعان من بني قومهم ، تمزق اجسامهم الاسود الكاسرة ، وهم في مقصوراتهم الضخمة ، يأكلو السنة البلابل المشوية في اطباق من الذهب . ويحتسون الخمور المعتقة من ايد حور عين وكواعب حسان . ولعل الامة الالمانية ، قد احسنت صنعاً ، حينما عقمت المجرمين والسفاكين والمعتوهين ، في سبيل الابقاء على جيل قوي سليم

ولننظر الآن ، هل كانت هنالك صلة وثيقة ، بين انتاج المبدعين ، وبين ما كانت عليه صحتهم واجسامهم والطريقة التي كانوا يعيشون عليها ؟ سؤال قد يبدو في الجواب عليه بعض التناقض ، فلئن كان صحيح الجسم أسلم عقلاً ، كما تقول الامثال وتدعم الحقيقة ، فقد عاش بعض الفلاسفة واهل الفكر ، سقيماً يشكو الأذى في قلبه أو كبده او معدته ، اما مالا شك فيه ، فهو ان الاديب الصحيح الجسم ، السالم من الامراض ، اطول باعاً وارفع ادباً من الاديب المريض ، وهو اذ يقول الشعر يرسله منطلقاً رائعاً اخاذاً ، واذ يقول النثر ، يرسله سهلاً بيناً ممتعاً ، ويكون شعوره المرهف وخياله الواسع واحاسيسه الدقيقة ، متساوقة مع سلامة جسمه ، ولولا ان الجسم يتغذى فيغذي العقل ، ولولا ان يمر الدم في مساربه ، فيجول جولته في حنايا الجسم ، ثم يصل الى الدماغ ، مركز العقل والتفكير والحس والشعور ، لما كان هناك خيال ولا عاطفة ولا ابداع، وأنى للعقل ان يتنبه ويحاكم ، او يتخيل ويفكر ، اذا كان في جسم معتل مريض ؟ هذا هو الفيلسوف الالماني (كنت) الذي كان في

اول حياته ضعيفاً سقيماً ، لم يركن الى خيالات مرضه واحلام ضعفه ، بل راح يبالغ في وقاية نفسه من الامراض وشرورها ، واتبع القواعد الصحية ، فضمن لنفسه حياة قدرها ثمانون عاماً ، وله في الوقاية مبادىء صحية ، منها الا يتنفس الانسان الا من أنفه ، ولا سيما اذا كان خارج منزله او في مكان بارد ، وكان لايسمح لاحد ان يكلمه وهو في طريقه الى نزهته ، وساعده حفظ صحته ، على تأدية رسالته ، فألف الكتب الكثيرة ، وانتج انتاجاً ضخماً لايزال شغل الشاغلين من بعده .

اما ماتجري به اقلام بعض الادباء المرضى ، وبينهم من يكون مصاباً بالسل ، فيخطون آيات في الروعة والابداع ، حتى ان منهم من تجري على لسانه خواطر لم يكن له عهد بها من قبل ان يكون مريضاً ، فيعلله بعض علماء النفس ، بان حب البقاء في الانسان ، يقوى ويشتد في ايام المرض ، فتشحذ هذه الغريزة ذهنه ، وتنشط فكره وحسه وخاطره ، فينطلق خياله في اجواء علويـة سامية ؛ يقول الفيلسوف الكبير (مالبرانش) عن نفسه ، وكان سقيماً ضعيف البنية : لقد كان سقمي داعية لانصرافي الى حياة التفكير والتأمل ؛ ولقد كان الجاحظ جاحظ العينين ، ثم كان منقرساً فشلولاً ، وانتج مع ذلك كله ، انتاجاً ضخماً من المؤلفات ، لايزال حجة في العلم والأدب ، ولقد سلخت البرداء جلد المتنبي ، قبل ان يطلع على الناس بقصيدته الميمية الرائعة التي يصف فيها نوبة البرداء وصفنا اياها اليوم ، يقول :

عليـل الجسـم ممتنع القيام	شديد السكر من غير المدام
وزائرتي كأن بها حياءً	فليس تزور الا في الظـلام
بذلت لها المطارف والحشايا	فعافتهـا وباتت في عظـامي
يضيق الجلد عن نفسي وعنها	فتوسعـه بانواع السقـام
اذا مـا فـارقتني غسلتني	كانا عا كفان على حرام
كأن الصبح يطردها فتجري	مدامعهـا باربعة سجـام
اراقب وقتهـا من غير شوق	مراقبـة المشوق المستهـام
ويصدق وعدها والصدق شر	اذا القاك في الكرب العظام

وينسب للفيلسوف (نتشه) قوله : كل مصيبة تأتيني ولا تقتلني ، فهي قوة جديدة لي .

وعندي ان مرد ذلك في هؤلاء جميعاً ، الى اليأس والقنوط وتصرم الأمل ، وهو ضعف يحفزهم فيستمدون منه القوة ، ثم يركزونها تركيزاً ثابتاً محكماً ، ويستنصر بعضهم قلبه الخافق وحبه الدافق ، ولا يكون الفضل فيما ينتجون دائماً لخيال مبدع او احساس دقيق ، بل لجسم مريض خرشت سمومه خلايا الدماغ وحرضتها على إظهار مافيها من خصائص وامكانيات ، ثم دفعتها في طريق جديدة ، فجرت كهربائية الدماغ والعقل والفكر ، في الجسم واليد والقلم ، ثم سالت على القرطاس ، فاذا بخطوطها المرسومة ، نثر رائع او شعر بديع ، او فكرة جليلة او ادب رفيع .

اما النظر في الاخلاق ، فاني أدعه لغيري من الاختصاصين في النفس والتربية والاجتماع ، وحسب الطبيب ان يحمل من هذا العبء الثقيل أوفى نصيب ، فهو وان تكن الصفة العلمية الطبية غالبة فيه ، ولكنه يستطيع بمقتضى عمله وطبيعة مهنته ، ان يدلي دلوه بين الدلاء ، فلا أمر قبل ان اعلق على صلة الخلق الكريم بالجسم القويم الخالي من الشوائب والامراض ، كما اعلق على صلته بالآباء والجدود بل بجدود الجدود ، اذ الاخلاق العريقة في قدمها ، ذات صلة كبرى بطراز الحياة التي عاشها الاجداد ، ولا بد من مرورها الى الاحفاد ، الا اذا اقام بينهم وبينها . مايقطع حبل هذه الصلة المقدسة ، وهي تنكب الاحفاد عمداً أو بغير عمد ، جادة الطريق السوية ، المبقية على هذا التراث المجيد ، من شهامة ومروءة وحلم وكرم ، وليس الوجدان الحي او الضمير النقي ، الا صوت الاجداد يتردد في قلوب الاحفاد .

واخيراً ، ولعله كان يجب ان يكون اولاً كما ذكرت ، أثر المرأة في هذه الحياة ! مامن شك في أن المرأة رأس العناصر الاجتماعية في حياة الانسان ، بل هي تلعب دوراً هاماً في إثارة كل ماتراه من الامكانيات والعبقريات على وجه هذه الأرض ، وهي تقوم بدور مستتر جبار ، في خلق الحوادث والرجال ، انها تهيب بالامكانيات الجامدة الى الانطلاق والظهور ، بل هي صاحبة الفضل الاكبر في جعل الرجل انساناً

مهذباً ، رقيق الحواشي ، مصقول الجوانب ، ويرحم الله كثير عزة اذ يقول :

ويرتاح للمعروف في طلب العلا　　　لتحمد يوماً عند ليلى شمائله

ومن الشائع ان في حياة كل رجل عظيم ، امرأة سمت باحلامه وامانيه الى السماء، فكانت سر عظمته وابداعه وخلوده ، رغم القول المأثور : بجانب كل عظيمة امرأة ، لو لم تكن بجانبه لكان اكثر عظمة .

ويهيب بي ذكر المرأة واثرها في حياة الانسان ، الى التحدث عن بعض ابطال السادية ، كالمركيز دوساد ، ونيرون قيصر الرومان وشارل الشرير أمير نافار ، واتساءل كما تساءل غيري ، لماذا كانت اغلب هذه العادات الجنسية الخبيثة في المراكيز والهررة ؟ قلت لعل ذلك متصل بطراز تلك الحياة الخليعة المستهترة التي يحياها اولئك النبلاء المزعومون والاغنياء المترفون ، الذين صيرتهم تقاليد الحياة اشرافاً على الناس ، ولم يستطع اساطين الطب الشرعي ان يجدوا مبرراً لهؤلاء الخارجين على التقاليد الطبيعية ، إلا ان يكونوا بين المجانين على صورة خاصة . وهلاّ كان احط من الجنون ، ماقام به القائد الروسي (سكوبولوف) الذي دحر العثمانيين ، واسترد منهم اكثر الولايات ، حينما دخل موسكو ظافراً منتصراً ، ثم قصد من ليلته بيتاً من بيوت الدعارة ، حيث جمع الفتيات ، وأمرهن ان ينهلن عليه بالجلد ، بعد ان يشددن وثاقه ، والا يتركنه الا اذا استغاث او استجار ؟ أما هو فلم يستجر ، واما هن فقد تعبن من شدة الجلد والضرب ففككن وثاقه ، ولكنه ما لبث ان سقط مغشياً عليه ، ثم تبين انه اصيب بنزف دماغي قضى عليه وهو لايزال في الاربعين من عمره .

❁ ❁ ❁

وبعد فهذا عرض صغير ، لمعظم المؤثرات التي تتداخل في تميز الناس بعضهم عن بعض ، حاولت ان أجعل اكثره متصلاً بواجبي الطبي ، منسوباً الى عوامل كثيرة ، فهل نقوى ، ونحن امام واقع واضح هو ماعرفنا ، ان نغير او نبدل فيه شيئاً ؟ وهل الحياة بشروطها الحاضرة ، جديرة بالحياة ؟ وهل هي محفوفة بالخير والسعادة والهناء ، ام انها مليئة بالتعاسة والاسى والشقاء ، وهل يؤمل صلاح الناس فيها اكثر مما هم عليه اليوم ؟

ليس يستطيع باحث واحد ، ان يلم باطراف هذا الموضوع الواسع الجليل ، بل هذه طاقة صغيرة ، اقدمها مؤمناً بخصائص ازهارها وورودها ، فلا بد الى جانبها من طاقات وطاقات ، يقدمها باحثون مؤمنون ، وفيما انا منتظر غيري ، يقدم ازهاره الفواحة ووروده العطرة ، أسدد سهماً ارجو ان تكون غير طائشة ، وادلي دلواً عله يروي غليل العطاش الى حياة مثالية حرة عزيزة تطغى آمالها على آلامها ، وتفيض سعادتها عن حاجات اهلها ، واني لأقسم الواجبات والمسؤوليات ، في سبيل كيان انساني جديد بين الانسان نفسه كفرد من المجموع ، وبين الطبيب كفرد تترتب عليه اكبر الواجبات من الناحيتين الصحية والعامة ، وبين اكابر العلماء المصلحين والعقلاء المفكرين وبين المجموع نفسه وما يفرضه واجب الحياة عليه ، من التآزر في سبيل الغاية المرجوة وبين الحكومات وما عليها من واجبات عظيمة نحو شعوبها ، وبين تلك الشعوب نفسها ، وحدها اولاً ، ثم بالاضافة الى الشعوب الاخرى المنتشرة على سطح الارض ويبدو ان العمل مرهق عظيم ، يحتاج لجهد جبار ، لا تفتر فيه همم هؤلاء المسؤولين ، ولا سيما في مثل هذه الظروف التي تعددت فيها كثيراً مذاهب الحياة .

اما الفرد ، واني لافترض ههنا بلوغه درجة من السن والعلم والرقي، تمكنه من تحمل المسؤولية واداء الواجب ، فهو بحكم انتهاء الامر بوجوده في هذا العالم على وجه حسن ، وما لهذا العالم عليه من فضل ومنة ، مدعوٌ شاء ام ابى الى دفع الثمن وتأدية الواجب ، بوجدان أمين وضمير حي ورغبة صادقة خالصة ، نحو نفسه اولاً ، ثم نحو أهله وذويه ، فبني وطنه وقومه ، فالانسانية جمعاء ، واما الاطباء ، فان القسط الكبير من الواجب يقع على كواهلهم ، اذ ليست مهمة الطبيب الحق اليوم ، ان يعالج الامراض أو يسعى للوقاية منها ، بل عليه ان يجعل الحياة حلوة في عيني مريضه وصحيحه ، محببة الى نفسه ، لذيذة في خاطره ، لأنه اذا استولى الحزن واليأس والأسى ، على بعض النفوس المريضة ، واستحال الامر الى تقزز ونفور واشمئزاز ، ادى الى كثير من حوادث الاخفاق والانتحار ، وليدفعنا الواجب الى التحقيق الدقيق ، والنفوذ الى اعماق الجسم وبواطن النفس والحس ، لنعرف حال الصحيح من المريض ، ونقف على تفاعلات

جسمه وحياته العقلية وبيئته الاجتماعية ، ثم نقوم بما يترتب علينا من معالجة او توجيه صحي قويم ، وليست تنتهي مهمتنا عند حد بعد ، فنحن مدعوّون لفرض منهاج صحي صحيح ، تبنى دعائمه على اساس راسخ مكين ، يبتديء في الانسان منذ جدوده الى ابيه وامه . ثم يمتد الى الاجيال الناشئة قبل تشكلها وفي اثنائه وبعده ، منذ ما كانت نطفاً في أصلاب آبائها ، وبيوضاً في بطون امهاتها ، ثم يتعهدها اطفالاً ويفعاناً وشباناً وشيباً تعهداً جديراً بالحفاظ على اركانها ومقومات حياتها ، في الغذاء والنوم ، في العمل والراحة ، في النزهة والبيت ، بل في كل لحظة من ازمنة الحياة ، وبكل ما يتصل بصحة الجسم ونضوج العقل وسلامة التفكير .

هذا انسان بعد ذلك ، صحيح الجسم ، ناضج العقل ، سليم التفكير ، احاطه أبواه السليمان منذ ولادته ، بكل عطف ورعاية ، فشب على حال حسنة ، وقسم حياته اليومية الى ثلاث ثمانات ، كما أشارت قواعد الصحة العامة ، ثلث للعمل وثلث للراحة وثلث للنوم ، لم يصب في حياته بمرض او عاهة ، وتوفرت له اسباب الحياة السعيدة ، ونال من العلم حظاً كبيراً ، اما فتاة أحلامه فقد كانت طيبة كريمة ، تحدرت من أرومة عريقة بالمجد، وعاشت في بيت علم وفضل وادب ، عيشة هادئة ليس فيها ترف ولا تقتير وتوفرت لها اسباب العلم فضربت منه بسهم وافر ، تزوج منها زواجاً سعيداً ، وعاشا في وطن ملؤه الدعة والامن والاستقرار ، ثم رزقا طفلاً جميلاً ، ربياه في أحضانهما تربية رشيدة حميدة ، فترعرع جسمه وكبر عقله ونما تفكيره وحسنت اخلاقه ، لم يمرض في طفولته ولا شبابه ، وكان منكباً على دروسه الاولية والثانوية والعالية ، محبوباً من ذويه واقرانه ، يعرف ما له من حقوق وما عليه من واجبات ، فلما حلت تلك الساعة العزيزة التي يحمل فيها شهادته ، اشرق وجهه بالسرور والخير ، وارتسمت على فمه ابتسامة حلوة نبيلة، وحمد لوطنه ومحيطه فضلهما على تنشئته ، كما حمد لأبويه حسن صنيعهما ، وتقدم منهما قبل كل احد آخر ، فضم اليه يديهما ، ثم رفع رأسه الى السماء وقال بملء فيه : الشكر لله .

هـذا مثل على مثالية قلما نقع على مثله ، ولكن كل فرد على وجه الارض ،

يستطيع ان يكون كهذا الشاب المثالي ، وان تكون كل عائلة كهذه العائلة المثالية ، وان يكون المجموع المؤلف من هؤلاء مجموعاً صالحاً سعيداً ، ولكن يجب علينا تأدية الثمن ، وليس الثمن بعزيز ولا غال ولا هو قصيّ بعيد المنال .

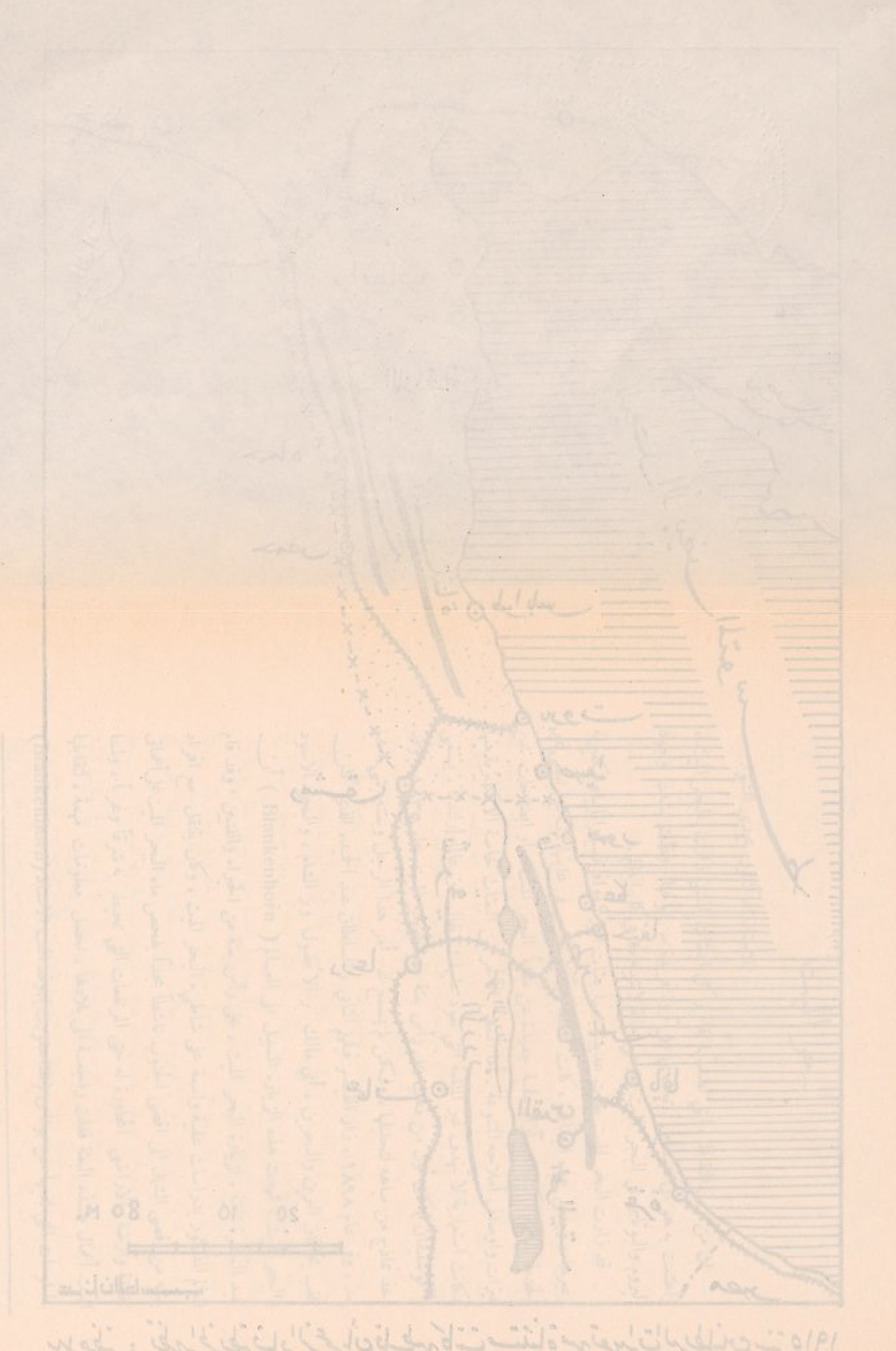
اما واجب المجموع في تضافره بكتلته ، على تحمل المسؤوليات وتوزيعها بعدل واخلاص ، وإعانة الفرد على حسن احتمال مسؤولياته ، وواجب الامم والحكومات منفردة ومجتمعة ، فأمر أشبعه علماء الاجتماع بحثاً ودرساً وتمحيصاً ، فهل كانت هذه البحوث والدروس نظرية خيالية ؟ لقد تصور فلاسفة اليونان الاقدمون انشاء فردوس على الأرض ، فاذا بتعاقب السنين ، يقلب فردوس السعادة والهناء ، جحيم الدمار والشقاء ، ولست أحاول الشطط ، فأتداخل اكثر من هذا فيما لا يعنيني امره ، غير أن مزاعم بعض الفلاسفة ، من اصحاب النزعة الواقعية ، وتبشيرهم بعجز الانسان ، مهما تعددت وسائله ، عن الوصول الى تحقيق المثالية ، ناظرين الى ما هو كائن على سطح الارض ، على انه الواقعية المحتومة ، اقول ، ليس يمنعنا ذلك من القول مع اصحاب النزعة المثالية ، بامكان الوصول الى كيان انساني جديد ؛ والانسان اليوم ، تحول بينه وبين تحقيق ما يبتغي ويريد ، حياته المشعثة ، في هذا الخضم الصاخب ، والتي هي وليدة مدنية مرهقة قتالة ، لاتهدأ ثورتها ولا يسكن ضجيجها ، ومادّية غلابة مشفوعة بحب السيطرة الجاثم على افكار الامم ، وحب الغلبة الشائع في نفوس البشرية الحاضرة مع فقدان لتلك الروح السامية المجيدة ؛ فعليه ان يتغلغل بين عناصر هذه الحياة ، المادية والروحية ، ليتعرف على حاجاته في سبيل بعث جديد يوجه الوجهة الصالحة المختارة ، وعليه ان يحمل حملة قاصمة محكمة مسددة ، على كل ما يحول بين الحياة وسعادتها ، إنه بحاجة الى عقل حكيم يعلمه فن الحياة ، وفكر سديد يقوم ما اعوج من اموره ، ويد قوية قاهرة ، تنتزع من طريقه بزور المفاسد والاشواك ، وتفرشها ورداً وعطراً ، فتعود للحياة صورتها الحلوة الرائعة ، وتكون روعتها قطعة من صميم كل حي على وجه الارض ، ولعله احوج في سبيل ذلك كله ، الى مقومات صحية مثالية ، يستنجد بها عقله فينجده ، ويستمد منها تفكيره الهادىء السليم ، فينظر بعدئذ الى

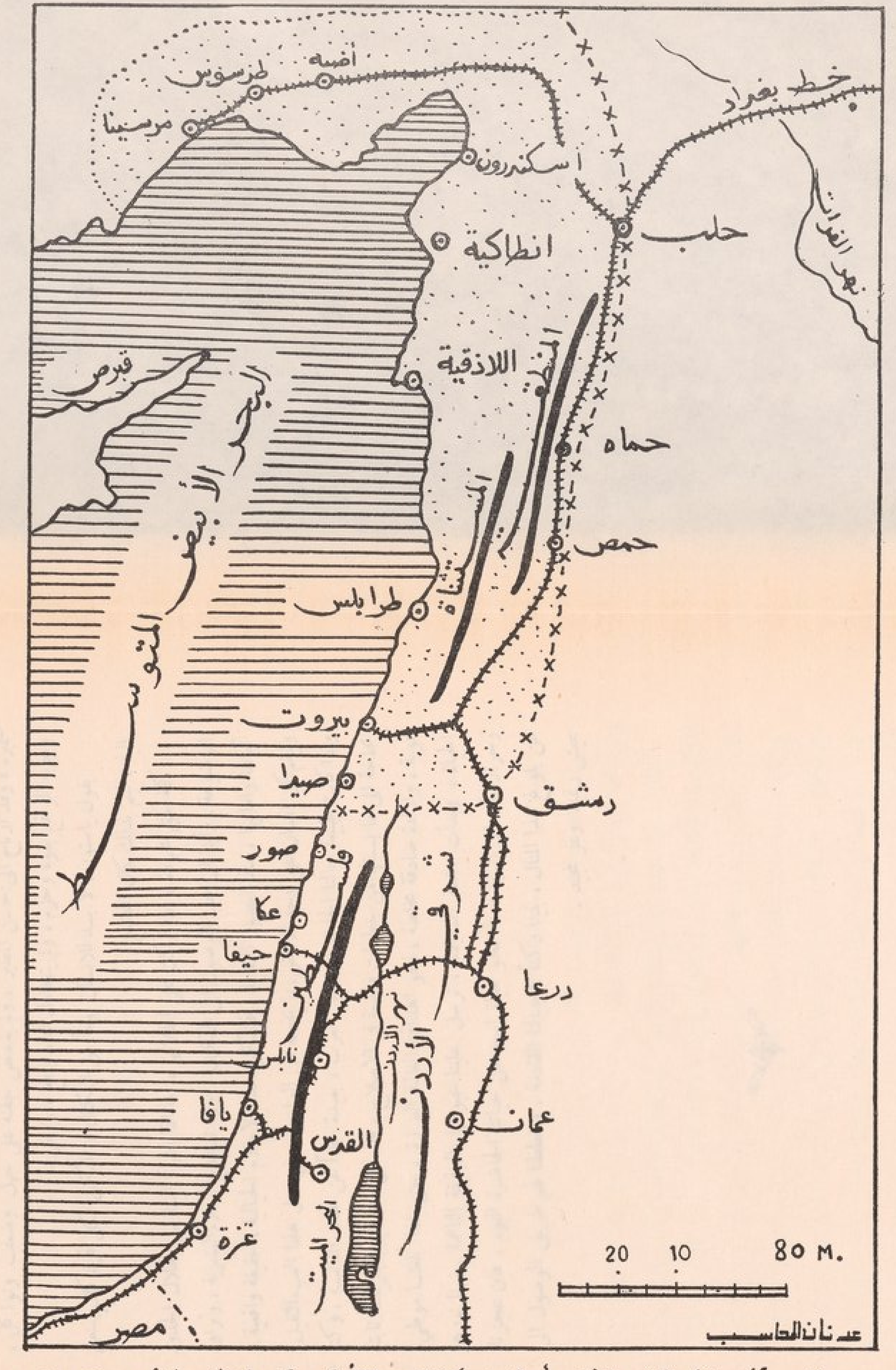
ضميره ، وقد ارتاح الى حسن المصير ، ولم يغمض جفنه على جهل وضعف وتواكل ، وجابه الواقع بقوة وحزم ، ولم يتخاذل امام واقع مفروض .

يقول پاستور : لا بـد للانسان يوماً من الكمال ، فليكن لكل فرد كمال يسعى اليه ، ليتم بذلك كمال المجتمع .

كلمة حق مجردة ، اذا تركت على اطلاقها ، اما اذا نظرنا اليها من خلال الحدود الموضوعة ، رأينا ان حب الوصول الى الكمال ، نزوة تدغدغ احلام البشرية ، وتراود آمالها واما نيها ، منذ العصور القديمة ، فلتكن هذه الاحلام الخيالية ، حقيقة واقعية ، وليقم كل انسان على وجه الارض، بما يخصه من الواجب ، في حمل هذا العبء الثقيل، واذا كانت طبيعة حالنا الحاضرة ، نحن العرب ، بعيدة جداً عن هذه المثاليـة ، وكنا بحاجة الى ما يسبقها من خطوات واسعة في الاصلاح ، فلنمض منذ اليوم بعزيمـة ثابتة قوية ، وارادة صادقة مخلصة ، نحو اهدافنا الغالية العزيزة ، حتى اذا بلغنـا موطيء الحياة ، وبدأت اشعة السعادة ، ترسل علينا خيوطها الرقيقة الناعمة ، نبهنا نورها وحرارتها ، الى السير قدماً نحو حياة اسعد من حياتنا الحاضرة اليوم ، فان عجزنا عن بلوغ هذا المنال ، بنينا ركناً لاجيالنا القادمة ، وخططنا لهم طريق الوصول الى عيش رغيد وعز مجيد .







ملاحظة : تظهر الخريطة فساد الزعم بأن فلسطين كانت مستثناة من تعهدات البريطانيين سنة ١٩١٥

البحر الميت [1]

للاستاذ الدكتور مجدي الشوا

ان من ابرز النقاط ، التي تضمنتها تقارير كل البعثات التي زارت البحر الميت ، وأهتمت به هو ان فلسطين ، تحتوي على ثروة فريدة من نوعها ، وذلك بسبب وجود البروم والبوتاس في البحر الميت ، وهي حالة لاشبيه لها في كل العالم .

قد زارت البحر الميت بعثات عديدة ،منها بعثات اميركيةوافرنسيةوالمانيةوانكليزية وغيرها ، وبعض هذه البعثات ، كانت مخلصة كل الاخلاص في غايتها لم تكن تبتغي غير الخدمة العلمية ، كتقديم آراء علمية جديدة عن منشأ البحر الميت ، او ايضاحات عن مميزات واوصاف أملاحه المتنوعة . أما البعض الآخر من البعثات خاصة الانكليزية منها فكانت استعمارية لا تهدف غير المنفعة التي تعود عليها ؛ ويقال ان عالماً إرلندياً ، يسمى (كوستيفان) كان أول من ذهب على رأس بعثة علمية للبحر الميت عام ١٨٣٥ ، وقد أخذ نماذج من مياهه لتحليلها ، ولكن لم يسمع عن أمر هذا الرجل وبعثته شيء فيما بعد ، وفي عام ١٨٩٨ ، زار القيصر فيلهم الثاني ، السلطان عبد الحميد، الذي كان يلقب بخاقان البرين والبحرين ، أي مالك بر الأنضول وبر الشام ، والبحر الاسود والبحر الميت ، فمهدت هذه الزيارة السبيل الى العالم (Blankenhorn) أن يعيد الكرة ثانية ، لزيارة البحر الميت ، على رأس بعثة من الخبراء والفنيين ، وقد قام العالم المذكور بدراسات علمية واسعة على شاطيء البحر الميت ، وكان يتنقل مع افراد بعثته من أقصى الشمال الى اقصى الجنوب ناشطاً مجداً يفحص ماء البحر الميت على أعماق مختلفة وأرضه والاراضي المجاورة له حتى المرتفعات التي تحيط به شرقاً وغرباً ، ولما انتهت أعمال هذه البعثة قفلت راجعة الى بلادها ، تحمل معلومات مهمة ، لتقابلها بالمعلومات التي لديها عن بوتاس (شتاسفورت)،وقد الف الاستاذ (Blankenhorn)

---

(١) القيت على مدرج الجامعة السورية الكبير مساء الاربعاء في ١٥/٢/٩٥٠

كتابين اسم الاول (نشوء وتاريخ البحر الميت) ، أما الكتاب الثاني فقد ضمنه المعلومات القيمة التي وقف عليها بنفسه وسماه (دراسات على البحر الميت) .وعلى وجه العموم فقد دب النشاط منذ ذلك الحين في المستعمرين وخاصة الانكليز قبل وبعد اغتصاب فلسطين ، فتدفقت بعثاتها الخاصة والرسمية الى البحر الميت او بالاصح الى البحر الحي ، لما يحتويه من الكنوز الملحية التي تبلغ ملايين الاطنان ، ويقال إن (نوفونسكي) وهو يهودي روسي ووظيفته الحالية مدير شركة البوتاس الفلسطينية المحدودة ، أنه أول من قال بامكانية استثمار ثروة البحر الميت من الوجهة التجارية ، وكان ذلك عام ١٩١١ ، حيث كانت الدولة العثمانية تغط في نومها ، ثم كرر متابعة ابحاثه ١٩٢٠ ، بتشجيع اليهودي الانكليزي المثري مستر موند ، الذي لقبه ملك الانكليز فيما بعد باللورد ملتشت ، ولكن من جهة ثانية ان (اللنبي) لما فتح القدس ، طلب من حكومته ارسال خبراء وفنيين على جناح السرعة ، فلبت الحكومة الانكليزية طلبه على جناح السرعة أيضاً وارسلت اليه لجنة منهم ، وقد انتهت اللجنة المذكورة من أعمالها قبل نهاية الحرب العظمى الاولى وقررت امكانية استثمار ثروة البحر الميت تجارياً .

يقع البحر الميت في جنوب سورية الطبيعية ويصب في شماله نهر الشريعة الذي له روافد عديدة ، وتبلغ كمية المياه التي يفرغها النهر في البحر الميت (٥٠) متراً مكعباً في الثانية ، تصبح مليون وخمس مئة الف طن في السنة تقريباً ، مع العلم ان قوة التفريغ تزداد في أيام الفيضانات فتبلغ وسطياً (٢٠٠) متراً مكعباً في الثانية ، وقد حللت نماذج كثيرة من ماء هذا النهر فكانت النتيجة ، انه يحتوي على كل الاملاح الموجودة في البحر الميت ، يؤيد ذلك ملوحة مياهه اذا قوبلت بمياه الأنهار الاخرى ، وحينما يصب نهر الشريعة في بحيرة طبريا ، فانه يخسر بعض كلسه وكبريتاته في المدة التي يمكث فيها في البحيرة المذكورة ، ويقدرها بعضهم بسنتين ونصف تقريباً ، وذلك قبل خروجه منها ، ولكنه يكتسب بالمقابل كميات من الكلور والصوديوم والماغنيزيوم ، التي كان فقيراً بها قبل دخوله البحيرة المذكورة مع العلم ان النهر المذكور يكتسب من مجراه خاصة اعتباراً من بحيرة طبريا الى قرب المصب ، كميات أخرى من الماغنيزيوم

والصوديوم والكالسيوم ، اما البروم والبوتاسيوم التي توجد في مياه البحر الميت ، فهي في نهر الشريعة أيضاً ، يحملها اعتباراً من بحيرة طبريا ، وذلك من الينابيع الحارة المنصبة فيها او التي تخرج من أعماقها ، هذا وإن ينابيع طبريا مالحة ، وقد قيل مراراً ان مياه هذه الينابيع تحتوي على قوة الاشعاع ولكن هذا القول يفتقر الى تأييد علمي وماهو الا دعاية لحمامات طبريا يقوم بها اليهود هناك .

وفيما يلي نتائج تحليل تلك المياه الحارة :

في كل (١٠٠٠) غرام من ذلك الماء يوجد :

١٧،٠٣	غم	من ملح الطعام
٨،٥٢	«	« كلور الكالسيوم
٢،٣٠	«	« كلور الماغنيزيوم
١،٠٩	«	« كبريتات الكالسيوم
٠،٥٥	«	« كلور البوتاسيوم
٠،٢٦	«	« بروم الماغنيزيوم
٠،٠٨	«	« فحمات الكالسيوم

يبلغ انخفاض سطح البحر الميت عن سطح البحر الابيض المتوسط ، ٣٩٦ متراً تقريباً ، وهو اكبر انخفاض معروف على سطح اليابسة ، اما مساحة سطحه فتبلغ (٨٨٠) كيلو متراً مربعاً .

وقد ذكر في الكتب المقدسة بأسماء متعددة منها : بحر الملح ، وبحر الصحراء ، وبحر الاسفالت ، وبحر اليونانيين ، والرومانيين ، وبحر لوط ، ويعرف عندنا باسم بحيرة لوط والبحر الميت ، ولكل اسم من هذه الاسماء سبب يبرره ، فمثلا سُمي ببحر المالح لاحتوائه على مقادير كبيرة من ملح الطعام بجانب املاح مختلفة أخرى . ويرى ملح الطعام راسباً في قعر البحر الميت خاصة في جانبه الغربي الجنوبي ، وبينما لاتتجاوز كثافة البحار المفتوحة (١،٠٢٧) وسطياً فانها تبلغ في البحر الميت (١،١٦٦) ، وكذلك فان كمية الاملاح في البحر الميت تزداد بازدياد العمق ، فكل (١٠٠) غرام

من مائه السطحي تحتوي على ١٩٫٢ غم من الاملاح ، بينما كل ١٠٠ غرام من مائه المأخوذ من عمق ٣٠٠ متر تحتوي على ٢٥٫٩ غرام من الاملاح ، وبسبب هذه الدرجة من التركيز ، يتحمل ماء هذا البحر اثقالا اكثر مما يتحمله اي ماء بحر مفتوح آخر.

فاذا القى المرء بنفسه فيه مثلا وهو يجهل السباحة فانه لا يغرق ، الا اذا كانت هنالك تيارات تظهر في مواسم معينة ، اما نسبة الأملاح في البحار المفتوحة فلا تزيد عن ٣ـ٣٫٥ في المائة وسطياً ، وهنالك عدا عن الكميات الذائبة من الملح في البحر الميت أو الراسبة فيه ، كميات كبيرة من الملح الصخري البلوري الذي يوجد بكثرة في جبل أسدوم ، وذلك في الطرف الجنوبي الغربي من البحر الميت ، وخصوصاً فيما هو واقع على شاطىء البحر على مسافة ٥٠٠ متر ، وهذا هو القسم الذي كان يستخرج منه الملح المذكور ، وقد قدر تقديراً سطحياً بألف مليون طون ، وهو على شكل طبقات كبيرة بعضها مكشوف والآخر مغطى بطبقة من الاحجار الرملية ، وتبلغ درجة نقاوته ٩٧ في المائة ، حسب تقارير دائرة الصحة في فلسطين وهو من أنقى الانواع الموجودة في الاسواق ، وقد كان يقطع في اسدم ثم يطحن ويعبأ في اكياس في محل يسمى جديدة اما كمية الملح المستحصل عليها في أشهر العمل ، فتبلغ (٣٠٠) طوناً شهرياً ، وصاحب الامتياز لاستثمار ملح جبل اسدوم المرحوم شكري ديب وشركاه ، وقد تأسست هذه الشركة سنة ١٩٢٧ ، وكانت الحكومة تتقاضى منه مكساً ، اما الملح المستخرج فيباع في اسواق القدس والامكنة المجاورة للاستهلاك المنزلي ، وقد قدر المستخرج منه سنوياً ما يزيد عن الالف طون ، باعتبار السنة التي يجري فيها العمل لا تزيد عن تسعة اشهر ، وقد سألني ان اتعاون معه على جلب مجففات لتخليص ذلك الملح من عيبه الوحيد وهو الرطوبة ، ففعلت ، وكان يشتكي دائماً بأن هذا المشروع تحيطه ظروف صعبة تعيق نجاحه ، أهمها فقدان الماء الصالح للشرب في تلك النواحي ، يضاف الى ذلك صعوبة أحوال النقل ، هذا عدا عن مضايقة اليهود له باستمرار لحمله على ترك هذا الامتياز لهم وكانت شركة عتليت أكبر المضايقين وهي شركة مساهمة كبرى واكثر اصحاب أسهمها من المتمولين اليهود مثل روتشيلد وكوهين وملتشت ، اما طريقتها في

استحضار الملح فهي طريقة التبخير ، وقد تضرر السيد شكري ديب وشركاه من جراء تلك المزاحمة اليهودية التي كان القصد منها اخراجه من الاسواق خاسراً . اما سبب تسميته ببحر الاسفالت ، فلكثرة وجود هذه المادة فيه ، وللاسفالت اسماء شائعة متعددة فهو يعرف بحمر اليهود أو راتنج الارض او الزفت ويسميه بعضهم بالقار أيضاً وهو موجود بكثرة في جميع مناطق البحر الميت تقريباً ومنتشر على جميع شواطئه ويكثر وجوده خاصة على الجانب الفلسطيني بالقرب من عين جدي حيث يوجد منه ما هو عائم على سطح الماء . ويكثر وجوده ايضاً بالقرب من الموجب داخل حدود شرقي الاردن ، وهو كتلة سوداء نتجت بتأكسد القطران الجبلي اللزج القوام والبني اللون وهذا حصل بنتيجة تأكسد زيت النفط ، لذلك فان الثقة تزداد بوجود هذا الاخير في الجهات الجنوبية من قعر البحر الميت والاراضي المجاورة له حيث يكثر ظهور الزيت والحمر في تلك الانحاء ، وتأكيداً لهذا القول قامت عدة شركات للنفط كلها انكليزية للبحث عن النفط وقد احاطت ابحاثها بستار كثيف من الكتمان كما هي عادة الانكليز في البلاد العربية !

وقد يستخرج من الحمر سنوياً (١٠٠) طوناً فقط ، لذلك فان اهمية هذه المادة من الناحية التجارية قليله اذ أنها لم تقدر بعد في البلاد الاخرى، مع ان نفقات استخراجها قليلة خاصة للقسم السابح فيها فوق الماء ، أما الآن فلا تستعمل الا لتغطية الشوارع .

وسمي بالبحر الميت لأن كثرة أملاحه تحول دون حياة الاسماك او غيرها من الأحياء ويقول (Blankenhorn) انه شاهد فيه نوعاً من الاحياء الدنيا من زمرة الأشنة :

ويبلغ طول البحر الميت (٧٦) كيلو متراً ، وعرضه من ٥-٤٠ — ١٦ كيلومتراً ، ويقسم البحر الى حوضين وذلك بواسطة اللسان الموجود على الساحل الشرقي منه ، هذا وان البحر محاط « من شرقه وغربه بمرتفعات يبلغ علوها من ٧٠٠ — ٨٠٠ متراً تقريباً ، يتخللها أودية يعيش فيها بعض النبات .

وحوضا البحر الميت مختلفان في العمق ، فبينما يبلغ عمق الحوض الشمالي أكثر

بقليل من (٣٩٠) متراً في بعض نقاطه فان العمق في الحوض الجنوبي لا يزيد عن (٣٠٦) متراً ، ولكن بصورة عامة يزداد العمق وينقص قليلا حسب فصول السنة .

أمواج البحر الميت قصيرة وخرساء نظراً لثقل مائها ، أما ماؤها فهو صاف وشفاف لكنه مشبع بالأملاح ، وأكثرها من نوع الكلوريدات ماعدا ملح بروم الماغنيزيوم وكبريتات الكالسيوم المنحل قليلاً ، فاذا اضاف المرء الى قليل من مائه في أنبوب شيئاً من ملح الطعام ، فانه لا يذوب وانما يرسب في القعر ، وفيما يلي أهم الأملاح الموجودة فيه :

كلور الماغنيزيوم وكلور الصوديوم وكلور الكالسيوم وكلور البوتاسيوم وأخيراً بروم الماغنيزيوم ، ويمكن للمرء ان يكشف عن وجود أكثر هذه الأملاح واحداً فواحد بمجرد الذوق واللمس ، وكيفية ذلك ان يدلك المرء قليلا من ماء البحر الميت بين أصابعه فيشعر ان ملمسه صابوني وهذا يدل على وجود كلور الكالسيوم ، واذا ذاق شيئاً من مائه شعر بلذعة في لسانه ، وهذا دليل على وجود كلور البوتاسيوم وكذلك فانه يشعر بطعم مر وذلك لوجود كلور الماغنيزيوم ، أما الطعم المالح فسببه ملح الطعام الموجود بكثرة ايضاً في البحر الميت .

أما الكميات الملحية المنحلة في ماء البحر الميت فقد قدرها عدد من الباحثين أبرزهم الاستاذ Brock كما يلي : فقد أخذ نماذج من ماء البحر الميت من أعماق مختلفة وحللها فكانت النتائج التالية :

الأرقام هي غرامات في الليتر الواحد :

على عمق ٦ أمتار يوجد :

١٠٩٫٥٠	غراماً	كلور الماغنيزيوم
٧٠٫٦٩	»	ملح الطعام
٣١	»	كلور الكالسيوم
٩٫٩٦	»	كلور البوتاسيوم
٤٫٤٥	»	بروم الماغنيزيوم
١٫٣٢	»	كبريتات الكالسيوم

فيكون مجموع الأملاح بالغرامات في الليتر الواحد: ٢٢٦٫٩٢ غرام أما على عمق ٣٣٢ متراً فيوجد :

١٧٠٫٦٦	غراماً	كلور الماغنيزيوم
٨٥٫٥١	»	ملح الطعام
٤٧	»	كلور الكالسيوم
١٥٫٥٤	»	كلور البوتاسيوم
٧٫٨٣	»	بروم الماغنيزيوم
٠٫٣٦	»	كبريتات الكالسيوم

فيكون مجموع الأملاح بالغرامات في الليتر الواحد ٣٢٦٫٩٠ غرام اي زيادة ١٠٠ غرام تقريباً عن الأملاح المأخوذة من عمق ٦ أمتار هذا وعلى عمق ٣٣٠-٣٣١ متراً فان المياه تحتوي على ٠٫٠٣٢ غم من الأملاح غير المنحلة في الليتر الواحد .

أما الارقام التي هي بين العمق ٦ الى ٣٣٢ متراً فهي التالية :

العمق بالأمتار	كلور البوتاسيوم	بروم الماغنيزيوم	ملح الطعام	كلور الماغنيزيوم	كلور الكالسيوم
٣٠	١٠٫٥٥ غم	٥٫٠٩ غم	٧٤٫٥٧ غم	١١٧٫٩٠ غم	٣٣٫٢٠ غم
٩١	١٣٫٢١ »	٦٫١٢ »	٨٠٫٢٢ »	١٤١٫٧٢ »	٤٠٫٠٩ »
١٠٩	١٥٫١١ »	٧٫٢٤ »	٩٢٫٥٩ »	١٧٠٫٣٠ »	٤٦٫٩٥ »
١٤٩	١٥٫٦٧ »	٧٫٣٠ »	٨٧٫٣٨ ،	١٦٩٫٠٤ »	٤٦٫٦٦ »
١٦١	١٥٫٨٩ »	٨٫٠٧ »	٨٧٫٠٩ »	١٦٩٫٢١ »	٤٦٫٨٦ »
٣٣٠	١٥٫٦٩ »	٨٫٠٠ »	٨٧٫٦٤ »	١٦٩٫٧٢ »	٤٧٫١٦ »

وترى من هذا ان ما تحتويه مياه البحر الميت من الأملاح في الليتر الواحد عالية تساوي ثمانية أضعاف كميتها في مياه البحار المفتوحة تقريباً .

وقد قمت بمقابلة بين ماء البحر الميت وماء البحر المتوسط — مدينة بيروت — فوجدت النتائج كما أسلفت .

أما الأملاح الراسبة في قعر البحر الميت فأكثرها يتألف من ملح الطعام وكبريتات الـكالسيوم ومقدارها كبير جداً وغير معروف .

وبناء على تقدير Brock فان مياه البحر الميت تبلغ ١٥٩ كيلو متراً مكعباً أي ١٥٩ × ١٠٩ متراً مكعباً ، والأملاح المنحلة فيه تقدر كما يلي :

كلور الماغنيزيوم	٢٢	ألف مليون طوناً
ملح الطعام	١١	« « «
كلور الـكالسيوم	٦	« « «
كلور البوتاسيوم	٢	« « «
بروم الماغنيزيوم	٩٨٠	مليون طوناً

ويمكن تقدير عمر البحر الميت من معرفة كميات كلوروبروم الماغنيزيوم ، الموجودة فيه وكميـة الملحين المذكورين اللذين يحملهما نهر الشريعة إليـه سنوياً وذلك بتقسيم الكميّات الأولى على الثانية ويُقال إن عمره يبلغ الآن ٧٠ الف سنة .

ويُلاحظ أن سطح البحر الميت قد انخفض وقد أصبحت مسافاتٌ شاسعة من شاطئه جافةً ومغطاة بالملح ويُقال إن هذه الظاهرة حدثت بتحويل كميّات من ماء نهر الشريعة للريّ . كما أنه يُلاحظ نفس الشيء أيضاً عندعدم سقوط الأمطار وذلك لأن التبخر يزداد في تلك المنطقة .

وقد قُدّمت طلباتٌ عديدة للحصول على امتياز البحر الميت واشتدت المزاحمـةُ على طلبه والحصول عليه .

وقد شاء الانكليز أن تبقى الأمور معلقة الى سنة ١٩٢٩ ولم ينجح احـد من الذين تقدموا بطلب الامتياز قبـل ذلك التاريخ ويعود سبب ذلك الى ما بذله اليهود والانكليز من جهود مشتركة في أيام الأنتداب الانكليزي التعيس في فلسطين وأخيراً سمعنا الحكومة الانكليزية تعلن فجأة أنه بالامكان إعطاء امتياز إستثمار أملاح البحر الميت فتقدم كلٌ من نوفنسكي اليهودي الروسي والمستر تولوك وهـذا مات مؤخراً بطلب الامتياز بناءً على تقرير مشترك قدّماه عن نتيجة ابحاثهما .

فقبلَ الانكليزُ في الحال طلبهما . وقد الف الاثنان شركة ، بوتاس فلسطين المحدودة وسميت بالشركة الانكليزية اليهودية وذلك ابتداء من أول كانون الثاني ١٩٣٠ وهو التاريخ الذي أمضي فيه الامتياز المذكور من قبل حكومتي فلسطين والاردن .

أيها الاخوان الاكارم ، أيها الطلاب الاعزاء الذين نُعلق عليهم كل الآمال في مستقبلنا المظلم : إن شعبنا لم يحرك ساكناً لاقبل ولا بعد اعطاء الامتياز مع أننا بسطنا له قضية البحر الميت وكذلك لاهلنا الكرام في المهجر وشرحناها لهم شرحاً ضافياً فلم نجد أي رد فعل او جواب هنا أو هناك ما عدا مجلة واحدة كانت تصدر باللغة الافرنسية في جنيف باسم الأمة العربية لصاحبها المرحوم أمير شكيب أرسلان تصدّت للمشروع وشرحته من الوجهة الحقوقية والسياسية في صالح الشعب العربي .

هذا وإن في مدينة (نيورك) شركة اسمها : الشركة الاقتصادية الفلسطينية كل مديريها من اليهود ، ولهم مصالح رئيسية في هذا الامتياز ، لذلك فهم يتعاونون مع الوكالة اليهودية أو مع الحكومة القائمة الآن في فلسطين .

مدة الامتياز ٧٥ سنة ومن شروطه المهمة أن تزداد الكمياتُ المستخرجة من البوتاس بنسب تصاعدية مع مرور الزمن ضمن شروط معينة وقد تعهد صاحبا الامتياز بايصال انتاج البوتاس الى ١٠٠ الف طن سنوياً ، وان يدفعا لحكومة فلسطين والاردن مبلغاً معيناً من المال كنصيب من الارباح . أما رأس مال الشركة فكان ٨٠٠ الف جنيه بادىء بدىء .

وقد جنى اليهود فوائدَ في النواحي الأخرى كبناء مشاتي فخمة وتنظيم سفريات للسياحة وتنشيط الملاحة في البحر الميت وما الى ذلك من مشاريع تجارية رابحة ، وقد انشأت الشركةُ المعمل اولا في الطرف الشمالي من البحر ثم اضطرت لزيادة الانتاج أن تؤسس معملا آخراً في الطرف الجنوبي منه ، وتبلغُ مقاديرُ الانتاج في كل معمل من ٢٥ — ٣٠ الف طوناً .

وفيما يلي جدول بالكميات المصدرة من البوتاس والبروم اعتباراً من سنة ١٩٣٥ — سنة ١٩٣٨ :

في سنة ١٩٣٥   ١١٤٢٧ طوناً بوتاس   و   ٤٤٥ طوناً بروم

في سنة ١٩٣٦   ١٨١٢٤ طوناً بوتاس   و   ٤٠٣ طوناً بروم

في سنة ١٩٣٧   ١٩٧٩٣ طوناً بوتاس   و   ٣٧٨ طوناً بروم

أما في سنة ١٩٣٨ فقد بلغت الكمية المصدّرة من البوتاس ٢٩١١٠ طوناً ومن البروم ٦١١ طوناً ، أما استحصار كلور البوتاسيوم وهي المادة التي يرتكز عليها اهمية المشروع فيتلخصُ فيما يلي :

ترفع مياهُ البحر الميت بالمضخات الى أحواض قليلة العمق فتتبخرُ المياهُ بتأثير حرارة الشمس ، وتترسب الأملاحُ على درجات متفاوتة،هذا مع العلم أن المزيجَ الملحي الحاصل بنتيجة التبخير لايمكن تجفيفه تجفيفاً تاماً بتأثير حرارة الشمس ذلك لأنـه يحتفظ بقليل من رطوبة هواء ذلك الجوّ الرطب ، وهـذه الرطوبـة تجذبها دوماً املاحُ الماغنيزيوم ، وأول ما يترسب من الاملاح هو ملح الطعام لأنه اقل ذوباناً من بقيةِ الاملاح المشتركة معه ، فهذا الملح يجرف بواسطة نهر الشريعـة فيذهب ثانية الى البحر الميت ، ثم يتبعه بالترسيب ملح مزدوج يسمى (كارناليت) وهو يتألف من ذرة من كلور البوتاسيوم وأخرى من كلور الماغنيزيوم مع ست ذرات من ماء التبلور ،ويفصل الاول عن الثاني باذابة الملح المزدوج المذكور في ماء نهر الشريعة بنسبة معينة ، فيذوب كلور الماغنيزيوم ويبقى كلور البوتاسيوم .

يستنتج من ذلك أن استحضار مادة البوتاس من البحر الميت يستند الى ثلاثـة شروط كلها متوفرة في مكان الاستحضار ، فالاول هو حرارة الشمس العامل المهم في تبخير مياه البحر الميت ، ويستفاد من حرارة الشمس هناك في التبخير أكثر من تسعة اشهر في السنة .

أما الثاني فهو مياه البحر الميت بالذات التي تضخ في احواض قليلة العمق كما ذكرنا اما الثالث فهو ماء نهر الشريعة الذي يقوم بفصل الكارناليت ، هذا واننـا نعرف ان في بلدان العالم ست امكنة يستخرج منها البوتاس ، فمن خمسة منها يستخرج البوتاس على طريقة الحفر ثم يستعمل البخار لتنقيتها كما في (شتاسفورت) في المانيا مثلا ، اما

في كاليفورنيا وهو المكان السادس فمع ان البوتاس يوجد هناك بحالة محلول سائل فانه يضخ اولا ثم يستعمل البخار لتنقيته ثانياً ولهذه العملية الاخيرة مصاريف كبيرة، يستنتج من ذلك ان مصاريف استحضار البوتاس في البحر الميت قليلة بالنسبة لاستحضاره في الامكنة الاخرى ، ولكن اذا قلنا ذلك يجب ان لا ننسى مصاريف نقله في الاحوال الحاضرة بالنسبة للبلاد المنتجة الاخرى ، فهذه المصاريف تشكل عاملا مهما يعرقل نمو المشروع .

اما استحضار البروم فيتخلص فيما يلي :

يؤكسد كلور الماغنزيوم محلياً على شاطىء البحر الميت بواسطة الهواء الساخن لاستحضار غاز الكلور منه وهذا الاخير يستعمل في فصم البروم المتحد مع الماغنزيوم وبهذه الصورة يستحصل على عنصر البروم الثمين . هذا ويمكننا ان نقول ان البروم موجود في البحر الميت بكميات كبيرة وبالمقايسة يتضح لنا ان المتر المكعب من ماء البحر الميت يحتوي على (١٤) كيلو غرام من البروم تقريباً بينما المتر المكعب من اي ماء آخر موجود على سطح الكرة الارضية لا يحتوي اكثر من (٤) كيلو غرامات من البروم .

استعمالات وفوائد أملاح البحر الميت :

استعمالات كلور البوتاسيوم :

ان القسم الاعظم من البوتاس يستعمل للتسميد ولا بد أن يدرك المرء أهمية هذه المادة من الوجهة الزراعية وهذا عامل مهم جداً في نجاح مشروع البحر الميت يضاف الى ذلك ضآلة المصاريف اللازمة لاستخراجه بالنسة للبلاد الأخرى وقد كان المزارع العربي لا يهتم بالأسمدة الصناعية فأصبح بعد ما رأى من نجاح في التجربة يستعملها بكثرة ومثله بقية المزارعين في البلاد الأخرى .

لذلك يزداد طلب هذه المادة باستمرار : وعدا عن ذلك فان كلور البوتاسيوم يستعمل في صنع بعض أنواع البارود والأدوية والصابون والزجاج والكبريت وبعض الأصبغة وغير ذلك .

استعمالات البروم :

ان البروم سائل كثيف أحمر اللون يتصاعد بخاراً بسهولة وله رائحة شديدة خانقة وفيما يلي أهم الصناعات التي تنشأ عنه او يدخل فيها كمادة مساعدة :

ان ٦٠ في المئة منه تستعمل في صنع مركبات صيدلية و ٢٥ في المئة منه في المواد الصباغية ويستهلك الباقي منه في الصناعات العضويه والتصوير والمختبرات .

استعمالات ملح الطعام :

لهذه المادة الرخيصة استعمالات عديدة منها: استحضار غاز الكلور والسودا وحمض كلور الماء أما غاز الكلور فيدخل في صناعة قصر الاقمشة والتطهير بصورة عامة كتعقيم مياه الشرب وغير ذلك .

استعمالات كلور الماغنيزيوم :

يستعمل في تليين الخطوط الصوفية وتنعيم الاقمشة ولصنع ملاط وبلاط الماغنيزيا وغير ذلك بالامكان استحضار معدن الماغنيزيوم من كلور الماغنيزيوم ، وللمعدن استعمالات شتى منها انه يضاف لمعدن الالومينيوم لصنع خلائط معدنية خفيفة تستخدم في شؤون متعددة وكذلك يستعمل الماغنيزيوم في عمليات الارجاع الكيميائية والارشادات وفي عمليات العالم Grignard ، وقد كان في نية الشركة ان تقدم على مشروع استخراج معدن الماغنيزيوم من الملح المذكور لكنها أجلت تنفيذه كما يظهر .

وعدا عن ذلك تحضر مادة سائلة مؤلفة من كلور الماغنيزيوم والكالسيوم لرش الشوارع بها ضد الغبار .

اما كلور الكالسيوم فيستعمل للتجفيف لأن ذرة واحدة منه قابلة لأخذ ست ذرات من الماء ، وكذلك فان هذه المادة حينما تذوب في الماء او في الثلج أيضاً تحدث برودة لذلك يمكن استعمال مثل هذا المزيج في التبريد .

وأخيراً قد كان يباع سابقاً مزيج ملح جاف كان يعرف في الاسواق باسم الملح الطبي وهو عبارة عن الأملاح الموجودة في البحر الميت بالذات ، فهذه تذاب ثانية في الماء للاستحمام بها في المنزل .

هذا ولا بد من الاشارة الى مشروع يتعلق بالبحر الميت قامت حوله ضجة يوماً من الايام الخالية قدمه مهندس اميركي يسمى لودرميلك ويتلخص مشروعه في تحويل نهر الشريعة عن مصبه الحالي وذلك للاستفادة منه في ري الأرض الزراعية ، وهو يرتئي في نفس الوقت انشاء قناة من البحر المتوسط تصب في البحر الميت قاصداً من وراء ذلك الحيلولة دون جفاف البحر الميت اولاً ثم الاستفادة من الانحدار الموجود بين مستوى البحر المتوسط ومستوى البحر الميت لتوليد كهرباء رخيصة ، وقد رحب اليهود بتنفيذ هذا المشروع يومذاك لانه كان يوافق اهواءهم فيما يتعلق بزيادة قدرة البلاد على استيعاب السكان .

بقي علي ان أتحدث بايجاز عن الثروات الأخرى الموجودة في البحر الميت أو القريبة منه وأولها مادة الجص الموجودة في البحر الميت وحوض عربة بكثرة ثم الحجر الكلسي القيري او الحمري كما يدعى وهذا النوع من الحجر يوجد بجوار النبي موسى وأمكنة أخرى، ويقال ان المقدار الموجود منه يزيد على ٢٤ مليون طوناً ، وهو يحتوي على ٢٠ — ٢٥ في المئة من المواد وقد قرأت عن مشروع استحضار الكلس الحي وزيوت وغازات مشتعلة من هذا النوع من الحجر وذلك بتقطيره اولاً ثم حرق فحمات الكالسيوم المتبقي بواسطة قليل من الزيت والغازات لتحويل هذه المادة الى الكلس الحي .

هذا وان كل ١٠٠ الف طوناً من هذا النوع من الحجر تنتج ٤٠ الف طوناً من الكلس الحي تقريباً ونحو اكثر من ٣ آلاف طوناً من زيت الوقود .

اما الكبريت فيوجد بكثرة في رواسب البحر الميت وهنالك عيون كبريتية على الشاطيء الغربي من البحر الميت .

اما معدن الكروم فهو موجود في عروق الصخور بالقرب من حترور واورأس زويرا ولكن نسبة خام الكروم الموجود في هذه النواحي قليل وللآن لم نسمع أي ذكر عن قيمته التجارية .

اما الحديد فيوجد في الحمم البركانية في أم زيمات ومكركا ونسبة اوكسيد الحديد في هذه النواحي لا تزيد على الثلاثين في المئة ولكن الأمر على عكس ذلك في وادي

فرح فيقال ان خامات الحديد موجودة بكميات كبيرة مختبئة تحت الصخور الطباشيرية السفلى فيه .

وأخيراً مادة الفوسفات :

وقد اعطي امتياز استخراج الموجود منها على طريق أريحا الى شركة بوتاس فلسطين ذاتها، وتوجد هذه المادة بالقرب من البحر الميت في سفوح الجبال ومنحدراتها وكذلك في جهات النبي موسى بكميات جسيمة تقدر كميتها بـ (**٢٢٥**) مليون طوناً، وهذه المادة ممتازة وتشبه فوسفات تونس والجزائر ولكن لا تضاهيها تماماً في الجودة ويمكن تحويل هذه المادة الى السماد المشهور باسم سوبر فوسفات السماد الثمين للأرض الزراعية ؛ والذي كان يؤخر تنفيذ هذا المشروع هو عدم وجود حمض كبريت رخيص تحول به الفوسفات غير الذائبة الى سوبر فوسفات ذائبة تستفيد منها الأرض الزراعية.

وكاد المشروع يدخل في طور التحقيق بعد كشف كميات جسيمة من الكبريت بالقرب من مدينة غزة وتشكيل شركة مقالع الكبريت المحدودة التي يسيطر عليها الانكليز مئة بالمئة .

هذا ويقول الاستاذ Wset إنه بالامكان صنع سماد مركز وهو فوسفات الامونيوم وفوسفات البوتاسيوم معاً مع العلم ان كل المواد اللازمة لصنعه موجودة في البحر الميت أو حوله .

أما المبدأ الذي يتم به صنع هذا السماد فهو كما يلي :

١ — يميع الهواء ثم يفصل غاز النيتروجين عن الاكسجين .

٢ — يحلل محلول ملح الطعام تحليلا كهربائياً فينشأ غاز الكلور وماءات الصوديوم والايدروجين .

٣ — يستحضر غاز النشادر من النيتروجين والايدروجين حسب عملية هابر .

٤ — يستحضر حمض الفوسفور من حجر الفوسفات .

٥ — يعامل محلول من كلور البوتاسيوم مع حمض الفوسفور فيحصل فوسفات البوتاسيوم وحمض كلور الماء .

٦ — يمزج فوسفات البوتاسيوم مع فوسفات الأمونيوم فيحصل السماد المركز المذكور الذي يحتوي على عناصر البوتاسيوم والفوسفور والنيتروجين .

اما المصاريف فهي غير عالية كما يقول وست ويلزم لتنفيذ هذا المشروع قوة كهربائية رخيصة الثمن وهذه موجودة هناك .

وأخيراً فانه يضف الى قوله هذا ان كل عملية من هذه العمليات الكيميائية تصلح ان تكون مشروعاً مستقلاً وقائماً بذاته .

هذه قصة البحر الميت ذكرتها بايجاز للجيل الجديد عساه ان يميل للعلوم التي تعالج وتدرس الكنوز الدفينة في أرض الوطن العزيز فينقذها من المستعمرين .

ترجمة القسم الخاص بالبحر الميت

من تقرير سكرتير رابطة السلام والعدالة

في فلسطين

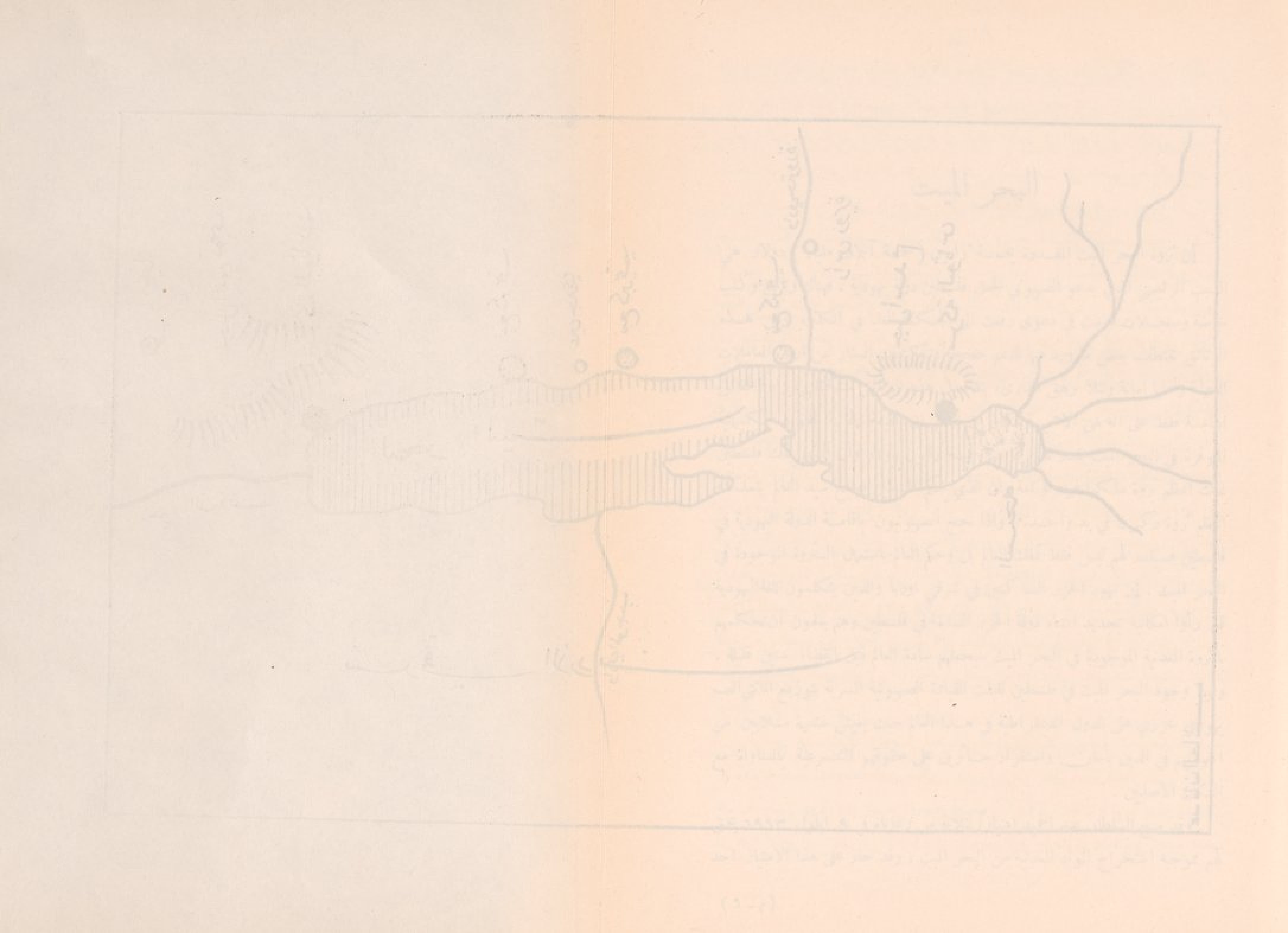
وضعه بالانكليزية

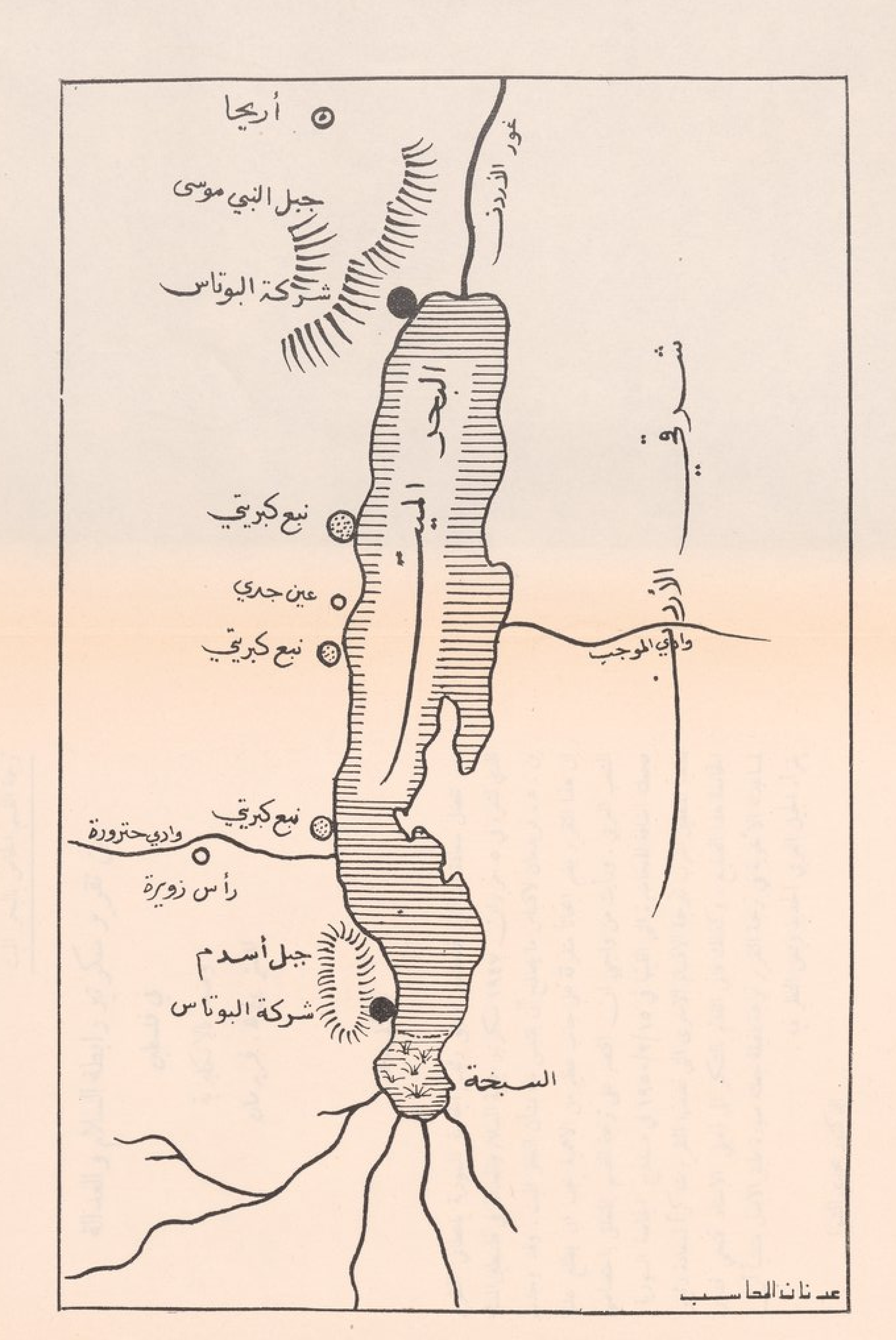
المستر بن ه. فريدمان

المقدمة

تفضل سعادة الدكتور قسطنطين زريق رئيس الجامعة السورية باعطائي التقرير الذي نشره في ٥ حزيران ١٩٤٧ سكرتير جمعية السلام والعدالة في فلسطين المستر بن . ه . فريدمان لاقتباس ما يصلح أن يقتبس منه بشأن البحر الميت . وقد وجدت ان هذا التقرير يضم ابحاثاً متفرقة على جانب عظيم من الاهمية يجب ان يطلع عليها الشعب العربي . ورأيت من واجبي ان اقتصر على ترجمة القسم المتعلق باختصاصي فجعلته اضافة للمحاضرة التي القيتها في ١٥/٢/١٩٥٠ في مدرج الجامعة السورية ، داعياً المثقفين العرب لترجمة الاقسام الاخرى التي تضمنها التقرير شاكراً لسعادة رئيس الجامعة هذا الصنيع ، وكذلك فاني اتقدم بالشكر الى زميلي الاستاد فتحي قدورة لمساعدته الأخوية في ترجمة التقرير ترجمة دقيقة جعلته صورة طبق الاصل متمنياً أن يقرأه الجيل العربي الجديد ويمعن النظر فيه .

الدكتور مجدي الشوا





أريحا
غور الأردن
جبل النبي موسى
شركة البوتاس
البحر الميت
شرقي الأردن
نبع كبريتي
عين جدي
نبع كبريتي
وادي الموجب
نبع كبريتي
وادي حترورة
رأس زويرة
جبل أسدم
شركة البوتاس
السبخة
عدنان الحاسب

البحر الميت

إن ثروة البحر الميت المقـدرة بخمسة ترليون (خمسة آلاف مليار) دولار هي السبب الرئيسي الذي يدعو الصهيوني لجعل فلسطين دولة يهودية . فهناك وثائق وكتب خاصة وسجـلات قدمت في دعوى رفعت الى المحكمة العليا في انكلتره ومن هـذه الوثائق نقتطف بعض ما ورد فيها لدعم حججه وتكشف الستار عن ارذل المعاملات الدولية وأقلها امانة ولئلا نرهق القارىء بتفاصيل هذه الوثائق سنكتفي بايراد الحقائق الهامـة فقط على انه من الاهميـة بمكان ان نذكر ان القيمة الحالية للمواد الكيمائية المتوفرة في البحر الميت تقدر بما يزيد عن خمسة ترليون دولار وان الذي يملك فلسطين يملك اعظم ثروة ملكها فرد او امة وان الذي يحكم فلسطين يصبح سيد العالم بتملكه اعظم ثروة ركزت في يد واحـدة . واذا نجح الصهيونيون باقامـة الدولة اليهودية في فلسطين فسيقدر لهم ليس فقط تملك العالم بل وحكم العالم باستعمال الثروة الموجودة في البحر الميت . إن يهود الخزر الساكنين في شرقي اوربا والذين يتكلمون اللغة اليهودية قد رأوا امكانية تجديد انشاء دولة الخزر السابقة في فلسطين وهم يعلمون ان تحكمهم بالثروة المعدنية الموجودة في البحر الميت سيجعلهم سادة العالم قبل انقضاء سنين قليلة . ولولا وجود البحر الميت في فلسطين لقبلت القيادة الصهيونية السرية بتوزيع المائتي الف يهودي خزري على الدول الديمقراطية في هـذا العالم حيث يعيش عشرة مـلايين من اخوانهم في الدين بأمان واستقرار حـائزين على حقوقهم الشرعية بالمساواة مع السكان الاصليين .

وقد منح السلطان عبد الحميد امتيازاً لثلاثة من رعاياه في ٩ ايلول ١٩١٣ يحق لهم بموجبه استخراج المواد المعدنية من البحر الميت . وقد حاز على هذا الامتياز احد

الرعايا الانكليز في ٢٣ نيسان ١٩٢٣ فحاول الصهيونيون مع شركائهم من المتآمرين انتزاع هذا الامتياز لانفسهم ولكنهم فشلوا في ذلك . وقد بحثت الامتيازات التركيةفي معاهدة السلم المبرمة مع تركيا بعد الحرب العالمية الاولى في البروتوكول الثاني عشر من معاهدة لوزان واتفق يومذاك على الاعتراف بالامتيازات التي منحتها الحكومةالتركية قبل الحرب العالمية الاولى كما انه نص على ان الدولة التي تحل محل الدولة التركية في فلسطين تكون المسؤولة عن تلك الامتيازات ونتيجة لذلك اصبحت حقوق الملكية لاستخراج المواد الكيميائية والمعدنية من البحر الميت اما للشخص المالك الذي منحته حكومة تركيا او للحكومة التي تخلف تلك . ولقد دعمت الاجراءات القومية والدولية فيما بعد ملكية حقوق استخراج المواد المعدنية من البحر الميت إما بموجب الامتياز التركي او بموافقة الحكومة اللاحقة في فلسطين ولكن في كل من الحالين المذكورين لايجوز أن تصبح ثروة البحر الميت تحت سيطرة البريطانيين او الصهيونيين . وخلافاً لهذه التعهدات التي وردت في تلك الاجراءات الدولية فان وزارة المستعمرات البريطانية رفضت الاعتراف بالامتياز التركي وذلك بموجب اتفاق سري كشفت النقاب عنه دعوى ماروماتس ضد روتنبروغ . ففي كانون الثاني ١٩٢٣ تآمر الماجور تولوك وهو من الرعايا البريطانيين مع السيد نوفونسكي وهو من الرعايا الروس للحصول على حق استخراج المواد الكيميائية من البحر الميت لمنفعة جماعة رئيسية كانا يمثلانها . وفي خلال السنوات ١٩٢٣ و ٢٤ و ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ حدثت عدة معاملات غريبة من ممثلين عن الصهيونيين وممثلين عن شركات انكليزية كيميائية رغبوا في استملاك الثروة الكيمياوية في البحر الميت . أما تفاصيل هذه المعاملات فهي عديدة ومعقدة لذلك سأقتصر على ذكر مايلي :

عرضت هذه المسألة بالتفصيل لبحثها في البرلمان الانكليزي وقد انتقدت فيه الحكومة الانكليزية بشدة لشذوذها الذي مكن الصهيونيين من تملك ثروة البحر الميت المقدرة بخمسة ترليون دولار بالرغم من وجود امتياز تركي لايزال قائماً قانونياً يضاف الى ذلك ان هذا الاجراء البعيد عن الامانة والشرف موزع في سجلات عديدة في جميع انحاء

العالم يضم الشركاء الرئيسيين با كبر مؤامرة حدثت في تاريخ العالم. فاذا شاء احد ان يطلع على المقدار العظيم من عدم الامانة التي ظهرت في مسألة البحر الميت فما عليه الا ان يطلع على المعلومات المسجلة في سجلات المحكمة العليا في انكلترة والمحكمة الدولية في لاهاي .

ولاظهار حقيقة هذا الوضع بصورة اوضح يجب علينا الرجوع الى ماجاء في التقرير الذي تلاه السيد اتنكار في اجتماع المنظمة الصهيونية الفلسطينية المعقود في مايس ١٩٢٩ في سيدني باستراليا ونشرته جريدة أوفنت هيرالد بسيدني في ١٩٢٩/١٢/١٥ :

« ان ما سيبحث الآن هو سري إلا أن عدم وجود ممثلين عن صحف عربية فلسطينية في اوستراليا يمكنني من الادلاء به بدون وجل . فبدأ المستر اتنكار يبحث المسائل السياسية وبعض الامور الاقتصادية الضئيلة الشأن باختصار ثم تعرض لبحث ثروة البحر الميت وامتياز استخراجها بقوله لقد قيل الشيء الكثير في الصحف حول هذا الامتياز وحول الثروة الخرافية التي ينطوي عليها البحر الميت ،وصدر حديثاً تقرير رسمي يذكر ان معادن البحر الميت تستطيع ان تسد ديون العالم عدة مرات وعلى كل حال فاننا لاننكر ان البحر الميت هو احد مصادر الحياة الرئيسية في فلسطين ولقد حصل على هذا الامتياز السيد نوفونسكي وهو صهيوني قديم معروف ولقد حاول متمولو العالم قلب الارض والسماء للحصول على هذا الامتياز وربما نشرنا في المستقبل تفاصيل النزاع على هذا الامتياز وستكون تلك التفاصيل قصة بوليسية شائقة تضم الدسائس السياسية والاقتصادية التي اشتركت بتمثيلها عدة بلدان اوروبية . اما نحن الصهيونيون فسنذكر دوماً أن بريطانيا بجانبنا تفضل الرجل الذي يهتم بمصالحنا ولو قدّر لنا أن نخسر هذا الامتياز لاصبح مستقبلنا في فلسطين في خطر . ومع أن كل هذه المسائل ذات طابع اقتصادي إلا أن عملنا السياسي الهام هو جزء من هذا الطابع ».

❀❀❀

فترى انه من أفواه قادة الصهيونية انفسهم ينبعث الاعتراف بخطيئتهم وإن السيد اتنكار لم يشر في هذا التقرير إلا بصورة مقتضبة الى الدسائس الماليةوالسياسيةالصهيونية التي عمت جميع بلدان العالم لامكان الحصول على امتياز استخراج المواد الكيميائية والمعدنية القيمة من البحر الميث . ونرى من المناسب اعطاء التفصيلات التالية تعليقاً على الحقائق التي وردت بصورة مقتضبة في تقرير السيد اتنكار لتنوير القراءولفت انظارهم الى طبيعة هذه الدسائس وقدر تأثيرها :

بعد أن اعطي الامتياز التركي في سنة ١٩١٣ علمت المصالح الكيميائية البريطانية بهذا التهديد لكيانها العالمي وانه اذا كانت الحقائق الواردة عن الثروة الكيميائية والمعدنية في البحر الميت حقيقية الى هذه الدرجة فان المصالح الكيميائية البريطانية سوف لا تستطيع الاستمرار في جني المرابح العظيمة إلا انه قبل ان تستطيع هذه المصالح البريطانية اتخاذ اي تدبير بمسألة البحر الميت هذه نشبت الحرب العالمية الاولى وخلال سني ١٩١٤ ، ١٥ ، ١٦ و ١٧ لم تستطع أن تقوم بأى عمل تجاه البحر الميت إذ كانت فلسطين في ذلك الحين لاتزال تحت احتلال الجيش التركي . ورغم ذلك فقد رسمت تلك المصالح الكيميائية البريطانية خطتها للمستقبل وأول هذه الخطة أن السير ألفرد موند اليهودي الالماني الذي أسس الصناعات الكيميائية الامبراطوريةالتي كانت تتحكم بالعالم الكيميائي إتفق مع الدكتور حاييم وايزمان وبموجب ذلك الاتفاق تمكن المصالح الكيميائية البريطانية أن تتحكم بالبحر الميت وعدا عن ذلك فقد اتفق السير موند مع الدكتور وايزمن على دعم الحركة الصهيونية مالياً لانشاء دولة يهودية في فلسطين بشرط أن تمنح هذه الدولة اليهودية السير الفرد موند امتياز استخراج المواد الكيميائية والمعدنية من البحر الميت . ولتتمكن الحكومة البريطانية من بناء اساس لهذه المؤامرة أصدرت وعد بلفور الذي ينص حسب بنوده الاصلية على انشاء دولة يهودية حاكمة في فلسطين . الا أن اليهود الذين كانوا ضد فكرة انشاء دولة يهودية في فلسطين أو في اي مكان آخر هاجموا هذا القرار بشدة في جميع انحاء العالم وليتمكن

السير الفرد موند والدكتور وايزمان من اتمام مؤامرتهما اتفقا على ما يدعى الآن بوعد بلفور الصادر في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ .

وكان القصد من وعد بلفور هذا (بصيغته الجديدة) أن يصبح اساساً لتجديد المؤامرة في المستقبل لبناء دولة يهودية في فلسطين وكان السير الفرد موند يدعم الحركة الصهيونية واصبح الدكتور وايزمن دكتاتوراً عالمياً لجميع المنظمات الصهيونية .

وسارت الأمور كلها حسب خطط تلك المؤامرة الى أن ظهر هتلر على المسرح . وبعد ظهور هتلر استطاع الصهيونيون ان يحصلوا على مئات الملايين من الدولارات من اخوانهم في الدين في جميع أنحاء المعمورة ولم يعودوا بعد ذلك بحاجة الى المساعدة المالية من المصالح الكيميائية البريطانية .

وأخذ الصهيونيون يستصرخون العالم لجمع الأموال لانقاذ اخوانهم في الدين من طغيان هتلر ، وكان ان استجاب العالم بأسره لهذه الصرخات فتجمع لدى الحركة الصهيونية مئات الملايين من الدولارات . ولما وجد يهود الخزر الذين كانوا يؤلفون اكثرية الحركة الصهيونية ان لديهم تلك الأموال العظيمة قرروا أنهم غنى عن المساعدة الماليه من المصالح الكيميائية البريطانية ولذلك جردوا الدكتور وايزمن من نفوذه وقرروا ان يصبحوا انفسهم سادة مصيرهم . فقد كان الدكتور وايزمن كيميائياً ورفيقاً للسير ألفرد موند ووكيلاً للمصالح البريطانية الكيميائية لتنفيذ المؤامرة مع الصهيونيين للاستيلاء على ثروة البحر الميت .

ان اليهود من الاصل الخزري يرون اليوم امكانية قيام الدولة اليهودية بواسطة الثروة الكيميائية والمعدنية في البحر الميت البالغ قيمتها خمسة ترليون دولار دون أي حاجة تربطهم بالاعتراف بالتعهد للمصالح الكيميائية البريطانية ، وهـذا هو السبب الرئيسي الذي فصم عرى الصداقة التي كانت تربط الصهيونيين بالبريطانيين . ويفكر الصهيونيون باستخدام الخمسة ترليون دولار لاقامة دولتهم في فلسطين وتنمية قواها في المستقبل .

'ما اسم الشخص البريطاني الذي حصل على الامتياز التركي سنة ١٩٣٢ فهو السيد

متلاند ادواردس . ولقد اتبع ادواردس جميع الخطط الممكنة للحصول على الاعتراف بالامتياز التركي الذي تسلمه، وتآمر السير الفرد موند بواسطة وكلائه إما للحصول على الامتياز التركي من السيد ادواردس بشروطه الخاصة او القضاء على قيمة هذا الامتياز . وقد انفق السيد ادواردس مبالغ طائلة لتثبيت حقوقه القانونية كمالك للامتياز التركي واستخدم السير الفردموند طرقاً غير شرعية فريدة في نوعها لمحاولة القضاء على قيمة الامتياز التركي . وقد نشر السيد ادواردس عدة مذكرات وعممها عن موضوع الامتياز التركي الا ان القوى الصهيونية السرية الخبيثة المرتبطة مع المصالح البريطانية الكيميائية قضت على كل محاولة لاحضار المجرمين المسؤولين من هذه الاعمال الدنيئة المتعلقة بالبحر الميت أمام العدالة .

والحقائق الموجودة في هذه المذكرات لا يمكن دحضها الاان الحكومة البريطانية منحت امتياز استخراج المواد الكيميائية والمعدنية من البحر الميت الى شركة البوتاس لمدة ٧٥ عاماً وهي شركة يملكها الصهيونيون والمصالح الكيميائية البريطانية، واحد نصوص الامتياز يخول هذه الشركة منع أي شركة أخرى من الحصول على أي امتياز آخر في البحر الميت .

وهناك نقطة أخلاقية عدا عن النقطة القانونية وذلك ان نصوص جمعية الامم السابقة جعلت الحكومة البريطانية وصية على سكان فلسطين وان على هذه الوصية مسؤولية مقدسة اذ ان جميع الاعمال التي تقوم بها الدولة المنتدبة يجب ان تعود بالخير على اولئك السكان الذين سلم مستقبلهم ومقدراتهم الى مثل هذه الدولة المنتدبة . الا ان الانتداب البريطاني نقض هذه المسؤولية الأخلاقية والقانونية ومنح الامتياز لشركة البوتاس غير آبه للامانة والشرف لاستخراج ثروة الخمسة آلاف مليار دولار من البحر الميت لنفسها فقط . وكان يجب ان يعود اي امتياز يمنحه الانتداب البريطاني بالخير على سكان فلسطين ورغم ذلك فان الانتداب البريطاني في فلسطين منح هذا الامتياز لشركة البوتاس التي كانت شركة للحكومة البريطانية فيها فوائد مالية. وهذا العمل القذر عندما يكشف أمره كشفاً كاملا سيكون من أسوء المعاملات الدولية في تاريخ العالم .

ومما يجب ملاحظته ان المرأ يشاهد في لائحة ادارة شركة البوتاس اسماء الايرل لتون واللورد كلنكنر وارنست وليام دال — ريمبل — بنيت فهؤلاء المديرون الثلاثة يمثلون المصالح الكيميائية البريطانية وكثيرون منهم مديرون أيضاً في الصناعات الكيميائية البريطانية.

أما السيد نوفونسكي فيمثل الصهيونيين على اللائحة ؛ وعلى تلك اللائحة أيضاً تظهر اسماء اخرى مثل اسرائيل بنجامين برودي وجولياس سيمون وروبرت زولط وهم ثلاثة من أشهر الصهيونيين واكثرهم فعالية في الولايات المتحدة. ومن الطريف ذكر ما يلي وهو ان أحد محامي الشركة المسمى السيد ناثان كان عضواً في الوزارة البريطانية ويشغل منصباً هاماً في وزارة الحربية ؟؟!!.

والخلاصة ان في الولايات المتحدة بنوك وشركات اقتصادية لتمويل المشاريع الفلسطينية يديرها رجال مثل فاربورغ وغيره ممن يمثلون في الحقيقة حكومة الولايات المتحدة بصورة مستتره وهذه الشركات والبنوك ترغب في اقامة دولة يهودية في فلسطين ترعى مصالحهم الاقتصادية في البحر الميت .

ولنرى أهمية ثروة البحر الميت يكفي فقط ان نقتطف من التقرير السنوي الذي اصدرته شركة البوتاس في ١٩ تشرين الثاني سنة ١٩٤٥ الى المشتركين ما يلي :

يمكن الآن القول بأنه منذ سقوط دنكرك في عام ١٩٤٠ وشركتكم تصدر معظم البوتاس الذي تحتاجه المملكة المتحدة ورابطة الشعوب البريطانيه وكذلك معظم البروم المستعمل في المملكة المتحدة لغايات صيدلية ولاستحضار بروم المتيل الذي من خصائصه اطفاء النيران والذي كانت تستخدمه جميع الطائرات البريطانية في المدة الواقعة بين سنة ١٩٤٠ و سنة ١٩٤٢ . وقد صدرت شركتكم (الخطاب للمساهمين) ٧٠ ٪ من جميع الواردات للمملكة المتحدة من مادة كلور البوتاسيوم و ٨٠ ٪ من حاصلات البروم اما في سنة ١٩٤١ فقد صدرت شركتكم ٨٤ ٪ من مادة كلور البوتاسيوم و ٩٩ ٪ من البروم .

ومن هذا نرى ان ثروة البحر الميت على غاية من الأهمية وكايضاح آخر نذكر انه مما يجب ملاحظته ان في سنة ١٩٢٥ اصدر وكلاء التاج للمستعمرات البريطانية نشرة

بالنيابة عن حكومة فلسطين عنوانها استحضار المواد المعدنية من مياه البحر الميت وقد ورد في الصفحة الثانية من هذه النشرة ما يلي :

نرى من الارقام السابقة ان كميات الأملاح في البحر الميت هي على وجه التقريب كما يلي :

كلور البوتاسيوم	٢٠٠٠	مليون طن
بروم الماغنيزيوم	٩٨٠	« «
كلور السوديوم	١١٠٠٠٠	« «
كلور الماغنيزيوم	٢٢٠٠٠	« «
كلور الكالسيوم	٦٠٠٠	« «

ان هذه الكميات من البوتاس لاينضب معينها من الوجهة العملية والبوتاس بحد ذاته من الاسمدة المهمة جداً في العالم . فهذه الكميات الهائلة من البوتاس لها قيمتها العظيمة أما قيمتها النقدية فأمر ثانوي نسبةً لقيمتها كمادة منتجة للطعام الى هذا العالم الجائع .

أما المواد الكيميائية الأخرى فهي من أهم المواد المستعملة في الصناعة الآن وقيمة هذه المواد الكيميائية والمعدنية تزيد بالحقيقة بكثير عن الخمسة ترليون دولار وقيمتها العظمى هي اهميتها في توفير السعادة والتقدم في هذا العالم . واذا انشأ الصهيونيون دولة يهودية في فلسطين واستخدموا هذه الثروة لتوطيد كيانهم الدولي فسيستخرجون المواد الكيميائية من البحر الميت بمعدل يزيد عن ١٠٠ مرة أو ربما ألف مرة عن المعدل الحالي الذي تم في ظروف عدم الاستقرار السياسي في فلسطين .

وقد كان الصهيونيون اذكياء اذ أخفوا على العالم اهتمامهم بهذه الثروة الطائلة وتأكد الصهيونيون انه إذا علم العالم بقصدهم الرئيسي واهتمامهم بالثروة الكيميائية في البحر الميت فانه لايمكنهم ان يحصلوا على المساعدة المالية والاقتصادية والسياسية والأدبية من الديمقراطيات المسيحية في نضالهم لفتح فلسطين . وهناك الآن أدلة قاطعة على حقيقة سوء نية القيادة اليهودية السرية الخبيثة برغبتها في انشاء دولة يهودية في فلسطين ليست

كملجأ لبضع مئات الآلاف من اخوانهم في الدين في شرقي اوربا وانما ليتحكموا بأعظم ثروة تمركزت في بقعة واحدة من العالم . ولنقدر الحالة في فلسطين يجب أن نفهم تماماً الروابط الخفية بين يهود مدينة نيويورك الذين كانوا يهتمون بفلسطين كمصدر ربح لهم وبين القيادة العليا الصهيونية السرية الخبيثة التي تتعاون مع هؤلاء لخلق دولة يهودية في فلسطين .

ويمكننا ايضاً البرهنة على تلك الروابط الخفية بين المصالح الكيميائية البريطانية وبين الصهيونيين تلك المصالح التي انتجت وعد بلفور .

ولفهم ماحدث في فلسطين فهماً تاماً يجب علينا ايضاً أن ندقق تماماً في الروابط الخفية بين المصالح الكيميائية البريطانية وبين الحكومة البريطانية التي تعاونت مع الصهيونيين في تهيئة الانتداب على فلسطين . ولا يمكن أن يكون هناك اي سؤال أو ادنى شك في أن طموح هؤلاء الاشخاص البعيدين عن الشرف والامانة والمحبين للذات هو الذي رسم الخطة لسرقة فلسطين من اصحابها الشرعيين . ويجب أن يكون واضحاً لأي كان انه كانت هناك مؤامرة لاخفاء اهمية الثروة المعدنية والكيميائية في البحر الميت في جميع التحقيقات والاجراءات التي اتخذت في حوادث القلاقل التي كانت تقع في فلسطين .

فقد كان عدد اللجان التي قدمت خلال الثلاثين سنة المنصرمة الى فلسطين للتحقيق في أسباب الاضطرابات ١٨ لجنة . ولو انه كانت لدى تلك اللجان الشجاعة لاظهار الحقيقة للعالم لكانت صُححت الوضعية الفلسطينية الشاذة من تلقاء نفسها حالاً . إلا انه كان ضرورياً اخفاء الخمسة ترليون دولار الكامنة في مواد البحر الميت الكيميائية عن أعين الرأي العام والهيئات الرسمية ليتولد في فكر الرأي العام العالمي الاعتقاد بان الحركة بانشاء دولة يهودية في فلسطين انما هي لارجاع شعب مضطهد نزلت به الكوارث الى ارض آبائه القدماء .

❀❀❀

رئاسة الوزراء

في الفقه الدستوري المقارن (١)

للاستاذ الدكتور منير العجلاني

سادتي :

احب ان اقدم اليكم شيئاً من أخبار الوزارة في تاريخنا القديم ، قبل ان انقلكم الى عالم الغرب ، الى انكلترا وامريكا وسويسرة وايتاليا ، واني لاعرف انكم تدارستم هذه الاخبار في المدارس الثانوية ولكنها توطئة لابد منها !

الوزارة في اللغة العربية :

جاء في معلمة الاسلام : « ان كلمة الوزير فارسية ، ومعناها الحاكم والمقرر ، وقد أخذ العرب هذا اللقب عن ملوك ساسان ، ثم عاد الفرس ، في تاريخهم الحديث ، فأخذوه عن العرب ، وهم يظنونه عربياً » .

اما فقهاؤنا القدامى فيجمعون على ان كلمة وزير عربية ، وهي عندهم مشتقة من الوزر ، بكسر الواو ، لان الوزير يتحمل من الملك اوزاره واثقاله .. او من الازر وهو الظهر ، لان الملك يقوى بوزيره كقوة البدن بظهره ، أو من الوَزَر اي الملجأ لان الملك يلجأ الى رأيه ومعونته ، والوزارة ، هي الوزارة بالفتح او الوزارة بالكسر ، والوزير يجمع على وزراء ، وأوزار — وهذه الصيغة الاخيرة اهملت تماماً لانها تذكر الناس بالجرائم والآثام .

ومهما يكن الامر ، فان كلمة الوزير قديمة ، عرفها العرب في جاهليتهم بمعنى المعين والمشير ، واستعملها القرآن ، ففي سورة طه يخاطب موسى ربه قائلا :

---

(١) ألقيت على مدرج الجامعة السورية الكبير مساء الاربعاء في ١٩٥٠/٢/٢٢

« ...واجعل لي وزيراً من اهلي ، هرون أخي ، اشدد به ازري ، واشركه في امري »

وحدة الوزارة

ظهرت الوزارة في العهد العباسي ، وكان للخليفة وزير واحد ، ولم يعرف تعدد الوزراء الا في بلاد الاندلس .

قال ابن خلدون : « اما دولة بني امية في الاندلس ، فأنفوا اسم الوزير في مدلوله اول الدولة ، ثم قسموا خطته اصنافاً ، وافردوا لكل صنف وزيراً ، فجعلوا لحسبان المال وزيراً ، وللترسيل وزيراً ، وللنظر في احوال الثغور وزيراً ، وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم ، وينفذون امر السلطان هناك ، كل فيما جعل له ، وافرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ، ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت ، فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم « الحاجب » ولم يزل الشأن هذا الى آخر دولتهم ، فارتفعت خطة الحاجب على سائر الرتب » .

عظمة الوزارة ... وحقارتها !

كان الخليفة ، هو وحده ، صاحب السلطان . اما الوزير فوكيل عنه ، ان شاء فوضه واطلقه ، وان شاء قيده وغلله وليس بين ان يكون الوزير في موضع الثقة وبين ان يكون في موضع الغضب الا ما بين غمضة عين وانتباهتها .

قال الجهشياري في كتاب الوزراء والكتاب :

لما تقلد هارون الرشيد الخلافة دعا يحي بن خالد البرمكي ، وكان استاذه فقال له :

(يا ابة ، انت اجلستني هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك وقد قلدتك امر الرعية ، واخرجته من عنقي اليك فاحكم بما ترى ، واستعمل من شئت ، واعزل من شئت ، وافرض لمن رأيت فاني غير ناظر معك في شيء) .

وهكذا كان حال جعفر ، حتى قيل : ان الخلافة على حقيقتها كانت له دون هارون الرشيد !

قال رجل عاش في زمن هارون : دخلت الديوان (اي وزارة المالية) فنظرت في السجل : اربعمائة الف دينار ثمن خلعة لجعفر !

ثم دخلت في اليوم التالي فوجدت عشرة دراهم ثمن نفط وبواري لاحراق جثة جعفر !

خوف الوزراء :

كان الوزراء يعيشون دائماً في ظل الخوف ، مهما يكن موضعهم من الخليفة ، لانهم يخافون السعاة والحساد وتغير قلب الخليفة عليهم . خذوا مثلا ابا ايوب المورياني ، استوزر للمنصور ، واخلص له ، وكان المنصور عظيم الثقة به ، مثنياً عليه ، راضياً عنه ، حتى قالت العامة : ان أبا ايوب قد سحر المنصور ! بل زعموا انه كان يتخذ دهناً يمسحه على وجهه كلما اراد الدخول على الخليفة ، وضرب المثل بدهن أبي ايوب !

كان ابو ايوب يوماً في داره ، وعنده فريق من اصحابه ، فدخل عليه رسول المنصور ، فتغير لونه ، فسألوه عن خوفه ، فذكر لهم قصة الديك والبازي :

تعجب البازي من الديك ، لايدنو منه انسان حتى يطير ويصيح ويصوت !

فقال له : لو قلدتني في هدوئي !

فأجابه الديك : لو رأيت في سفافيدهم — التي يشوى فيها اللحم — من البزاة مثل الذي رأيت انا فيها من الديكة ، كنت شراً مني !

واردف المورياني ، يقول : وانتم .. لو كنتم تعلمون ما اعلمه ، لم تتعجبوا من خوفي ، مع ماترون من سلطاني ! !

هكذا كان الوزراء يعيشون ...

وكان عزل الوزراء في اواخر العهد العباسي يرافقه دائماً القتل والتمثيل والحبس والمصادرة .

حتى أن ابا شجاع ، وزير المقتدي ، لما عزل ، وعاد الى داره حياً لم يحبس ، ولم يصادر قال ابن طباطبا : « لقد خرج توقيع المقتدي بعزله ، على حالة جميلة ، لم يصرف بمثلها وزير » !!

القاب الوزراء

يقال ان المهدي اول من اطلق على وزيره لقباً ، فلقب يعقوب بن داود (الاخ في الله) ولم يشتهر هذا اللقب .

وجاء المأمون فلقب وزيره الفضل بن سهل ، ذا الكفاتين ، ولقب الحسن بن سهل بعده ، ذا الرياستين ، لانه جمع بين السيف والقلم ...

ثم ظهرت الالقاب الفخمة في اواخر العهد العباسي وفي الدولة الفاطمية .. وكانت الالقاب — كما قال آدم متز — تتعاظم ، حين تتضاءل الحقائق .

خلع جلال الدولة ببغداد على وزيره ولقبه : (علم الدين ، سعد الدولة ، امين الملة شرف الملك .. الى آخره ..) .

وكان الفاطميون يلقبون وزيرهم : (وزير الوزراء ، قسيم الامامة ، ظهير الامة ، خليل امير المؤمنين) . بل لقب بعضهم بالقاب الملك ، فكان لقب رضوان ، وزير الحافظ لدين الله :

السيد الاجل والملك الافضل !

وهذه الالقاب كلها تجتمع معاً !

ولا يزال شيء من هذا في الشرق ففي مصر يطلق على رئيس الوزراء لقب : صاحب المقام الرفيع !!

وعندنا : صاحب الدولة !

وفي العراق : صاحب الفخامة !

اما في اوربا فقد الغيت الالقاب الا في المراسم الدبلوماسية فيخاطب رئيس الوزراء والوزراء بلقب واحد وهو الذي ترجمناه بكلمة « معالي » ومع ذلك فان رئيس الجمهورية الافرنسي نفسه قد يخاطب باسم « السيد » .. فقط !

الملابس

كان الوزراء يلبسون كما يلبس الناس الا في الدولة الفاطمية .

وفي القلقشندي ان السواد هو لباس الوزراء الدائم .

(وهو اليوم اللباس الرسمي في اوربا — فهل اخذوه في بروتوكولاتهم عن العباسيين ؟)

وكانت للوزراء ملابس مخصوصة ، تشبه ملابس العدول ، وينفردون بلبس ثياب قصار ، يقال لها الذراريع ، واحدتها ذراعة ، وهي مشقوقة امام وجهه الى قريب من رأس الفؤاد ، بازرار تكون من ذهب او من لؤلؤ ...

اما في الحفلات الرسمية ، فيلبس الوزير جبة ومعه سيف بمنطقة !

وكان الاتراك يجعلون لرئيس مجلس الوزراء ملابس خاصة ، بالغة الفخامة .

الرواتب :

لانعرف ما هي رواتب الوزراء ، واغلب الظن ان الخليفة كان يعطيهم ما يكفيهم ، وهم يعيشون من هداياه . وفي آخر العهد العباسي ، كانت الوزارة تضمن على اسلوب الضمانات او الالتزامات البلدية في الوقت الحاضر .

قال آدم متز ..

لما مات الصاحب بن عباد ، وقعت مساومة شائنة حول منصب الوزارة ، فقد ارسل احد الولاة يخطبها ويضمن ثمانية ملايين درهم ... فبذل الوزير الذي كان في الوزارة اذ ذاك ستة ملايين درهم على اقراره .. فاشرك السلطان فخر الدولة بينهما في الوزارة وجمع بينهما في النظر ، ورتب امرهما على ان يجلسا في دست واحد .. وكانا يتقارعان على من يخرج لقيادة الجيوش ، ثم سعت بينهما السعاة ، ودبر احدهما للآخر فقتله .

ويذكر لنا المقريزي ان الفاطميين كانوا يعطون وزراءهم :

٢٥٠٠ دينار راتباً

٥٠٠ دينار للخدمة (نفقات تمثيل) وكانوا يرتبون لهم جراية من الابقار والجمال ورؤوس الاغنام والاحطاب والتوابل الخ ... لمطابخهم !

رئاسة الوزراء في الفقه المقارن :

ما أعظم (اللقب) وما أحقره ! . .

وما ابين دلالته وما أخفاها ! . .

نقول : (فلان) رئيس الوزراء نعرفه بذلك الناس ، ونحن في الواقع ،لانعرفه او نعرفه بمقدار . . فقد يكون رئيساً قوي السلطان وقد يكون ضعيفه قد يحكم كل

وزرائه ، وقد يحكمه كل وزرائه ، قد يكون أسير المجلس النيابي وقد يكون المجلس أسيره ، قد يكون أعقل الناس واعرفهم بأمورهم وقد يكون غمراً بليداً ، قد يعطيه الدستور قوة وهو خامل النفس لايستعملهافهو ضعيف،وقد يسلبه الدستور القوة،ولكنه شجاع مقدام يأخذ بقوة ذكائه ودهائه اكثر مما أعطي فهو قوي .. فاذا قلنا : فلان رئيس الوزراء ، فاننا « نلقبه » ولكننا لا نعرفه ، وانا احذركم من اللقب !

— اللقب يسحر . . ويسخر !

سادتي :

نظم الامم الكبرى أربعة :

١) نظام مجلسي ، يسيطر فيه المجلس على كل شيء ، ورئيس الوزراء آلة في يد المجلس .

٢) نظام ديكتاتوري ، يسيطر فيه رئيس الوزراء على كل شيء ، والمجلس آلة في يده .

٣) نظام رئيسي ، يملك فيه الرئيس سلطان التنفيذ ، ويملك فيه المجلس سلطة التشريع ، وكل مستقل في ميدانه !

٤) نظام برلماني ، يتعاون فيه المجلس والسلطة التنفيذية ويتداخلان ، ويحد كل من سلطة الآخر ، والدساتير هنا مختلفة ، فمنها ما يقوي رئيس الدولة ومنها ما يقوي رئيس الوزراء .

رئيس الوزراء في النظام الديكتاتوري :

في النظام الديكتاتوري ، في الفاشيستية مثلا ، يختفي اسم رئيس الوزراء في الصحف وفي أحاديث الجمهور « ويبرز لقب الزعيم ، او الزعيم الرئيس ، او الزعيم المستشار ! قد يكون في الديكتاتورية ملك او رئيس جمهورية فوق رئيس الوزراء ، ولكن رئيس الوزراء هو كل شيء ! لم يكن ملك ايطاليا شيئاً مذكوراً ، اما الدوتشي موسوليني ، رئيس الوزراء ، فكان سيد ايطاليا ، هو الذي يحكم ، اما الوزراء فهم بين يديه كالكتاب ! اما المجلس النيابي ، فأعضاؤه هم اعضاء الحزب ، الذين يؤلهون

الدوتشي ، فكيف يراقبونه او يعاتبونه او يخذلونه ؟!.

لاتقوم الفاشيستية على ارادة الشعب ، وانما تقوم على ارادة الاقلية الواعية ، لان الاقلية الواعية تعرف ما يفيد الشعب وما يضره اكثر من الشعب نفسه ، والدوتشي انما يحكم بفضل هذه الاقلية التي تهيمن على الشعب ذلك لأن الدوتشي يسيطر عليها ، ومن ورائها .. يسيطر على الشعب !.

رئيس الوزراء في النظام المجلسي :

خير مثال للبلاد التي تطبق النظام المجلسي : سويسرة ، ورئيس الوزراء هناك يسمى : « رئيس المجلس الاتحادي » وهو يجمع الى ذلك رئاسة الدولة ، فهو اذن رئيس جمهورية ورئيس حكومة في وقت واحد ، ولكن سلطانه محدود جداً لان مجلس النواب هو الذي ينتخبه وينتخب له وزراءه ، وهم جميعاً مكلفون بان ينفذوا الاوامر التي تصدر اليهم عن المجلس ، حرفاً بحرف .. من غير جدل ... وليس لهم على المجلس اي سلطان ، ومتى انتهت مدة المجلس ، انتهت مدتهم هم ايضاً .

رئيس الوزراء في النظام الرئيسي

في النظام الرئيسي — المطبق في الولايات المتحدة ، مثلا — يقوم الرئيس الاميركي باعباء السلطة التنفيذية ، فهو اذن رئيس الدولة ورئيس الوزراء ، مثله في ذلك مثل الرئيس السويسري ، ولكن رئيس سويسرة يضرب به المثل في الضعف ، والرئيس الاميركي يضرب مثلا للقوة ! وسر ذلك ان رئيس امريكا ينتخبه الشعب « بطرق مخصوصة » فهو لايستمد سلطانه من السلطة التشريعية « الكونغرس » ولا يخضع اليها ، وبينه وبين السلطة التنفيذية ، التي يمثلها البرلمان ، انفصال تام .

يختار الرئيس الامريكي وزراءه كما يريد ، ويسلم كل واحد منهم الوزارة التي يريد ، وهو وحده يستطيع ان يعزلهم ، متى شاء ، فالوزراء — وهم هناك يسمون امناء الدولة — ليسوا مسؤولين الا امامه !

ليس في امريكا مجلس وزراء ، والامناء ... « موظفون » خاضعون للرئيس ! يسمي الرئيس كبار الموظفين (بعد موافقة مجلس الشيوخ) ، وهو الذى يعقد المعاهدات وهو الذي يسمي الوزراء المفوضين ويدير السياسة الخارجية وبالجملة فهو « صاحب

السلطة التنفيذية » وقد يخيل الينا انه « ديكتاتور » مستبد ، ولكن (بريس) يحذرنا من التورط بهذا الخطأ ، لان الرأي العام الامريكي لايدعه يستبد ، والرأي العام في امريكا قوة لاتقاوم .

يريد كثير من الناس ، هنا ، ان يقلدوا امريكا ، ولكن النظام الامريكي لا يعيش الا في امريكا ، وهو يصبح في اي امة أخرى نوعاً من الاستبداد لا حد له ! ولنقل ، مع بعض المؤلفين « ان النظام الرئيسي في امريكا ليس بضاعة للتصدير » !

رئيس الوزراء في النظام البرلماني :

ليس بين الصور السابقة مايشبه رئاسة الوزراء عندنا ! ذلك اننا نعيش في ظلال النظام البرلماني ، وقد اخذه العالم عن انكلترا ، ولم يأخذه عن سويسرة وامريكاوايتاليا.

ماهي حقوق رئيس الوزراء في انكلترة ؟

ان تاريخ الوزارة في بريطانيا العظمى طويل جداً ، ولم تصل الوزارة الى شكلها الحاضر ، الا بعد ثورات ، ومعارك سلمية ، لاتحصى ، قامت بين الملك وبين البرلمان والوزراء ، ويسمى رئيس الوزراء عند الانكليز : الوزير الاول .

يختلف الفقهاء الانكليز في تحديد السنة التي عرف فيها لقب الوزير الاول ، ويتفق اكثرهم على ان « والبول » هو الذي يستحق ان يسمى اول وزير اول في انكلترا !..

والفضل في ذلك للمصادفات !

ففي عام ١٧٢١ انتقل التاج البريطاني الى اسرة (هانوفر) ، ونودي بجورج الاول ملكا على بريطانيا العظمى ، وهو ألماني يجهل اللغة الانكليزية ، ولا يستطيع حضور مجلس الوزراء ، فاضطر الى الاستعانة بوزير ينوب عنه ، ويتردد بينه وبين الوزراء ، فأخذت سلطة هذا الوزير تتعاظم ، حتى اطلق عليه لقب الوزير الاول !

بقي والبول في الوزارة ، احدى وعشرين سنة ! واخيراً مله الناس ، فأرادوا ذهابه ، وشيعوا انه سيسجن في برج « لندن » ، فاستأجر الناس شرفات المنازل القائمة على جوانب الطرق التي تؤدي الى البرج ... ولكنه لم يعتزل .. واخيراً انقلب عليه

مجلس العموم وصوت ضد مشاريعه ، مع انه كان يرشوه ، فلم يستقل باديء بدء ، ثم استقال .. وبذلك نشأت سابقة استقالة الوزارة ، بسبب حجب الثقة عنها في المجلس !

بعد استقالة والبول حاول الملك ان يعين الوزراء ، فقاومه حزب الاحرار ، ولما ولي « بت » الوزارة ، عرض على مستر « دندس » الدخول معه في الوزارة فقال له : « بشرط ان نكون وزراء متساوين ! » ، فلم يشأ « بت » ان يوافقه على ذلك !

وخالف وزير العدل سياسة (بت) وقاوم في المجلس مشروع قانون مالي قدمته الحكومة ، فأقاله «بت» من الوزارة ، وبذلك اثبت للرئيس رجحاناً بيناً على الوزراء ، لانه هو الذي يقيلهم ، فهم اذن تابعون له ، ولكن رئيس الوزراء لا يسرف في استعمال هذا السلطان !

يقول المؤلف انش : اذا اردنا ان نعرف الفرق بين الوزير الاول وبين سائر الوزراء ، فحسبنا ان نقول في انفسنا : ان الوزير الاول متى استقال ، اعتبرت الوزارة كلها مستقيلة . اما احد الوزراء فقد يستقيل ، فتبقى الوزارة !!

مصير الوزارة مرتبط بمصير رئيسها ، وهو الذي عينها ، فليس عجيباً ان يكون للوزير الاول رجحان على زملائه .

لقد اقرت له القوانين والتقاليد هذا الرجحان ، فالنطق الملكي الصادر عام ١٩٠٥ يجعل مقامه في التشريفات والمراسم بعد رئيس كنيسة يورك .

وراتبه عشرة آلاف جنيه ، اما راتب الوزير فيختلف بين وزير ووزير ، وحده الادنى ١٥٠٠ والاعلى ٥٠٠٠

وهو يسكن في دوننغ ستريت رقم (١٠) ، الدار التي وهبها الملك جورج الثاني للوزير الاول « والبول » ، فلم يتملكها وجعلها وقفاً على رؤساء الوزارات .

كان يقال عن الوزير الاول ، انه وزير كسائر الوزراء ، ولكنه الوزير الاول بين وزراء اكفاء ! أما الواقع فهو ان رئيس الوزراء يرجح زملاءه كثيراً في النظام الانكليزي حتى قال سيركس :

(انتقلت السلطة من الملك الى مجلس العموم ، ثم انتقل اكثرها من مجلس العموم الى الوزارة ، ومن الوزارة الى الوزير الاول) .

الوزير الاول يختار الوزراء ، ويقيلهم ، ويترأس مجلس الوزراء ، ويتردد بين الوزارة والملك ، ويراقب اعمال زملائه الوزراء ، ويساعدهم في المجلس ، ويطرح الثقة وهو الذي اوكل اليه تعين رجال الدين واللوردات ، وحملة القاب الشرف وبالجملة كل تسمية جديدة انيطت بالتاج . وكل المسائل تعرض عليه قبل مناقشتها في مجلس الوزارة ولا يتخذ وزير قراراً خطيراً قبل استشارته فيه وله حق الاشراف على سياسة وزير الخارجية اشرافاً قوياً . طلب الزعيم المجري كوست من وزير الخارجية (بالمرستون) ان يأذن له بزيارته فبلغ ذلك الوزير الاول اللورد (رسل) ، فكتب الى وزير الخارجية : احذرك من استقباله . فأجابه الوزير : انا حر في استقبال من اريد في داري ، فرد عليه الوزير الاول : انت خادم الدولة ، والدولة تسأل عنك ولولا انك وزير للخارجية لم يطلب كوست زيارتك !

لايراقب الوزير احوال زملائه الوزراء وحدهم ، ولكنه يراقب ملك انكلترا نفسه ! وقد نذكر ان الوزير الاول (بيل) حمل ملكة انكلترا على طرد وصيفتين من وصيفاتها ، لانه كان غير راض عنهما ، وقد عرفت هذه الحادثة باسم « حجرة النوم » لانه تتبع الملكة حتى حجرة نومها ! والملك او الملكة لا تستطيع ان تتزوج الا بأذنه !

من الذي يسمي رئيس الوزراء ؟

الملك ! ولكن عمل الملك شكلي . لانه لا يستطيع ان يسمي لرئاسة الوزارة ، الا زعيم حزب الاكثرية في مجلس العموم ، وقد اصبح هذا من التقاليد الدستورية الراسخة .

اما الوزراء فيسميهم الوزير الاول ، وهو يطلع الملك على اسمائهم مجاملة ليس اكثر ... ولا يستطيع الملك الا ان يقر الوزراء الذين يختارهم الوزير الاول !

وبالجملة فان رئيس الوزراء في انكلترا هو الشخصية السياسية الاولى في الدولة ،

وقد يكتفي برئاسة الوزارة . وقد يشغل معها وزارة مخصوصة ، وقد قرأت في جريدة « الطان » ان رئيس الوزراء يشبه رئيس الجوقة الموسيقية ، فرئيس الجوقة اما ان يشترك مع جوقته في العزف على آلة مخصوصة ، واما ان يكتفي بتحريك عصاه ، ليوحد الانسجام فيما بينهم ، فاذا كانت الجوقة تحتاج في انسجامها الى عناء كبير ، فيحسن بالرئيس ان يكتفي بالرئاسة .وهذاما اخذ كل وزيرفي بريطانياالعظمى يدركه

سادتي :

تعرفون المثل الانكليزي المشهور ! الملك يسود ولكنه لايحكم !

والآن تستطيعون ان تقولوا : الملك يسود ؛ ولا يحكم ... ولكن رئيس الوزراء هو الذي يحكم !

❀❀❀

دور التربية
في توثيق الروابط بين العرب (١)

للاستاذ احمد شكري مهران

ان حديث الساعة بين العرب في مختلف أقطارهم هو توحيد كلمتهم والعمل على زيادة التقارب وتوثيق عرى الروابط بينهم. وما دفعهم الى تناول هذا الأمر في احاديثهم الا ما يشعرون به شعوراً ظاهراً او خفياً من عوامل تفرقهم بعد اتحاد وتنافرهم بعد اتفاق وانفصالهم بعد اتصال وانعدام الانسجام بينهم بعد تمتعهم بنعمة التكاتف والتآزر أجيالا طويلة في ماضيهم المجيد .

شعروا بذلك كله في ظروف هم أحوج ما يكونون فيها الى تعاون وثيق بين بعضهم البعض في جميع مرافق الحياة من سياسة واقتصاد وثقافة وغير ذلك . وقد أعيت رجالاتهم السبل والوسائل للوصول الى ذلك التعاون المنشود . وأدرك العرب جميعاً من حكام ومحكومين حرج ما هم فيه من ظروف وما يحيط بهم من مطامع وما يحدق بهم من أخطار فأصبحوا ولا حديث لهم الا الطريق الى جمع كلمتهم وتقوية الروابط بينهم .

وقد يجدون في أحاديثهم سنداً مما حبتهم به الطبيعة ومما أنبأهم به التاريخ من وحدة شاملة نتجت عن تجمعهم في منطقة واحدة من الأرض بعض أجزائها متشابه مع البعض الآخر الى حد كبير مما صهرهم في بوتقة واحدة وطبعهم بطابع واحد. ونتجت كذلك عن انتمائهم الى أصل واحد ورجوعهم في مجموعهم الى جنس يمتاز على غيره من الاجناس بقدر عظيم من الحيوية : ذلك هو الجنس السامي وفرعه الأعظم الفرع العربي . ونتجت أيضاً عن أنهم وجدوا أنفسهم يتكلمون لغة واحدة وجدت منذ زمن موغل في القدم. وهي وان اختلفت لهجاتها العامية الآن اصولها الصحيحة واحدة وستظل واحدة.

---

(١) ألقيت على مدرج الجامعة السورية الكبير مساء الاربعاء في ١/٣/٩٥٠

هذا الى ما أنبأهم به التاريخ من أن أحداث السياسة والحرب التي مرت بهم في العصور المختلفة تكاد تكون واحدة . وهي كذلك الى اليوم. ولم يخف عليهم بعدذلك كله ان اتحادهم في الوطن والجنس واللغة والتاريخ قد شمل أيضاً اتحادهم في الثقافة منذ القدم . ومن المعروف ان أهل الشام والعراق تذوقوا المعلقات التي جادت بها قرائح أهل شبه الجزيرة . وقد كان الشاعر ينطلق من نجد الى أحد البلدين فيجد من يفهمه. حتى اذا ما قدر للغة العربية ان تنتشر وتأخذ وضعها الراهن أصبح العرب جميعاً اليوم يطربون لشعر امرىء القيس وعنترة وبشار والمتنبي وغيرهم . وقد كان — ولا يزال — شأن الغناء كشأن الشعر : فالعرب في أقطارهم المختلفة يرددون الاغاني العربية القديمة والحديثة أياً كان مصدرها ويطربون لها طرباً واحداً تقريباً . ومن الأمور المشاهدة اليوم ان السوري مثلاً اذا تغنى بالاغاني الشعبية العراقية او المصرية لا يقل طربه عن طرب العراقي او المصري .

وما يقال عن الشعر والغناء يقال عن غيرهما من الآداب والعلوم والفنون التي عرفها العرب قديماً وحديثاً . ويقال أيضاً عن اللهو وعن الاعياد وعن سائر العادات المألوفة في الحياة اليومية .

يذكر القوم في أحاديثهم في سائر الاقطار العربية كل هذه الاسانيد الصحيحة عند ما يتحدثون عن وجوب زيادة الالفة والترابط بين العرب لصالح العرب مقتنعين في قرارة نفوسهم بأن ثمة وحدة متينة شاملة من نسج الطبيعة وحقائق الزمن ووقائع التاريخ قد لفت العرب جميعاً في الماضي ويجب ان تلفهم في الحاضر والمستقبل .

هذا هو صوت الماضي الذي تجد له صدى قوياً في نفوس القوم في الوقت الحاضر. وأعتقد أن هذا الصدى لم يخف طنينه في آذان الأمة العربية في مجموعها في يوم من الأيام . غير ان الكوارث التي حلت بها والحاح اعدائها وخصومها عليها الحاحاً مستمراً بالحروب والاستعمار قد خففت الى حين وقع هذا الصدى فغشيت العرب سنة من النوم او تخدروا بالوسائل الاستعمارية الغربية وغفلوا قليلا عما في صدورهم من قوى معنوية كامنة تجمع بينهم توحد كلمتهم. ويؤسفني ان أقول ان مثبطات الاستعمار

الغربي لا تزال الى اليوم توهن بثقلها العزائم العربية الفتية . ولهذه المثبطات من القوة والالحاح وسعة الحيلة ما يكفل له النجاح بين حين وآخر . وازاء هذه الحرب الباردة الناشبة بين الطرفين أعتقد أن كل عربي اليوم يدرك ضرورة التسلح لهـذه الحرب والاستعانة بكل ما يؤدي الى زيادة التقارب وتوثيق الارتباط بين كل دولة عربية أخرى.

ولقد كانت عظمة الأمة العربية في الماضي قائمة على أسس من الروابط المتينة التي ربطت بعض الاقطار العربية الى بعض. وبعض هذه الروابط مادي كالروابط العسكرية والسياسية والاقتصادية . ومثل هذه الروابط المادية كان من السهل على الاستعمار بوسائله المختلفة ان يقطع أوصالها . وأقام بذلك حواجز مصطنعة بين الاقطار العربية أدت الى التفكك الفعلي لهذا النوع من الروابط . ولن تعود سيرتها الأولى بجهود عادية أو في وقت قصير .

غير ان الاستعمار وطغيانه وجد صعوبات كثيرة في التغلب على نوع آخر من الصلات والروابط : تلك هي الروابط الروحية التي صمدت قرون عديدة في وجه الظلم والاستعباد وهي وان كبتت في فترات قسا فيها المستعمر واشتد طغيانه . الا أنها سرعان ما كانت تنفجر في فترات أخرى أقوى أثراً عما كانت من قبل .

واذا كانت الدعوة اليوم الى توثيق الروابط بين العرب يجب أن تشمل كل النواحي الممكنة من سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية وثقافية . غير ان الحديث في كل هذه النواحي قد لا يكون ذا قيمة او أثر الا اذا صدر عن رجال مختصين . فلنترك أمر السياسة للساسة وأمر العسكرية لرجالها وشأن الاقتصاد لأربابه ولنقتصر على الناحية الثقافية بمعناها العام الشامل باعتبارها من أعمق النواحي أثراً ومن أقلها صعوبات وعثرات ومن أعمها نتائج ومن اكثرها فوائد .

ويجب ان أشير هنا الى أنني مضطر الى الابتعاد قليلاً او كثيراً عن الحدود الحرفية لعنوان المحاضرة . فالعنوان هو دور التربية في توثيق الروابط بين العرب. ولا يمكن في الواقع الاقتصار على التربية وحدها في هذا الصدد دون ان يتناول الحديث الى جانبها كلا من الثقافة والتعليم . لأن هذه المفاهيم الثلاثة وثيقة الصلة ببعضها على الرغم مما

بينها من فروق . ولكل مفهوم منها على حدة كما أنها لها كلها مجتمعة مع بعضها دوراً هاماً في توثيق الروابط بين العرب .

فالثقافة ان توحدت بين أفراد شعب او عدة شعوب تمكن الناس من التشابه تشابهاً يعينها على العيش معاً في جماعة واحدة بحيث يفهم بعضهم بعضاً . واذا ما ظفر الناس بنوع من الثقافة المشتركة — او بعبارة أخرى — اذا ما ظفروا بموئل روحي خاص يسكنون اليه . وقد استطاعوا ان يحققوا شيئاً من التفاهم والتقارب بين بعضهم البعض . ومن المعروف قديماً وحديثاً ان الثقافة في الامم اذا غدت أصولها تقاربت عقولها . ولا يفرق شمل الامم ويمزق كيانها كاختلاف ثقافتها وتعدد أسسها وأصولها . فكأن وظيفة الاشتراك في الثقافة هي التماسك من الناحية الاجتماعية أي تماسك الناس في مجتمع أو في مجتمعات متقاربة . ثم هي كذلك أداة للتفاهم دون التعرض لخطر التنافر الناجم عن امتناع التفاهم . وهي من ناحية صلتها بالتربية الوسيلة التي يمكن بوساطتها ان الاستعدادات الفطرية التي تولد مع الفرد لاتصبح حقائق واقعة الا عن طريق تشرب الفرد للثقافة التي ولد بين ظهرانيها . وهو اذا ما أصبح يوماً ما شخصية فانما تكون شخصيته على الصورة التي تحددها ثقافة أمته .

والثقافة ليست الدعامة الاساسية لنهوض الامم فقط بل لعلها بحكم اتجاهها الى الروح مباشرة أقوى الدعائم التي يقوم عليها الشعور القومي والتماسك الاجتماعي. ورابطة القومية لا تقوم على وحدة جغرافية او جنسية او سياسية بقدر ما تقوم على وحدة سياسية توحد الافكار والمشاعر والغايات والمثل العليا وغيرها مما يتجلى في تاريخ الجماعة وآدابها وفنونها وسائر مقوماتها الثقافية .

واذا كان هذا الذي ذكر هو شأن الثقافة باعتبارها حقل واسع ينطوي على مفاهيم عديدة ويتناول أموراً شتى كالعقائد والعادات والنظم التي تنظم علاقات الافراد والروابط التي تربط بينهم وضروب التسلية والمتعة وكل الوان العلوم والفنون وغير ذلك. — أقول اذا كان هذا هو شأن الثقافة فهو أيضاً ضمناً شأن كل من التربية والتعليم . وهما اللبنات الاولى او هما من العوامل الأساسية المساعدة على توطيد أسس الثقافة ونشرها بين أفراد أمة

من الأمم . وحسبنا ما لهما من تأثير على مقررات الدول ومستقبلها لندرك أهميتهما وقيمتهما من التقارب بين الافراد والامم اذا اتحدت الاهداف او في التباعد والتنازع اذا تباينت الاهداف واختلفت . وها نحن نرى ان هيئة الامم المتحدة ـ وهي الهيئة التي شكلت في أعقاب الحرب العالمية الثانية للمحافظة على أمن العالم وسلامته ودرء أشباح الشر وأهوال الحرب عنه ـ قد رأت فيها رأت لتأدية رسالتها انشاء المنظمة الدولية العامة للتربية والعلوم والثقافة المعروفة باسم اليونسكو وتحاول هذه المنظمة تحقيق مهمتها عن طريق التربية والثقافة لتنشئة الاجيال الجديدة على حب السلام والحث على استخدام المواهب في خدمة الانسانية واسعادها . كما رأينا في الماضي القريب كيف كانت ألمانيا قبيل الحرب الاخيرة تبث في روح نشئها ان أمتهم خير الامم وأنها لا بد ان تسود العالم وتخضعه لقواتها الحربية وتلهب عواطفهم بالوطنية الحادة المتعصبة . وكيف كانت ايطاليا الفاشية تهدف في تربيتها وتعليمها الى ما يتقارب مع الأهداف النازية ، وكيف كان غيرهما من الدول يهدف في التربية والتعليم الى الديمقراطية الممزوجة بحب السيادة الوطنية او الخاضعة لنظم الرأسمالية. ومن الدول من كان يحاول عن طريقها نشر الشيوعية والتسوية بين الطبقات الى غير ذلك : وهذه كلها أهداف متنافرة كانت نتيجتها وجود فوارق كبيرة بين عقليات الشعوب التي لم تجد بداً من التنازع والتحارب .

ونظرة واحدة الى نظم التربية والتعليم وشؤون الثقافة في البلاد العربية في الوقت الحاضر تبين بوضوح مدى الفروق الكبيرة الموجودة بين كل بلد وآخر . فروق ليس لها ما يبررها من حاجات البلاد وأهلها . فروق كانت وليدة عوامل التمزيق والتفرقة والظروف السياسية والتيارات الاستعمارية التي كانت تختلف في النوع وفي الشدة من بلد الى بلد . فروق كان لها أثرها في اضعاف الرابطة التي ننشدها قوية متينة بين العرب. فروق دفعت المهتمين بشؤون الثقافـة والتربية والتعليم في مختلف الاقطار العربية الى التفكير في محاولة ايجاد تعاون ثقافي متين كخطوة أولى في سبيل إزالة الفروق المذكورة بصورة تدريجية وذلك بغية الوصول الى نظم تعليمية وأهداف تربوية متقاربـة ومتماثلة في جميع الدول العربية والانتهاء من ذلك الى تكوين ثقافة عربية موحدة .

وما أن تأهب المهتمون بهذا الأمر للعمل الجدي حتى اعترضتهم مشكلة كانت ولا تزال مثار جدل بين كتاب ومفكري العرب . وقد يكون لهذه المشكلة بعض الأثر في تعثر خطوات التقارب التربوي والثقافي بين الاقطار العربية — تلك المشكلة هي النتيجة التي نصبو اليها في النهاية . وهل يكفي ان نصل الى مجرد التقارب الثقافي والارتباط التربوي مع احتفاظ كل قطر بحريته المطلقة في العمل ؟ أو بعبارة أخرى هل يجب ان يكون الهدف هو نوع من التعاون الثقافي الحر بلا قيد ولا شرط ؟ أم لا بد من الوصول في النهاية الى توحيد الثقافة العربية على أسس وأصول واحدة ؟

لقد اختلف المفكرون والكتاب في مختلف البلاد العربية وتضاربت آراؤهم حيال هذه المشكلة متأثرين في تكوين آرائهم بما حدث في بعض الدول الغربية التي انقسم رجالها بدورهم في هذه الناحية الشبيهة بحالتنا الى ثلاثة أقسام : قسم أخذ بمبدأ التوحيد المطلق وقسم أخذ بمبدأ التعاون الحر غير المقيد وقسم حاول التوفيق بين المبدأين : فالدول اللاتينية بوجه عام والجرمانية بوجه خاص اخذت بمبدأ التوحيد التام بينما اخذت الولايات المتحدة الامريكية بمبدأ التعاون الحر فتركت لكل ولاية من ولاياتها الثماني والاربعين الحرية الكاملة في تنظيم شئونها الثقافية الا في بعض الأمور الرئيسية المتعلقة بالاهداف الوطنية . واما انجلترا فهي تحاول التوفيق بين الفكرتين وتبدو نزعة التوفيق هذه قوية في الكتاب الابيض الذي أصدرته الحكومة البريطانية عن تنظيم التربية بعد الحرب .

ويرى المتمسكون بمبدأ التوحيد المطلق بين العرب أن الثقافة الموحدة تصبغ ابناء الوطن جميعاً بصبغة وطنية واحدة وتشدهم بأواصر متينة وتقرب كثيراً بين عقلياتهم وتوحد افكارهم . ويرد عليهم خصومهم أن هذا التوحيد التام او المطلق يتطلب مركزية شديدة قاسية ويجعل شؤون التربية والتعليم آلية رتيبة ويحول دون التجديد والتطور ويقتل عامل الابتكار فتذوب فيه بالتالي شخصية الفرد . ومن هنا يثب أنصار التعاون الحر معتزين برأيهم قائلين إن التوحيد المطلق في أمور التربية التي لاتزال في دور التجربة والاختبار يوقف تقدمها ويحول دون مسايرتها لحاجات العصر والبيئة الطبيعية لا بين

بعض الاقطار العربية وبعضها الآخر فحسب . بل بين الجهات المختلفةفي القطر الواحد وهذا الاختلاف يؤثر تأثيراً عميقاً في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وفي الحاجات التربوية والثقافية التي يحتاج اليها كل قطر . ولذا يرى أنصارهذا الرأي الاكتفاء بمجرد التعاون في بعض الامور التربوية والثقافية إن وجد مجال لهذا التعاون — ويُرد على هؤلاء بأن اختلاف البيئات الطبيعية وتنوع الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية لا يحتم الاختلاف في أسس التربية والثقافة . وإلا كان الانسان أسيراً للبيئة الطبيعية وعبداً لها كما كان شأن الانسان البدائي في دور الهمجية الاولى . واما الانسان الراقي التقدمي فانه يتحرر دون شك من أسر البيئة ويكافح تأثيراتها ويتغلب عليها بفضل علومه ووسائله المختلفة ويخرج في النهاية ظافراً منها بقضاء حاجاته المتنوعة . كما يُرد على انصار التعاون السطحي الحر بأن تجانس البيئة الطبيعية واتفاق الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية لا يكون ولا يتحقق الا في الحياة القبلية أو بين العشائر الصغيرة والأقوام البدائيـة . وأما الدول الكبيرة التي تضم واحدتها الملايين من الانفس فانها تعيش بالطبع على مساحات فسيحة من الأرض وهذه المساحات الفسيحة تشتمل بطبيعتهـا على كثير من البيئات والاقاليم المتنوعة . ولنا في حالة الولايات المتحدة الامريكية ابلغ برهان وأقطع دليـل على أن تنوع بيئاتها واختلاف الاوضاع في كل بيئة عنها في الاخرى لم يحل دون الاتفاق العام على الخطوط الرئيسية الكبرى لمسائل التربية والثقافة وترك الأمور الفرعية يتصرف فيها الرجال المحليون بشكل لا يكبت فيه الابتكار والشخصية الفردية ويفسح فيه المجال للتنويع والتجربة وما يرافقها من تطور في مختلف النواحي التربوية والثقافية .

ثم هناك اصحاب الرأي الثالث الذين يرون أن التوحيد ممكن بل وواجب في أمور خاصة كتلك التي تتعلق بالمبادىء الأساسية والأهداف والاتجاهات العامة لكل من التربية والثقافة . على أن يكون التعاون في الامور التفصيلية الأخرى التي يجب أن تختلف وتتنوع على حسب حاجات كل بيئة أو كل قطر . وبذلك يكون الوضع في نظرهم لا يميل الى التطرف في التوحيد المطلق ولا يميل الى الاكتفاء بمجرد التعاون الحر . بل اتباع طريق وسطي على النحو الذي سلكته بريطانيا العظمى قبل الحرب

والذي عززته عند تنظيم شؤونها التربوية والثقافية بعد الحرب .

ونستطيع الآن أن نخرج من هذا العرض لمختلف الآراء بفكرة عن كل رأي، وقبل ترجيح رأي على آخر أود أن اشير الى أن اي نظام او اي قانون او اي دستور لا ينفذ بروحه قبل نصه هو نظام جاف فاشل . فاذا فضلنا فكرة الوحدة الثقافية بين العرب فلا نعني بها الوحدة التي تؤدي الى طغيان المركزية . ولا نعني بها الوحدة التي تؤدي الى تجاهل الخصائص الاقليمية او إزالة الفوارق الفكرية بين أفراد كل قطر وآخر او بين افراد القطر الواحد . وانما نعني بها وحدة من النوع الذي يصفه الاستاذ ساطع الحصري بقوله :

إن وحدة الثقافة التي نصبو اليها ونطالب بها انما هي هذا النوع من الوحدة المركبة العالية التي تتولد من ترافق او تلاحق الاشياء المتنوعة المتخالفة لا الوحدة البسيطة العادية التي تكون فقيرة العناصر وقليلة التنوع وضئيلة القيمة . اننا نطلب وحدة عضوية . وحدة تناسقية كوحدة الحياة في البدن ووحدة الانغام في اللحن الموسيقي . ولا نعني بذلك قط افراغ جميع العقول وجميع النفوس في قالب واحد كما يتوهم او يوهم ذلك البعض .

والواقع أنه اذا كان الوضع المثالي الذي يجب أن تكون عليه التربية والثقافة في الاقطار العربية هو الوحدة الواعية البعيدة عن المركزية وطغيانها الا أن الوصول اليها طفرة او مرة واحدة أمر صعب ولذا يجب الأخذ بالرأيين معاً : التوحيد في بعض الأمور الرئيسية الهامة . والتعاون في غيرها من الامور على أن ينتهي امر هذا التعاون الى استكمال الوحدة المنشودة .

ويجب عند وضع هذا الرأي موضع الاعتبار ألا نخلط بين الثقافة والتعليم وأن نميز بين أنواع التعليم ومواده واساليبه وبين نظمه العامة وأهدافه الأساسية . فوحدة الثقافة امر يختلف تماماً عن وحدة التعليم . كما أن تنوع التعليم لايعني مطلقاً تنوع الثقافة . ففي حين أن تنوع التعليم يعتبر من مميزات الدولة التقدمية الناهضة نجد أن تنوع الثقافة في الدولة دليل على ضعفها وتأخرها . والوضع في انجلترا يوضح ذلك

جيداً فسياستها التعليمية قائمة على نظام اللامركزية الواسعة ومعاهد التعليم فيها متنوعة الى حد كبير ولمناهج الدراسة فيها صور وأشكال عـديدة . وعلى الرغم من كل ذلك فللانكليز وحدة ثقافية لاتنكر ولا يتعارض معها تنوع المعاهد والمدارس التي تتولى امر تكوين هذه الثقافة ونشرها . فتوحيد الثقافة ليس معناه توحيد انواع المدارس ولا توحيد المناهج ولا توحيد المواد . وانما معناه ايجاد حالة من التناسق والتجانس والانسجام بين افكار الناس وعواطفهم بحيث تنشأ عنها وحدة معنوية متجانسة منسقة لاتنافر فيها ولا نشاز .

ويتوصل الى مثل هذه الوحدة بتوحيد الأسس العامة والاتجاهات والأهداف الأساسية . ومن المعروف أن للتربية أهدافاً او اتجاهات متنوعة فمنها ماهو قومي وطني ومنها ما هو خلقي روحي . ومنها الهدف العلمي والفني والبـدني والعملي والاقتصادي والاجتماعي . ومن الممكن إجمال كل هذه الأهداف بالقول إن التربية يجب أن تهدف بوجه عام الى تكوين نشء صالح من جميع الوجوه . وكما ينطبق هذا الهدف على دولة ما فهو ينطبق كذلك على كل دولة أخرى من دول العالم . فالقول اذن بأن الدول العربية يجب ان توحد هدفها من التربية قول معقول وممكن على هذا الاعتبار. وحتى لو حللنا الهدف العام الى عناصره لما وجـدنا ما يحول دون توحيد السياسة التربوية العامة في الدول العربية تجاه هذه العناصر مادام التوحيد لا يمس كيان اي قطر من الأقطار أو يذيب شخصيته في غيره . بل ربما كان فيه ما يقوي هذا الكيان وما يدعم هذه الشخصية .

ولنأخذ مثلا على ذلك العنصر القومي الوطني من الهدف العام وهو أنبل هـذه العناصر وأسماها نجد أنه واحد عند جميع الشعوب العربية او يجب ان يكون واحداً لا يختلف في سوريا عنه في مصر او في لبنان او في العراق او في اية دولة عربيةأخرى واعتقد انه لا يضير مصر ولا سوريا ولا غيرهما ان يكون الهدف القومي في كل منها ان تعد نشئاً موحد العقيدة الوطنية مؤمناً بالمباديء الديمقراطية يحب وطنه ويتفانى في الذود عن استقلاله وعزته وكرامته . ويشعر في الوقت نفسه انه عربي يحتل جزءاً من

الوطن العربي الكبير . وأن كل اعتداء يوجه الى أي قطر عربي فكأنما وجه الى قطره . وأن عليه واجبات نحو الامة العربية التي يعتز بأنه احد ابنائها . كما عليه أن يعتز بها وبثقافتها العربية وبتراثها المجيد العلمي والأدبي ، المادي والروحي . وعليه أن يعمل متى استطاع على توثيق الصلات بين قطره والاقطار الشقيقة الأخرى في شتى النواحي والميادين وبمختلف الوسائل . اعتقد أن هذا هو المثل الأعلى لما يجب ان يكون عليه الهدف القومي للتربية في البلاد العربية كما اعتقد أن ليس فيه ما يمس من قريب أو من بعيد سيادة اية دولة أو استقلالها التام . هذا فضلا عن أثره العميق في تقوية روابط الوطنية وشد اواصر القومية العربية بين ابناء العرب جميعاً .

وكذلك نجد أن توحيد وسائل الوصول الى هذا الهدف لايتعارض مع خصائص أية دولة او امكانياتها التعليمية : فالعناية باللغة العربية في التدريس في جميع المواد وفي جميع المراحل وتعزيز الناحية العربية المشتركة في دروس التاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية لاشعار النشء في كل قطر عربي أن له تاريخاً عربياً مشتركا مجيداً . وان ثمة روابط جغرافية تشد هذه البلاد بعضها الى بعض . وان هذه الحواجز المصطنعة التي تفصل بينها اليوم اقتصادياً وسياسياً يجب أن تزول تدريجياً . ثم الاستفادة من كل مناسبة في التعليم لتنمية الشعور بالعزة القومية والقضاء على مركب النقص الوطني الذي ما فتىء البعض يبثونه في نفوس النشء في مختلف الاقطار العربية — ثم الحرص على اظهار مميزات الثقافة العربية وابراز خدمات العرب للحضارة ليتعرف النشء الى فضلهم في شتى ميادين العلوم والآداب والفنون والى مآثرهم ومدى مساهمتهم في بناءالعمران البشري — كل هذه وسائل يستعان بها لتحقيق الهدف القومي . وليس هناك ما يمنع اية دولة عربية من اتباعها وبذلك يكون قد توحد جزء من الهدف العام وتوحدالاتجاه او توحدت الوسيلة المؤدية الى تحقيق هذا الجزء .

وغني عن القول ان اتحاد الهدف القومي للتربية في مختلف الاقطار العربيةعامل من ابرز العوامل التي تؤدي الى اتحاد الميول والعواطف الوطنية والقومية والى وجود نوع من المشاركة الوجدانية بين أبناء الاقطار المختلفة . فتصبح للجميع آمال واحدة

وآلام واحدة بذلك تؤدي التربية أهم أدوارها في ايجاد وتوثيق نوع من الارتباط القومي المتين بين العرب .

وكذلك يمكن ان تؤدي التربية دوراً آخر في هذا الشأن عن طريق توحيد عنصر آخر من عناصر هدف التربية العام : ذلك هو العنصر الخلقي او الروحي الذي يدعو الى غرس الفضيلة في نفوس النشىء وتوجيههم بصورة عامة نحو المثل العليا من خير وحق وجمال . وهذا أمر واضح لا يحتاج الى تفصيل الحديث عنه . وانما يمكن ان تضاف اليه محاولة من جميع الدول العربية لاستئصال خلقين او نزعتين كانتا منذ القدم سبباً من أسباب التخاذل بين الاقطار العربية وهما : التعصب الديني والتعصب الاقليمي ولاحلال التسامح الديني والانتماء الى الوطن العربي الكبير محلها . واعتقد ان لاضير على أي قطر عربي في ان يطبع المناهج الدينية والاخلاقية بطابع التسامح والتساهل والتآخي فيفهم النشىء ان الدين لله والوطن للجميع . ويدركون معنى قول المغفور له الملك فيصل الكبير : نحن عرب قبل موسى وعيسى ومحمد . كما اعتقد أنه ليس هناك ما يمنع اي قطر عربي ان يشير في تربية شبابه الى ان الاقليمية الناشئة عن الأثرة معول يدك معالم العالم العربي من أساسه وان يعمل المعلمون في شتى المناسبات على مكافحة هذه النزعة الهدامة وابراز أضرارها ومساوئها .

ثم هناك بقية الاتجاهات التي يجب ان تهدف التربية اليها بصورة عامة وهي الاتجاهات العلمية والعملية والفنية والاجتماعية والاقتصادية . واعتقد ان الاتجاهات تكاد تكون متقاربة في الاقطار العربية فلماذا لا تكون فعلاً موحدة ؟ ولماذا لاتنظم وتنسق بشكل يتيح لها أداء دورها في توحيد العقلية وتعزيز الصلات العربية على أكمل وجه؟ ان هذا التنظيم والتنسيق لا يحقق هذا الغرض فحسب بل قد يكون فيه ما يحقق أغراضاً أخرى: فمثلاً الاتجاهان العلمي والعملي يعوزان كل التعليم العربي بصورة عامة وقد يكون اهمالها سبباً من أسباب تخلف العرب عن النهضة الغربية الحديثة . ولا شك في أن كل قطر عربي يرحب بان يتجه التعليم فيه هذا الاتجاه النافع المفيد .

هذه أمثلة لما يمكن ان تتحد فيه أمور التربية في البلاد العربية حتى تتاح لها الفرصة للقيام بدورها في احكام الروابط بين العرب .

على أن مجال التعاون المتبادل في غيرها من الأمور أوسع وأرحب. وليست فكرة هذا التعاون — او حتى فكرة تكوين ثقافة عربية موحدة — ليست حديثة العهد في البلاد العربية وانما وجدت في أعقاب الحرب العالمية الاولى ومرت بسلسلة طويلة من المحاولات والجهود جاء معظمها في صور غير رسمية على يد بعض الافراد والجماعات مما كان له اكبر الأثر في ايجاد وتقوية الصلات بين العرب الى جانب انه كان بمثابة تمهيد لسبيل العمل الرسمي فيما بعد . من هذه الجهود ما كان يظهر من بعض المجلات الادبية التي كانت تتداول للقراءة في مختلف الاقطار العربية وتنقل الى كل قطر مايكتبه الادباء والمفكرون في الاقطار الاخرى . ومنها ما انشيء في بعض الاقطار من نواد وجمعيات عربية أدت الى توثيق صلات التعارف والتعاون بين ابناء الاقطار العربية المختلفة . ومنها تلك الرحلات العفوية التي قام بها بعض الاساتذة والطلاب والفرق الكشفية والرياضية كرحلة اساتذة وطلاب الجامعة المصرية الى العراق سنة ١٩٣٠ وكجولة الكشافة العراقية سنة ١٩٣١ الى سوريا وفلسطين ومصر ، ومعروف ان أمثال هذه الرحلات من أهم وسائل التعارف بين شبيبة الاقطار العربية ومن أفعل العوامل في توثيق الروابط بين تلك الاقطار . ثم هناك التمثيل والغناء والاذاعة والسينما وكلها وسائل كان لها فضل نقل كثير من ألوان الحياة من قطر الى آخر . ثم المهرجانات الادبية التي اقيمت في مختلف العواصم العربية بمناسبات شتى وما أدته من خدمات جليلة في توثيق الاتصال الثقافي بين مختلف الاقطار كمهرجان شوقي الذي أقيم في القاهرة سنة ١٩٢٨ ومهرجان المتنبي الذي أقيم في دمشق سنة ١٩٣٦ ومهرجان المعري الذي طاف مختلف المدن السورية سنة ١٩٤٤ .

ثم نجد ظاهرة أعمق أثراً مما سبق في هذا السبيل وهي عقد بعض المؤتمرات الاختصاصية العربية وأشهرها المؤتمر الطبي العربي الاول ببغداد سنة ١٩٣٨ ومؤتمر المحامين العرب الأول بدمشق سنة ١٩٤٤ والمؤتمر الاول للمهندسين بالاسكندرية

سنة ١٩٤٥ . وقد عقد أطباء البلاد العربية بعد ذلك ثمانية مؤتمرات في القاهرة وأسوان والاسكندرية وبيروت وحلب. كما عقد مهندسو البلاد العربية مؤتمرين آخرين بالقاهرة ودمشق . واجتمع في كل هذه المؤتمرات طائفة من أصحاب الاختصاص من جميع الاقطار العربية وتناقشوا وتباحثوا في الأمور التي تدخل في نطاق اختصاصهم بوجه عام وفي الشؤون العربية والاصطلاحات العلمية التي تتصل بمهنتهم بوجه خاص. وخدموا بذلك الثقافة العربية خدمة كبيرة .

وأخيراً تأتي الخطوة الرسمية الهامة وهي وضع مشروع معاهدة ثقافية في سنة ١٩٤٣ بين مصر والعراق لم يتم التوقيع عليها حينئذ انتظاراً لاستقلال سوريا ولبنان من جهة وانتظاراً لتكوين الجامعة العربية من جهة أخرى حتى يصبح في الامكان عقد معاهدة ثقافية عربية عامة بدلا من المعاهدة الثنائية . وقد تم ذلك فعلا وأقر مجلس جامعة الدول العربية المعاهدة الثقافية العامة سنة ١٩٤٥ واتفقت الدول بمقتضاها على التعاون في جميع الشؤون الثقافية بجميع الوسائل التي تكفل تقدم الثقافة وتخدم غايات الجامعة — ولا ننسى ان من هذه الغايات توثيق الروابط بين الدول الاعضاء — كما قرر المجلس في ذلك الحين تأليف لجنة ثقافية يشترك فيها ممثلون من جميع الدول العربية على ان ينضم اليها من يمثل بعض البلاد العربية غير المستقلة . وانشاء ادارة ثقافية تتولى مهمة تحضير المشاريع وتنفيذ المقررات بمساعدة المكتب الدائم الذي يمثل وزارات المعارف في الدول العربية بصورة مستمرة وقد عقدت الادارة الثقافية مؤتمرين عربيين في سنة ١٩٤٧ كان احدهما المؤتمر الثقافي العربي الاول الذي انعقد في بيت مري في لبنان وكان الثاني المؤتمر العربي الاول للآثار الذي انعقد بدمشق. وقد عالج المؤتمر الثقافي شؤون الثقافة العربية علاجاً مباشراً وتناقش في المسائل المتعلقة بالتربية القومية وبمناهج تدريس التاريخ والجغرافيا واللغة العربية . واتخذ قرارات هامة لتوجيه التربية والتعليم في جميع الاقطار العربية الى الطريق القويم .

ولا شك في أن امثال هذه المؤتمرات سيتوالى انعقادها في المستقبل للبحث في جميع المسائل التي تتعلق بالثقافة العربية . وهي في حد ذاتها صورة من صور التعاون المطلوب

ولا سيما مايتعلق منها بشؤون الثقافة عامة والتربية والتعليم خاصة .

وإن من يستعرض نواحي التعاون التي نصت عليها المعاهدة الثقافية التي وقعتها الجامعة سنة ١٩٤٥ يجد صوراً عديدة للتعاون الشامل لجميع النواحي التربوية والثقافية بحيث يؤدي تنفيذها الى تحقيق الهدف المطلوب . غير أن التنفيذ — ان وجد — فهو بطيء . والحاجة — كما عرفنا — ملحة . ولا يكاد يشعر بوجود هذه المعاهدة سوى أقلية خاصة في كل دولة عربية . وهذا ما جعل دور الثقافة عامة والتربية والتعليم خاصة في توثيق الروابط بين العرب أمراً لايزال في أول مرحلة من مراحل التنظيم والتنسيق ويحتاج الى كثير من الوقت والجهد والعمل والنشاط والتدبير ليبلغ حد النضج والأثمار .

ومن أهم صور التعاون التي يمكن للتربية أن تؤدي به دورها المنتظر : زيادة الاهتمام بالبعثات العلمية وتبادلها بين الأقطار العربية . ولا تنحصر فوائد هذه البعثات فيما يكتسبه أعضاؤها من علم أو تجربة أو خبرة يعودون بها الى بلادهم ويعملون على نشرها فيها . ولكن البعثات في حد ذاتها وسيلة من أقوى الوسائل التي تؤدي الى التعارف بين شباب الأقطار العربية وسبب قوي من اسباب تعزيز الروابط بينهم : فالعراقي الذي يدرس في سوريا والسوري الذي يدرس في لبنان واللبناني الذي يدرس في مصر كل هؤلاء تتوثق عرى الروابط وتقوى أسباب الالفة بينهم وبين اخوانهم ورفقائهم من أبناء البلاد التي يدرسون فيها .

وعلى الرغم من أن تبادل الطلاب — والمقصود هنا طلاب المعاهد العليا والجامعات والمدارس الثانوية الى حد ما — يجب أن يكون بين معاهد متقاربة المستوى والنظم . وقد يمضي وقت طويل أو قصير حتى نصل الى هذا التقارب المطلوب . غير أن أوجه الاختلاف الحالية بين معاهد البلاد العربية لا تمنع التفكير جدياً في تبادل الطلاب الى حد محدود ولمدة وجيزة تكفي لتحقيق الغرض الاسمى من هذا التبادل وهو التشبع بروح الوطن الاكبر واذكاء روح الاستقلال التي قد تكون كامنة في بلد عربي صغير مستعمر بالتوثب القومي المندفع من أهل بلد عربي مستقل . ويغمر هؤلاء حينئذ روح الشعور بالتبعة الملقاة على البلد القوي الحر نحو البلد الضعيف المظلوم .

والى جانب تبادل الطلاب يجب أن تتبادل الاقطـار العربية الاساتذة ايضاً من منتدبين وزائرين وذلك على الرغم من حاجة كل منها الى اساتذتها جميعاً . لأن الغاية من تبادل الاساتذة بين أقطار الوطن العربي ليست مجرد تعليم المعلومات الموجودة في بطون الكتب وانما الغاية الحقيقية الاستفادة من الامكانيات المختلفة في الوطن العربي الكبير واداء رسالة قومية سامية وخلق جو من الجهاد الموحد في سبيل ربح معركة من أشرف معارك التاريخ وهي معركة استعادة الثقافة العربية الموحدة خالصة صافية كما كانت قبل أن يعمل المستعمر على تشويه معالمها وآثارها .

فليست مهمة الاستاذ المصري الذي يعلم النحو في لبنان او الاستاذ اللبناني الذي يعلم الرياضيات في سوريا او الأستاذ السوري الذي يعلم التاريخ في العراق — ليست مهمة كل منهم الاقتصار على تعليم النحو والرياضيات والتاريخ بقدر ما يجب ان تكون مهمته التدليـل على فقدان هـذا الفارق الذي اوهمنا المستعمر انه موجود بين الأقطار العربية .

وهكذا اذا تأمل المتأمل هذه الحقائق وأشباهها ادرك أن التربية والتعليم والثقافة كلها ابواب ومنافذ تؤدي دوراً هاماً في توثيق الروابط وزيادة الالفة والتقارب بين الاقطار العربية وهي ابواب يجب أن يفتح كل منها على مصراعيه . ولـكل راغب في العمل الجدي مجال متسع في النواحي الكثيرة الـتي نصت عليها المعاهدة الثقافية العربية التي سبق ذكرها . وهذه هي ميادين التعاون المثمر كما وردت في المعاهدة المذكورة .

تبادل المدرسين والاساتذة — تبادل الطلاب — تعادل مراحل التعليم وشهاداته — تشجيع الرحلات الثقافية والكشفية والرياضية بين البـلدان العربية — احياء التراث الفكري والفني العربي والمحافظة عليه ونشره وتيسيره للطالبين بمختلف الوسائل — تنشيط الجهود التي تبذل لترجمة عيون الكتب الاجنبية القـديمة والحديثة وتنظيم تلك الجهود — تشجيع الانتاج الفكري في البلاد العربية بمختلف الوسائل كانشاء معاهـد للبحث العلمي والأدبي وتنظيم مسابقات في التأليف — توحيد المصطلحات العلمية بواسطة المجامع والمؤتمرات واللجان المشتركة — ترقية اللغة العربية والوصول

بها الى تأدية جميع اغراض التفكير والعلم الحديث وجعلها لغة الدراسة في جميع المواد في كل مراحل التعليم في البلاد العربية توثيق الصلات بين دور الكتب والمتاحف العلمية والتاريخية والفنية الموجودة في البلدان العربية — توثيق الصلات وتسهيل التعاون بين العلماء والادباء ورجال الصحافة والمهن الحرة واهل الفن والتمثيل والموسيقى والسينما والاذاعة — تشجيع عقد المؤتمرات الثقافية والعلمية والتعليمية — انشاء متاحف للحضارة والثقافة العربية — اقامة معارض دورية للفنون والمنتجات الادبية — اقامة مهرجانات عامة ومدرسية في مختلف البلاد العربية — تشجيع انشاء نواد عربية ثقافية اجتماعية في جميع البلدان العربية .

وعلاوة على ذلك فقد اتفقت الدول الأعضاء بموجب هذه المعاهدة على أن تدخل في مناهجها التعليمية من تاريخ البلاد العربية وجغرافيتها وأدبها ما يكفي لتكوين فكرة واضحة عن حياة هذه البلاد وحضارتها . كما اتفقت على ان تعمل على تعريف ابنائها بالاحوال الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية في سائر البلاد العربية بكل الوسائل الممكنة .

هذه هي المادة الخام للتقارب والترابط بين العرب ميسرة موفورة عن طريق الثقافة والتربية . وعلى رجالات العلم والادب ورسل الثقافة وسفراء التربية من كل قطر عربي ان يحسنوا الاستفادة من هذه المادة وان يعملوا يداً واحدة وبروح واحدة في سبيل ايجاد مستوى ثقافي رفيع للبلاد العربية جميعها يؤول في النهاية الى وحدة الميول والعواطف القومية بين ابناء العرب جميعاً في كل قطر من اقطارهم . وأن يواصلوا الجهود من أجل توطيد تلك الثقافة الحقيقية التي ترد الانسان الى مصادر روحية وتقيم السعادة على اسس متينة من الصفاء الروحي الذي لاينظر الى المادة الا بمقدار ما تشيع من الحب والطمأنينة بين البشر .

تطور المثل الأعلى [1]

للاستاذ عادل العوا

أذكر كل مرة أسمع فيها كلمة الحكمة والحكيم ، حانوت صيدلي في الحي الذي نشأت فيه ، من هذه المدينة الخالدة ، وقد كان هذا الحانوت ضيقاً مظلماً ، وكان صاحبه فيما يظهر مؤمناً تقياً ، شديد الايمان ، كثير التقوى ، وكنت ،ولا ازال ، أجهل سبب خوفي منه ، ورعشتي حين دخول حانوته ، ولكنني واثق من أنني كنت أمعن النظر وأمعن الفكر ، بصورة مستديمة ، في كلمات سطرت بمداد من ذهب ، قرب خزانة العقاقير السامة ، وهذه الكلمات تدل على رأس الحكمة ،ورأس الحكمة - كما تعلمون - مخافة الله . ولعلي كنت أتمثل في نفسي معنى هذه الجملة الرهيبة ، على ضوء لحية الصيدلي السوداء وقد طالت وطالت ، حتى زاد الامر في ذهني عسراً على عسر ، وصرت أتحرى حقيقة الحكمة ، وأطلب كنه مخافة الله ، حتى تكشفت لي بعض أسباب الفكر فعرفت أننا نذهب في شرقنا الوديع ، الجميل المؤمن ، الى اعتبار الحكمة دواء لكل داء ،وعلاجاً لكل سوء ، ونوراً يضيء سبيل الحياة ، كما نعتبر العدل أساس الملك وكما نتخذ العفو عند المقدرة شيمة من شيم الكرام .

نحن نؤمن بالحكمة ، ونعتقد أن رأسها مخافة الله ، والخشية من عذابه ،والطاعة لتعاليمه ، والاصغاء لصوت الضمير ، والرضاء بالواقع ، والقناعة بالقدر ، واجتناب الغدر والخيانة والغش ، وامتهان الكذب والصلف والخديعة ، والحرص على النصيحة والصدق والاخلاص ، والتمسك باللين والمروءة والتعاون ؛ اننا مؤمنون ، والايمان بنيان مرصوص ، يشد بعضه بعضاً . والمؤمنون حكماء ،وهم لبنات هذا البناء ، يرعون الله وكأنهم يرونه ، وهو لا ريب يراهم ، ويعلم ما تخفي الصدور وما يجري في السرائر ، وما تقوم به الجوارح من أعمال وأفعال .

---

(١) القيت على مدرج الجامعة الكبير مساء الاربعاء في ١٣/٤/٥٠

ان حكمتنا في هذا الشرق مثل أعلى نبيل ، وهدف رفيع ودون ، ونحن نعتقد بالحكمة ، ونلح في هذا الاعتقاد ، بل نكاد نستسلم اليه ، فلا نتصور سواه ، وهذه الحكمة في الواقع تنف من بقايا مذاهب فلسفية كانت ذائعة مقررة ، فأتت عليها الايام ، ودثرت فلم يبق لدينا منها سوى بعض أقوال مأثورة ، وأمثلة عاقلة متزنة، نزين بها جدران الحوانيت ، ونتناقلها من غير تبصر ووعي. تحفظها عيوننا ، وتحفظها اذهاننا وتغتذي بها ميولنا ورغائبنا ، فتجري منا مجرى الهواء في الرئة ، والدم في القلب ، والروح في الجسد ، ونحسبها رائد الناس جميعاً ، وغاية الانسان في كل عصر ومصر ، لانها حكمتنا نحن ، ورثناها وحفظناها والفناها ، غير اننا ادركناها في هيئة أفكار متصلة ، وانوار باهتة ، وحقائق جزئية متفككة ، وقد اكتفينا بها ، ونحن نعجب ان سمعنا بما يخالفها ، ونستغرب الدعوة الى تفهمها ، لتمييز مواطن الحسن بل ومواطن الصعف فيها .

ولقد ولد قبل مائة عام تقريباً ، نبي منبوذ من انبياء الفلسفة الحديثة ، وهو (نيتشه) الذي يقول على لسان زرادشت : « احبوا السلم ايها الناس ! ولكن اتخذوا السلم مطية لحروب جديدة . ان فترة السلم القصيرة خير من فترة السلم الطويلة. انني لاأنصح لكم العمل بل الكفاح ، وانا لا اتمنى لكم السلم بل الفوز والنصر . ليكن عملكم كفاحاً . وليكن سلمكم نصراً . تقولون ان قضية الخير تبرر الحرب. وانا أقول لكم إن الخير في الحرب . وان الحرب تبرر كل خير . لقد حققت الحرب جميع الامور العظيمة ، وعجزت عن ذلك المحبة والتعاون والاحسان .

« ايها الانسان : املأ حياتك بالخطر ، وشيّد مدنك على مقربة من البركان ، وابعث سفنك الى البحار المجهولة . عش شجاعاً . عش في حرب دائمة . انني احب الذين يضحون بأنفسهم في سبيل الارض . لعل الارض تصبح في يوم من الايام مهبط الانسان الاعلى . انني اكره الذين يبحثون وراء النجوم عن سبب ليموتوا من أجله، ويضحوا بأنفسهم في سبيله . لقد حان للانسان ان يحدد غايته . لقد آن للانسان ان

يبدر جرثومة المثل الاعلى . حدثوني يارفاقي ! أهي الغاية التي تحتاج الى الانسانية، أم الانسانية هي التي تعوزها الغاية ؟ »

ثم يضيف زرادشت ايمانه بالقسوة والعنف فيقول :

« انى امر وسط الشعب ، وافتح عيني جيداً ، فلا أرى الناس الا أصغر من ذي قبل ، وان حقارتهم لتزداد يوماً بعد يوم . وان صغارهم لينموا باستمرار . ولا تصدر تعاستهم وبؤسهم الا عن اعتقادهم بالفضيلة ، وايمانهم بالسعادة . انما الانسان النبيل هو الذي يعبد القسوة والعنف ، ويلذ له ان يقسو حتى على نفسه . اما اخلاق العبيد ، فهي وحدها التي تدعو الى الحنو والرحمة والصبر والتواضع والاحسان . . . وهذه الاخلاق تظهر بين الاذلاء ، ويبتكرها المتألمون ، وتليق بالضعفاء .اما الجبار فلا يجوز له ان يتقيد بالواجبات الاتجاه نده القوي الجبار » .

هذه صورة خاطفة عن دعوى الحكمة ، في رأي فيلسوف ثائر،ومفكر متمرد، يود قلب نظام القيم ، وتبديل ما جرى عليه الانبياء والرسل وعقلاء البشر،وما رسموا للانسانية الطيبة من اهداف عليا ، وغايات سامية ، وتعاليم تنادي بالعطف والتقوى ؛ وهي صورة تفجأ الشرقي الغافل الحالم ، كما تفجأ المستسلمين الى مبادىء الاعتدال والاتزان في الشرق وفي الغرب ، ولكنها مع الاسف أفكار تلقى في الواقع أصداء راهنة ، وليس من يجهل ان مذهب (نيتشه) العنيف ، والفوز الذي كتب له بعد وفاة صاحبه العبقري المجنون ، كان عاملا من العوامل الفكرية التي تساعد على ظهور النزعات الاستبدادية الحديثة،وكان قيامها سبباً من اسباب الحرب العالمية الاخيرة،وتلك التي سبقتها ، ولا يزال الانسان المتمدن يبحث مسألة المثل الأعلى ، والهدف الاسمى وينفق الوقت والمال والجهد في أروقة العواصم الكبرى ، ودهاليز المنظمات الدولية ، وتسعى وفود الامم المتحدة وغيرها الى الاتفاق حول المبادىء القويمة ، والاسس الثابتة،والوسائل الناجعة،التي تليق ان يتبعها بنو الانسان .

لقدرأى (نيتشه) الحكمة انثى،ورأى ان الانثى تعبد القوة ، وتحب رجل الحرب ولا تحب سواه ! ورأينا نحن الحكمة طاعة ، ووجدنا مبدأ الحكمة مخافة الله ،

والرفق بالناس ، رفقنا بالقوارير ؛ لقد طلب (نيتشه) الى الناس ان يعبدوا وحشاً أشقر اطلق عليه اسم المثل الانسان الاعلى ، فآمنت بدعواه المدافع والطائرات ، والقنابل والمدمرات . وآمنا نحن بالضمير وبالطاعة والقناعة . ووجدنا القناعة كنز لا يفنى ، وذخراً لا يضمحل ، ولا يذوب ، ولا يتعذر اقتناؤه ، ولا تعب في الحفاظ عليه،فهل أصبنا نحن ، ام أصاب المجنون ؟

لا أود الاجابة الآن ، ولكنني اذكر ان في الانسانية قوتين، هما دعامة الوجود، ووسيلة التقدم : قوة ناقدة ، وقوة خالقة ، القوة الناقدة هي التي لا ترضى عن الواقع ولا تقبل الاستكانة والجمود . والقوة الخالقة هي التي تتصور الكمال،وترغب في السمو. ومن الخلق بعد الانتقاد يلد المثل الاعلى . وبحياة الخلق وحياة الانتقاد يتطور المثل الاعلى ، ويتكامل فتتغير اشكاله ، وتتبدل صوره ، وتختلف غاياته ومراميه ، ولست اقصد في حديث هذه الامسية ان اذكر جميع وجوه المثل الاعلى ، واقص سيرة حياته وتطوره في البيئات المختلفة ؛ وقد تعارض في ذهن الناس مفهومان متقابلان منذ اقدم العصور ، مفهوم الواقع ، ومفهوم المثل الاعلى ، وحار الانسان ، وحيداً ، ومجتمعاً ، في صدد التوفيق بينهما ؛ ايؤمن المرء بقانون الحرب ، وناموس القوة ، وسنة الواقع ، فيأخذ بأساليب العنف والقسوة والعدوان؟ام يتبع مبدأ الحق، وقاعدة العدل،ويتمسك باسباب التسامح والاحسان ، ويقدم النفع العام على الصالح الخاص ؟

لنستمع الآن الى نماذج انتقادية تتناول وجوهاً معينة من الحياة الاجتماعية الراهنة. يقول(اخوان الصفا)حكاية على لسان أحد الحيوانات يخاطب الناس بقوله : «.. .واما افتخاركم باطبائكم ، والمداوين لكم، فلعمري انكم محتاجون اليهم مادامت لكم البطون الرحبة ، والشهوات المؤذية ، والنفوس الشرهة ، والمأكولات المختلفة ، وما يتولد منها من الامراض المزمنة ، والاسقام المؤلمة ، والاوجاع المهلكة، تلجئكم الى باب الاطباء، فزادكم الله أطباء ، لانه لا يرى على باب دكان الطبيب الا كل عليل مريض سقيم ، كما لا يرى على باب دكان المنجم الا كل منحوس او منكوب او خائف لا يزيده المنجم الا نحاساً على نحس . . .وهكذا حكم المطببين منكم يزيدون العليل سقماً ، والمريض

عذاباً بالحمية من تناول أشياء ربما يكون شفاء العليل في تناولها ، وهو ينهاه ويمنعه منها لجهله . ولو تركه مع حكم الطبيعة لعله كان أسرع لبرئه ، وانجح لشفائه . . .

« وأما تجاركم ورؤساؤكم . . فهم أسوأ حالاً من العبيد الاشقياء، والفقراء الضعفاء وذلك انك تراهم طول نهارهم مشغولي القلب ، متعوبي الابدان ، مغمومي النفوس ، معذبي الارواح ، يبنون ما لا يسكنون، ويغرسون مالا يجنون، ويجمعون مالا يأكلون. يبنون الدكاكين ويملؤونها من الامتعة ويحتكرونها ويضنون بها على أنفسهم وجيرانهم وأحبابهم ويمنعون الفقراء والمساكين حقوقهم ، ولا ينفقون ، حتى تذهب جملة واحدة اما في حرق او غرق او سرقة او مصادرة سلطان جائر او قطع طريق او ما شاكل ذلك . .

« والذين ذكرتم من أرباب النعم ، واهل المرؤات ، فلو كانت لهم مرؤة لكان لا يهنأهم العيش اذا رأوا فقراءهم وجيرانهم اليتامى من اولاد اخوانهم ، والضعاف من أبناء جنسهم ، جياعاً ، عراة ، مرضى ، مطروحين على الطريق ، يطلبون منهم كسرة وهم لا يلتفتون اليهم ، ولا يرحمونهم ، ولا يفكرون فيهم . . .

«واما قراؤكم وعبّادكم الذين تظنون انهم أخياركم ، وترجون استجابة دعائهم وشفاعتهم لكم عند ربهم، فهم الذين غروكم باظهارهم الورع والخشوع والتقشف والنسك حتى جفت أدمغتهم ، ونحلت شفاههم ، وانحلت أبدانهم ، وتغيرت ألوانهم ، وانحنت ظهورهم ، وقلوبهم مملوءة بغضاً وحقدا وجفاء لمن ليس مثلهم، ونفوسهم مملوءة وساوس وخصومة مع ربهم بضمائرهم : لم خلق ابليس والشياطين والكفار، والفراعنة والفساق والفجار والاشرار ولم رباهم ورزقهم ، ويمكنهم ، ويمهلهم ولا يهلكهم ؟ ! . .

« واما فقهاؤكم وعلماؤكم فهم الذين يتفقهون في الدين طلباً للدنيا ، وابتغاء للرياسة والولاية والقضاء والفتاوى بارائهم وقياساتهم ، فيحللون تارة ويحرمون تارة ، . . . كل هذا طلباً للدنيا ، وتكسباً للرياسة ، من غير ورع ولا تقوى . . . فاولئك هم وقود النار في الآخرة او يتوبون . . .

«وأما قضاتكم وعدولكم والمزكون لكم فأدهى وأظلم وابطر. وهم اشر سيرة من

الفراعنة والجبابرة . وذلك انك تجد الواحد منهم، . . وقد ضمن القضاء من السلطان الجائر بشيء يؤديه اليه من أموال اليتامى ، ومال الوقوف ، فيقبل الرشوة، ويرخص في الجنايات وشهادات الزور وترك اداء الامانات والودائع ، فاولئك هم الذين نحوا في التوراة والانجيل والفرقان .

«واما خلفاؤكم الذين تزعمون انهم ورثة الانبياء . . فينهون عن منكرات الامور ويرتكبون هم منها كل محظور ، ويقتلون اولياء الله ، ويشربون الخمر ، ويبادرون الى الفجور. لقد اتخذوا عباد الله خولا ، وأيامهم دولا ، واموالهم مغنما ... فاستطالوا على الناس . واذا ولي احد منهم، ابتدأ أولاً بالقبض على من تقدمت له حرمة لابائه واسلافه، وازال نعمته ، وربما قتل اعمامه واخوانه وابناء عمه . كل ذلك حرصاً على طلب الدنيا وشدة الرغبة فيها ، وشحاً عليها . . . وليست هذه الخصال من شيم الاحرار ، ولا فعل الكرام[1] . »

ثم لننظر الآن، بعد هذه اللمحة الانتقادية ، الى صور متنوعة ، ايجابية ، مختلفة ، من المثل الأعلى. وفي وسعنا ان نتبين بينها علاقة تطور ، ونمو ، وتكامل ، وتجدد ؛ ولا نقصد بكلمة التطور ان ندل على شيء آخر سوى تنوع المثل العليا في الناس ، واختلافها ، وتداخل عناصرها ، واشتباك تفاصيلها ، بعضها ببعض، مما يدخل في نطاق تجارب الامم ، واحوال البشر ؛ ولعل وظيفة الانسان المثالية ان يعمل جاهداً في سبيل اكتشاف ما يدعو بالمثل الاعلى ، ولعل الوصول الى هذا المثل الرفيع غاية لا تدرك اوانها لا تدرك الا بصورة تقريبية ، وقد تبقى حال التقريب هذه بقاء أبدياً . فمن طبيعة الانسان الا يكتفي بما يعلم،ولا يرضى بما يرى،بل يبتغي فوق ذلك ما يخترع وما يبتكر عند الاقتضاء . وسنقتصر الآن على الاشارة الى الوان من المثل الاعلى، ونذكر خطوط تطورها الكبرى في الغرب وفي الشرق ، منذ فجر اليونان ، حتى يومنا هذا ، ونحن إذ نقول الاشارة لا نعني التطويل ، ولا الاحاطة الدقيقة ، ولا الاطناب ، وإنما نقتطف

---

(١) الرسائل: ج ٢ س ٨ ص ٢٢٩ وما بعد .

من حديقة المثل العليا آمالا لانسانية نجد فيها الزهر والورد والثمر ونصنع منها صور الحكيم والقديس والمؤمن والمواطن والانسان .

يقول افلاطون : « ان الذي يجعل للحياة قيمة في عيني، هو تأمل الجمال الابدي. ما أحسن مصير الانسان الذي يستطيع ان يتأمل الجمال الالهي ، في بساطته ، وصفائه مجرداً عن الالوان الزائله » . والحق ان تأمل الجمال ، الجمال الالهي ، هو ، عند افلاطون واتباعه ، تأمل المثل الاعلى . انه الركون الى الجوهر المحض ، والقيمة المطلقة ، والكمال التام ؛ وهو وظيفة الحكيم الاولى . والحكيم الاغريقي عالم حاذق بصير ، والحكمة هي المعرفة في اوسع معانيها . والحكمة المثلى صفة من صفات الله ، ويكفي الحكيم فخراً وعزاً ان يتشبه قدر طاقته الانسانية بالاله ، فيصير فيلسوفاً ، والفيلسوف يعشق الحكمة ، والحكمة توصله الى ثالوث الخير والحق والجمال . والفيلسوف حكيم بين الناس ، بل هو اله انساني ، ومن شأنه ان يقف وسط الكون الواسع الفسيح ، يمعن النظر ، ويمعن الفكر في تأمل الجمال الثابت ، والروعة النقيه، البريئة من ادران المادة ، وأعراض التبدل والتحول ، وكأنه يعيش فوق أفق البشر ، ولذا يتمتع بالجدارة الكبرى ، والمسؤولية التامة ، وهو وحده خليق بان يكون قدوة وبان يكون حاكما ، وبان يكون رئيساً . انه يلم باسباب الخير وبوسائله ، ويؤمن بالفضيلة حقاً ، ولا يحيد عن الطريق السوي ، والصراط المستقيم .لا تضعف عزيمته ولا ينال منه الخوف ، ولا يضيق ذرعاً بالتضحية في سبيل الغاية الاسمى،والهدف الاعلى، شأنه شأن سقراط الذي جرع السم آمنا مستبشراً .

ان الحضارة الاغريقية ، بما فيها مذهب افلاطون ، تقوم على مبدأ التأليف والانسجام وتهدف الاتساق والاتزان . ولذلك يعتبر الاغريق ان الفضيلة الراهنة نسبة ووظيفه . وهي تحقيق كل فرد في المجتمع وظيفته الطبيعية الخاصة به ، ومثل ذلك يقتضي جهداً جباراً ، وصبراً على الجهد .

يقول أفلاطون ، في حواره المسمى (منون) ، : « هل تسأل عن فضيلة الرجل؟ هي ان يكون قادراً على ان يؤدي واجبه كمواطن ، وان يحسن إلى اصدقائه ، وأن

يضر باعدائه ، مع احتراسه من ان يصيبه منهم ضرر . ام تسأل عن فضيلة المرأة ؟ ان فضيلتها هي أن تجيد ادارة منزلها ، وتقوم على حفظه ، وان تطيع زوجها » فهناك اذن فضيلة للطفل ، وفضيلة للرجل ، وفضيلة للمرأة ، وفضيلة للشيخ ، وفضيلة للرجل الحر ، وأخرى للرقيق .

فالفضيلة في رأي افلاطون جملة من النسب المؤتلفة،وهي اتجاه متسق يضم نغمات متنوعة يجمع بينها السمو بالطبيعة نحو الكمال . فالمثل الاعلى اذن موضع رغبة واشتهاء وانما نشتهي الفضيلة المثلى لاننا نتذوق قبساً منها في حياتنا الخاصة . والمثل العليا نهاية تتطلع اليها ، وقيمة نشعر بامتيازها علينا ، ووردة نود اجتلاءها لاننا نحبها ونقدسها . وان المثل الاعلى جمال خالد آلهي ، وثمرة حلوة يطمح اليها الطامحون في الكمال .

فالانسان المثالي هو الحكيم الفاضل الذي يتمسك بأهداب العدل في السلوك ، والاعتدال في الرغائب . انه الانسان الكريم. والكرامة شرط ازدهار العدل الاجتماعي في المدينة ، وفي الدولة ، على الرغم من اختلاف الطبقات ، وتنوعها ؛ ان الحكومة المثالية هي حكومة الفلاسفة . والفيلسوف هو العقل . اما الجندي والعامل والفلاح فهم الآلة واليد والأداة . ان الجندي الذي يحارب دفاعاً عن وطنه وبلاده جدير بالاحترام والاكبار . ولكن غريزة الكفاح والقتال تحيد عن هدفها الأمثل عندما تصبح خروجاً على كل قانون ونظام ، وتحدياً لكل رادع وسلطان ، وطلباً للسيطرة والفتح من اجل السيطرة والفتح والاستيلاء .

وقصارى القول ، يرى مفكرو اليونان أن رائداً طبيعياً عاماً يدفع الانسان الى طلب الحكمة ، والايمان بالفضيلة ، وهذا الرائد هو حب السعادة ، فالانسان يبحث عن السعادة ، ويسعى اليها ، ويتخذ آماله ، وفكره ، وسلوكه ، سُلّماً يرقى به اليها. ولكن السعادة لاتتجسد في اللذة ، ولا في الثروة ، ولا في الجمال ، ولا في الشرف . لقد يظن جهلاء ان السعادة في اللذة ، ولكن اللذة شيء ، والسعادة شيء آخر . اننا اذا طلبنا السعادة في اللذة ، اصابنا ضر كبير ، وسوء عظيم . فالذي يأكل حباً في الاكل يرتكب إثماً ، ويجلب الشر والالم والفساد الى نفسه وجسمه . السعادة ليست اللذة ،

وليست الثروة ، وليست المال . كم من اشخاص بعثت الثروة في نفوسهم ميوعة وصلفاً ، وعادت عليهم بالبؤس والخزي والشقاء . إن اكتناز الذهب والفضة لا يسبب السعادة ، وانما تنشأ السعادة من سلوكنا الحكيم تجاه حاجاتنا ورغباتنا . ليس موطن الثراء او الفقر في بيوتنا ودورنا . بل هو في النفوس ، وفي الافكار ، وفي العقول .

ان قوام السعادة الحقيقية ان يؤدي كل كائن وظيفته على وجه الكمال . وللانسان بما هو انسان وظيفة خاصة تميزه ، وهي حياة التأمل والحكمة والعرفان . فعلى الانسان كما يرى ارسطو ، ان يزاول حياة الفكر ، وينهل الحكمة من ينابيعها الحلوة العذبة الصافية ، فيدنو من طمأنينة السعادة والخلود ، وينعم بلذة فكرية الهية لا تدع للملل وللسآمة سبيلا . فالرجل المثالي في اليونان ، هو الرجل الحكيم حقاً . ورأس الحكمة حصول الاتزان النفسي ، والاتزان الخلقي ، والاتزان الاجتماعي . وهذا الاتزان هو الحد المتوسط العدل بين افراط وتفريط ، كلاهما نقيصة ورذيلة .

لننتقل الى المثل الاعلى في الحضارة المسيحية . ونعلم ان لواء هذه الحضارة قد انتشر في ارض الثقافة اليونانية والرومانية ، وشمل قسماً كبيراً من العالم القديم حتى بزغت في شرقنا العربي شمس الاسلام .

لقد ظهرت الكنيسة ، وتبلورت التعاليم العيسوية في الأناجيل ، وتم انفصال الديانة المسيحية عن الديانة اليهودية ، وصار في وسعنا ان نقرأ مثلا الآيات التالية : « سمعتم انه قيل : العين بالعين والسن بالسن . ولكني اقول : لا تقابلوا من يسيئونكم بالمثل . بل اذا ضربك احد على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر . وإذا ادعى احد ملكية ثوبك فاترك له الرداء ايضاً . سمعتم انه قيل : تحب قريبك ، وتبغض عدوك . اما انا فأقول لكم : احبوا اعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، احسنوا الى مبغضيكم ؛ وصلّوا لأجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم » .

ثم نما التفكير الفلسفي المسيحي ، وصار آباء الكنيسة يصنعون النماذج تلو النماذج من المثل الاعلى ، وكل هذه النماذج تتصف بصفة القدسية ، بل بصفة التقديس . واخذوا يخاطبون المؤمنين بلغة القلب والعاطفة ، وييسرون لهم الانزلاق نحو مفهوم

المعجزات ، ومفهوم الاسرار ؛ بينما صرف مفكرو الاغريق والرومان من قبل جهودهم في توجيه الانسان نحو التجربة والعقل ، واقناعه بالمشاهدة والبرهان . وقد الح الدين المسيحي في التمييز بين عنصرين : عنصر طبيعي ، وعنصر الهي . وجعل المفكرون في المسيحية هذا التمييز فاصلاً بين الفضائل ، فقالوا بوجود نوعين من الفضيلة : فضيلة طبيعية ، وفضيلة الهية . الاولى فضيلة الوثنية ، والاخرى فضيلة النجاة . وقد قلب هذا الاعتبار المسيحي ، سلسلة القيم اليونانية — الرومانية ، وجعل الفضائل المثلى التي آمنت بها الحكمة الاغريقية بمثابة مظاهر خارجية تورث المؤمن رذائل وخطايا ، فالتبصر والعدل والقوة والاعتدال تورث رذائل الكبرياء والغرور والاعتداد بالنفس وهي كلها اخطاء بل خطايا ؛ اما الفضائل الصحيحة ، فهي الفضائل الالهية ، اي الفضائل المسيحية ، واهمها الامل والايمان والاحسان .

ولعل من اكثر ما عني به مفكرو الكنيسة انهم أقروا عجز الطبيعة الانسانية ، واسرفوا في بيان ضعفها وتهافتها ، ووجدوا انها تقصر عن بلوغ المثل الاعلى ، بل انها لاتستطيع التقرب منه اذا لم تسعفها عناية الرب بمدد الهي ، ينتشر عليها ويلم بها ، ويحيطها احاطة رداء ذهبي ملؤه الرحمة والعون ؛ فالايمان المسيحي هو افضل الفضائل في نظر الاتباع ، بل هو المثل الاعلى ، والوسيلة الرفيعة للاتصال بملكوت السماء ، والايمان يؤود الى الامل ، والى الحب ، والى الاحسان ؛ وهو غاية مايرجو الانسان السعيد في الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة ، ولا ينال الانسان سعادة الايمان اذا لم يشمله الله ، وممثلوه . بفيض من الرحمة والغوث ، حتى تكتب له الحياة بعد الوفاة ، حياة النفس ، وولادة الروح ، بعد فناء الجسد الحقير .

لقد اعتبر اليونان ثم الرومان السعادة سمواً بالطبيعة نحو الكمال ، ولكن السعادة الراهنة ، لدى المسيحيين ، وهم باطل ، وزخرف زائل ، وسراب من تلبيس ابليس ، انها فتنة وغواية واغراء ، فتنة الشيطان اللعين ، ان طلبت في الارض فاز الشر ، وانتصر الجسد ، وعمت المعصية ، وما الحياة الدنيا سوى سجن الروح ، وبلوى المؤمن وكيف يسعد الانسان وحوله الجرائم والآثام ، جرائم الحسد والقتل والعدوان ، وآثام

اللذة والبهيمة والشهوات ؟ كيف يسعد في الدنيا ، والدنيا منفى الروح ، ولا خير للروح الا في العودة الى بارئها ، والرجوع الى موطنها ، وفراق عالم الخطيئة ، والصعود الى ملكوت الحرية السرمدية ، والمجد الازلي ، ولله المجد في السموات العلى .

ان مملكة الله هي اذن في العالم الآخر ، فينبغي للمسيحي أن يهتم بها وحدها ، وان يجانب اوثان المجد والمال والبنين : « لاتكنزوا لكم كنوزاً على الارض حيث يفسد السوس والصدأ ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون . بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لايفسد سوس ولا صدأ ، وحيث لاينقب سارقون ولا يسرقون . لأنه حيث يكون كنزك يكون قلبك ايضاً . » ... «لا تقدرون ان تخدموا الله والمال . لذلك اقول لكم : لاتهتمون لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ... ولا لاجسادكم بما تلبسون» . فاطرح ايها الانسان المؤمن فضائل العمل والنشاط ، واهجر زخارف العرف الاجتماعي ، وحارب الطبيعة حولك وفي نفسك ، واقبل حياة السذاجة والتواضع والكفاف ، « طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات . طوبى للحزانى لانهم يتعزون . طوبى للودعاء لانهم يرثون الارض. طوبى للجياع والعطاش الى البر لانهم يشبعون . طوبى للرحماء لانهم يرحمون » .

مرت العصور المسيحية المختلفة ، وتبدلت صور الأنموذج المثالي للرجل المؤمن ، وكلها صور قدسية بل مقدسة . ظهر الرسل الذين اسسوا الكنيسة وكتبوا الأناجيل . وظهر الشهداء الذين قدموا اجسادهم الحية طعاماً للوحوش الضارية ، واستطابوا الموت وفاء بالايمان ، ونصرة للدعوة ، وبعداً عن الردة ، فارتوت من دمائهم أرض الملاعب الرومانية وساحاتها . ثم استتب الامر لرجال الدين ، واصبحت المسيحية ديانة الامبراطورية الرومانية . وانتصرت الكنيسة ، وامتاز آباؤها بالعلم والعرفان . وصار احدهم يدعى الدكتور ، اي العالم في اللاهوت . واصبحت قيمة المؤمن تقاس بالاقتداء بدكاترة الكنيسه ، وصار الانسان الفاضل عدو الطبيعة البشرية ، لا صديقها . ولزم عليه ان ينبذ غرار الحكيم القديم ، فيقسو على جسده ، ويقسو على نفسه ، ابتغاء مرضاة الله ، وحباً بخدمته ، بل عشقاً له ، وتقرباً منه ، للوصول اليه ، والاتحاد به ،

على نحو مايحدث في اعمق لحظات الحب من التثام تذوب فيه الثنائية ، وتتلاشى فواصل المادة ، واثقال الجسم ، بين المحب والمحبوب .

وفي القرن الميلادي السابع ظهر الاسلام في صحراء نائية ، وبيئة ضيقة ، واخذ العرب يلتفون حول قائدهم العظيم ، ويعملون على تأدية رسالتهم الخالدة في ميدان الحضارة والحياة ، وجاء القرآن الكريم يدعوهم ، ويدعو بهم الناس جميعاً ، الى العدل والعفو والتسامح والحكمة والاحسان . واتى بمثل انساني اعلى جامع بين حياة عاجلة ، ومثوبة آجلة . لم يحارب الجسد ، ولم يغفل النفس ، بل اقام التوفيق بين احتياج الطبيعة ، وانطلاق الروح ، فلم يوجب التقشف ، ولم يمنع اللذة ، بل اباح الاعتدال ، ولم يكلف نفساً فوق وسعها ، وانما اعترف بأن الانسان خلق ضعيفاً ، وان لجسده عليه حقاً ، وتوخى اليسر الى جانب العسر ، وطلب ان توفى النفس نصيبها من الدنيا ، واراد ان يخفف عن المؤمنين ، فعلمهم الا اكراه في الدين ،وامرهم بالدعوة الى المثل الأعلى بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجعل في الحكمة خيراً كثيراً ؛ وقال بحرية الضمير ، واعتبر المسؤولية امراً فردياً مباشراً ، وجعل الثواب والعقاب مثلها . ورغب الى المؤمنين أن يأمروا بالمعروف ، وينهوا عن المنكر ، ويميلوا الى العفو ، ويجنحوا الى السلم ، ويعرضوا عن الجاهلين . وطلب اليهم الحزم في المشاكل الدولية وحثهم على التهيؤ لقتال الأعداء ، وأمرهم ببذل الجهد الاقصى في حقل التسلح والتدريب ، وأيد فوق ذلك مبادىء الوفاء بالعهد ، وقبول الصلح الشريف ،واجتناب الخيانة والغدر ، وطلب الى الناس الرضاء والصبر في الضراء وحين البأس ، وجعل الرسول ، احدهم ، « شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً الى الله بأذنه وسراجاً منيراً[1] » رائده الحق ، والحق ما اراد الله « قل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » . فالارادة الالهية هي مقياس الخير والشر ، وهي القوة العاقلة الاولى التي ترسم للانسان هدفه في الحياة ، وتوجه ميوله ورغائبه ، وقد أوضح القرآن الكريم

---

(١) الاحزاب الآية ٤٥ ـ ٤٦

فضيلة التوسط في السلوك ، ووصف موقف « الذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً »

ثم أتى المفكرون الاسلاميون ، وأفادوا من التقاليد العربية الذائعة ، والحكم المتوارثة ، وجمعوا اليها والى تفكيرهم تعاليم السنة والحديث ، وآثار ما اتصل بهم من تراث الحكمة اليونانية والفارسية والهندية ، فصارت الفضيلة في نظرهم وسطاً في جميع الامور . ومن اهم الفضائل التي امتدحوا الشجاعة والعفو والحلم والتواضع والصبر وشرف النفس والحياء والصدق والوفاء والكرم والعدل . قال عربي : « السرور في الدنيا امرأة حسناء ، ودار قوراء ، وفرس مرتبط بالفناء » . وقد جعل ابن مسكويه امهات الفضائل اربعاً ، وجعل جوهر كل منها الاعتدال والتوسط ، وذهب مذهب ارسطو في اعتبار السعادة الرفيعة ماثلة في الحكمة ، واتخاذ الحكمة هدف الحياة ، وحرص كما حرص غيره من فلاسفة المسلمين على التوفيق بين الحكمة اليونانيةوالتعاليم الاسلامية . ولعل الغزالي ، حجة الاسلام ، اوفر هؤلاء المفكرين حظاً من النجاح. وقد أفاد من نبوغ نادر ، وذكاء نافذ ، فأتت آراؤه خير مايعكس المثل الخلقي الاعلى الذائع في جمهرة المسلمين حتى يومنا هذا . وقد أُخذ الغزالي بسحر التناظر الرياضي وشغف بالتقسيم والارقام ، وجعل انواع الفضائل ست عشرة تتوزعها اربع مراتب ، وخلاصة هذه الفضائل في رأيه : الصحة والقوة والجمال وطول العمر . ثم المال والاهل والعز وكرم الأرومة . ثم الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة . ثم تأتي مرتبة الميزات الاسلامية بوجه التخصيص ، وهي اربع فضائل ايضاً : هداية الله ، ورشده وتسديده وتأييده . وجميع هذه الفضائل توصل الى السعادة في الدارين والسعادة الاخروية هي الخير القصي ، والمتعة التامة ، والبقاء الذي لافناء له ، والسرور الذي لايخالطه غم، والعلم الذي لا جهل معه ؛ والسعيد هو من تحلى بالخيرات السابقة كلها ، وتدرج في مسالكها ، حتى يبلغ طريق السادة المتصوفين ، وقوامها التأدب بآداب الرب ، وسبيلها التخلية والتحلية والتجلية ، ولا بد للانسان الكامل في نظر الغزالي من قطع علاقاته بالناس ، والاقبال على الله تعالى بالهمة التامة ، والعزم الجاهد الصابر ، حتى

تفيض الرحمة من اللدن لأعلى ، ويتكشف سر الملكوت ، وهذا هو عين السعادة وغاية ما يتمنى الانسان ، وهي النعيم المقيم ، مما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

والحق ان الحضارة العربية لم تكتف بهذا الانموذج الديني من المثل الخلقي الاعلى ، وانما عرفت اتجاهات انسانية فكرية ، ونحا فريق من الباحثين منحى علمياً ، ونظروا الى الناس جميعاً نظرتهم الى وحدة طبيعية تؤلف بينها الصور الانسانية على الرغم من اختلاف العرق والجنس والوطن واللغة والطائفة والدين . ودعا بعضهم مثل (اخوان الصفا) الى مثل اعلى موحد يصلح للانسان في كل زمان ومكان ، وهذا المثل العام الرفيع يتخذ الاتحاد والتآخي والصداقة غاية مابعدها غاية ، وقد اعتبر اصحابه ان مصدر البلاء ماثل في تفاوت وجهات النظر لدى الناس ، ورأوا ان الخير هدف في ذاته ، وقالوا ان الخير يسمو عن الأثرة ، ويتجرد عن صيغ التقليد والبيئة والتربية ، « فكل شيء — عندهم — يراد من اجل الخير ، والخير يراد من اجل ذاته ، والخير المحض هو السعادة ، والسعادة تراد لنفسها لا لشيء آخر » ، وسبيل الوصول الى تحقيق الخير هو اتفاق الاصدقاء . وتعاون الخلان ، وتآزرهم « فالاصدقاء هم الاعوان على امور الدين والدنيا جميعاً ، وهم اعز من الكبريت الأحمر ، وان احدهم قرة العين ، ونعيم الدنيا ، وسعادة الآخرة . » فاذا ظفر امرؤ بواحد منهم وجب عليه ان يرجحه على الأهل ، والأقارب ، والعشيرة ، والجيران » ، لان الصديق « خير من الولد ، ومن الزوج » ، ومتى صدقت الصداقة ، وتوثقت اواصر الاخوة ، حصل الكمال في الدنيا وازدهر بين الاخوان الاوفياء التعاون في العلم والمال ، والتآزر في تبادل النصيحة والقوة ، وتحقق بفضل هذه الاشتراكية الشاملة المثل الانساني الاعلى ، وتناغمت الشريعة والفلسفة ، وزال الضلال ؛ والشريعة في رأي (اخوان الصفا) تطهر بالفلسفة اذا اختلطت بها الجهالات ، ومتى انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية ، والشريعة العربية الاسلامية ، تحقق الكمال .

ونتيجة هذا المذهب الموحد ان يستمسك الانسان بفعل الخير ، طلباً للخير ،

وينتقي غصون حزمته المثالية من كل حقل ، فاذا طلب بفعل الخير عوضاً ، أو مكافأة ، او شهرة وجاهاً ، لم يكن مافعل خيراً ، بل نفاقاً ، والمنافق لا يستأهل ان يكون في جوار الروحانيين . ان الجنة قد اعدت في رأي (اخوان الصفا) للانسان الكامل ، والانسان الكامل « هو العالم الخبير الفاضل الذكي المستبصر ، الفارسي النسبة ، العربي الدين ، الحنفي المذهب ، العراقي الآداب ، العبراني المخبر ، المسيحي المنهج ، الشامي النسك ، اليوناني العلوم ، الهندي البصيرة ، الصوفي السيرة ، الملكي الاخلاق ، الرباني الرأي ، الالهي المعارف ، الصمداني » .

انتشر الاسلام في العالم القديم ، وخفقت رايته في شرق البحر المتوسط وجنوبه وغربه ، وذاعت تعاليمه ، وتولدت حضارات اقليمية من حضارته ، وما سقطت القسطنطينية حين فتحها الاتراك حتى انقضى العصر الوسيط ، وحمل كثير من العلماء بذور النهضة الى ايطاليا فأوربا ، وتحرر الفكر الغربي من قيوده بدءً من نور الاندلس ، ونفض عقل الانسان غبار التقليد والجمود ، ومال عن تأمل دنيا القبور ، ورغب عن الجهل والظلام ، واخذ المترجمون ينقلون تراث الثقافة الاغريقية ـ الرومانية ، والثقافة العربية ـ الاسلامية ، وولى الادباء وجههم شطر الطبيعة والفن ، وتركوا المثل الديني يحتضر في اديرة الرهبان ، واتسعت الثورة الانسانية فشملت يقظة الفكر ميادين العلم والادب والفن والدين ، واصبح الانسان محور العناية ، واصبحت الطبيعة جديرة بالاهتمام ، وصارت الحياة الراهنة نقطة الارتكاز المتين . وقد اقبل الرسامون والمصورون والنحاتون على محاكاة الصيغ الجسمية ، وازهر العلم واثمر ، سيما العلم الطبيعي ، واكتشفت الطباعة كما اكتشفت امريكا ، وقويت حركة الاصلاح الديني ، واخذ الناس يحاسبون الكنيسة حساباً يسيراً او عسيراً ، وتزعزت سلطة رجال الدين ، وارتاب المجددون بضرورة وساطة القسس والرهبان بين الله وعباده ، واتضح للناقدين ان الكنيسة لاتحقق المثل الديني الاعلى ، ولا تتحلى بفضائل الزهد والتواضع والعفة ، واكتشف المفكرون عالم الحياة الدنيا ، ورأوا ان الطبيعة اجدر بالعناية ، منها بالامتهان. فتبدل المثل الاعلى ، وصارت الحركة الانسانية حاجة ثقافية ملحة ، حتى جاء القرن

السابع عشر ، فنادى الثائرون بالحرية والعقل ، واحتكم ديكارت الى الحس السليم ، والذوق الفطري ، واعتبره « اعدل الأشياء قسمة وتوزعاً بين البشر » ، وقال باسكال: « إن الانسان قصبة غاب مفكرة ، وانه يعلو على الموت الذي هو قاتله ، لان الانسان يعلم بموته اذ يموت ، والموت جاهل بما يفعل . » وصار الاتزان العقلي صفة الانسان الاعلى ، وصار الانسان الاعلى في نظر الناس هو الرجل المهذب المتمدين ، الذي لايفر من المجتمع ، بل يعيش فيه ، ويعيش لاجله ، وهذا الانسان الاعلى يمتاز باللطف والكياسة والادب واللباقة وحلو الحديث ، وهو الانسان الفكه الذي يقرض الشعر في الصالونات ، ويحترم السيدات في حضرة النساء ، وهو ذاته الرجل الشريف الذي يجيب نداء النبالة ، ويلبي داعي المجد ، ويشعر بالواجبات الاجتماعية شعوراً مرهفاً . يخضع قلبه لعقله ، ويخضع قلبه وعقله معاً لارادته الحازمة ، وارادته الحازمة تلقى اوامرها من تعاليم المجتمع ، كما هو ذائع مقرر معروف .

ثم حمل القرن الثامن عشر الى المثل الرفيع المهذب طابعاً جديداً ، ولقحه بنسغ طيب من الافكار الخصبة ، والمفاهيم النامية ، فانتشر بين الناس ايمان من نوع جديد وهو الايمان بالتقدم والارتقاء ، وصار الانسان واعياً بقدرته وسلطانه ، وتهافتت بقايا المثل اللاهوتي القديم ، وارتضع الناس ثدي العلم والادب ، وضاقوا ذرعاً بالدين ، ورموا به ، ونفروا منه ، وانتشر ما يسمى الالحاد بين الادباء والكتاب ، واصبح السادة الملحدون من قادة الفكر امثال فولتير ورجال الموسوعة وغيرهم يرضون باختراع الاله لاستثمار فكرته كرادع يوجه الجماهير ، وبذا اهبط الكمال من السماء الى الارض ، وصار الكمال انسانياً بل علمانياً ، يتطلع الى الغد اكثر من استمساكه بالامس ، وذاعت فلسفة الانوار ، وجرأ المفكرون على تحطيم اوثان الاقطاعية الفكرية ، والاقطاعية المالية ، والاقطاعية الطبقية ، وغدا التهكم سلاحاً فتاكاً ،وبات (فيجارو) الحلاق الشهير يستعمل هذا السلاح ، ويهزأ من النبلاء قائلا : « لقد كلفوا انفسهم مشقة الميلاد !.. »

ولما اندلعت نار الثورة الفرنسية ، فازت عقيدة الفلاسفة والمفكرين والادباء ، وانتصرت مبادىء العقل والحرية والمساواة في الغرب ، وبلغت النزعة الجديدة ذروتها

في القرن التاسع عشر ، وصاغ العلم في مخبره واحصاءاته حقيقة الانسان ، وعمت المواصلات الفكرية بانتشار الصحف والمجلات ، وتولدت من الاحتكاك الاممي آخر فكرة نعتقد انها المتمم الجوهري للمثل الحديث . وهذه الفكرة الجديدة هي مقابلة الكائن الفردي بالكائن الجمعي ، وموازنة الانسان بالمجتمع ، والشخص بالدولة . وصار الناس يضعون الحقيقة الاجتماعية موضع العناية ، وولدت كلمة جديدة تدل على الفكرة الجديدة ، وهي كلمة القومية ، فأصبحت الامم قوميات ، وغدت القوميات حقائق مذهبية راهنة ، يؤمن بها المؤمنون ، وتراق في سبيلها الدماء ، وبات الضمير القومي ينبوعاً متدفقاً ، عنه تصدر القيم المختلفة ، وفيه تتجلى خصال المثل الأعلى . واخذت الامم تتباهى في الحياة الدنيا ، وتفخر كل امة بثروتها القومية ، وتراثها القومي وتقاليدها القومية ، ولغتها ، بل بعرقها وعنصرها ولونها وهيئة جماجم أبنائها ، وظهرت فكرة التضامن الجمعي ، وهو تضامن في الشعور ، وشعور بالتضامن ونادى (رينان) في جامعة السوربون قائلاً : « ان الانسان ، أيها السادة ، لا يرتجل . والامة هي ، مثل الفرد ، ثمرة ماض طويل من الجهود المبذولة والتضحيات المقبولة ، والاخلاص ، ان الاجداد هم الذين صنعوا منا ما نحن عليه . ان الفكرة القومية لترتكز الى رأس مال اجتماعي ماثل في بطولة الماضي ، وفي رجاله العظام ، وفي المجد ، المجد الحقيقي . ان الحب يتناسب مع التضحيات التي قبلها الانسان ، ومع الآلام التي تحملها . ان الانسان يحب الدار التي بناها والتي يورثها غيره . . . ان الامة روح . بل هي مبدأ روحي ، وهي رابطة عظيمة تتجلى فيها ذكرياب التضحيات الماضيه ، ورغبة الاستمرار في تقديم تضحيات جديدة في الحاضر وفي المستقبل لاعلاء شأنها . . . »

ذاعت الفكرة القومية ، وقامت الحرب العالمية الاولى فالثانية ، ولا نزال نعيش في انتظار الحرب الثالثة القادمة ، وقد تكون الاخيرة ان عم البلاء ، وحصل للانسان الكمال في ابادة الانسان ، وما زالت المدنية المعاصرة تثير قضية الاوطان ، وتبحث في حقيقة القوميات ، بحثاً ملحاً ناشطاً ، وقد نشأت عن هذا البحث اراء كثيرة ، ومذاهب متباينة ، ودول واحزاب ، لقد كانت كرامة الانسان ذائبة في بوتقة العشيرة ، وأصبح

الانسان الكريم اليوم هو المواطن الذي يعيش في دولة حرة تضمن له حريته وكرامته وسعادته، وحقه ان يكون حراً كريماً سعيداً .

انا نجد قادة الفكر في العالم يعنون الآن، اكثر ما يعنون، برفع مستوى المواطنين وحذف آثار الظلم الاقطاعية والحرمان ، وقد تجسمت القيم الجمعية الى جانب قيمة الافراد ، واختلفت الاتجاهات في رسم حدود كل منها بالاضافة الى غيرها، وصار عقل الانسان مطبوعاً بطابع حياته الراهنة الواقعية ، وصارت الحكمة شيئاً انسانياً ، ومن صنع الانسان . فالحكمة ليست التأمل ، وليست التصوف، بل هي الاتفاق على المثل الأعلى، والعمل على تحقيقه ، بما يوافق نواميس الكون الطبيعي والكون الاجتماعي. وصرنا نعرف نزعات الانسان الحزبية في سائر أقطار الدنيا ، فنجد صور المثل الاعلى في الاشتراكية او في الفاشستية او في الدولية او في الاممية والعالمية. وغدت كلمة الاشتراكية مثلا ، تثير عناية الناس جميعاً ، وتلقى عطف الاحزاب والجماعات والهيآت والدول ، حتى في بلادنا الآن، على الرغم مما يفصل بين هذه الاحزاب والجماعات والهيآت والامم. ولكن أمراً واحداً يود ان يجمع هذه النزعات المتفاوتة ، وهو التصريح بانها كلها تطلب الالتئام في ظل المواثيق القانونية ، والضمانات الجمعية ، واننا نجدها تتزاوج عن محبة او كره ، في منظمة الامم المتحدة ، وتبتهج اذا راجت سوق الامن والسلام في مجلس الامن والسلام ، وفازت الحرب الباردة التي لا تزال نارها تستعر تحت الرماد، وستظل هذه الحرب ناشبة حتى يبلغ الانسان شأوه ، فيتكامل تطور المثل الاعلى ، أو يفنى دفعة واحدة مع الارض والانسان .

وفي انتظار النتيجة ، اية نتيجة كانت ، لا بد للقادة والمفكرين في شرقنا العربي من الاتفاق حول المباديء القويمة ، والاسس النيرة ، والوسائل الناجعة، والايمان بان الاعاصير لا ترحم ، وأن معيار النجاح رهن بتقدير الامور تقديراً سليما، ووزن الحقائق القائمة بميزان الوقائع . وليس التجاهل والتغاضي والعزلة بالمنقذ من الضلال، والموصل الى ذروة المجد والنجاة والكمال ، ونعتقد ان معرفة الواقع الراهن ، والاحاطة بنماذج المثل الاعلى ، والالمام بوجوهه واحتمالات تكامله وتطوره وتبدله ، شرط من شروط

السلامة؛ فالافكار هي التي تسير العالم اليوم. وهي التي تلقي القنابل الذرية والهيدروجينية في مكان دون مكان ، او تمنع استعمالها قولا وفعلا في كل بقعة وزمان. وقد انهارت الآن جميع الحواجز التي كانت تقف سداً منيعاً دون ذيوع الافكار، وانتشار الآراء، وتعمم المذاهب ، وأصبح الشرق العربي من جديد برزخاً تلتقي فيه نزعات الانتاج الفكري الى جانب الصليبية البترولية والتجارية والصناعية، والابتزاز المادي والروحي . وهذه العوامل المختلفة تكتسح أفكارنا وارضنا ولا يجوز لنا نحن ان نستخف بمركزنا التاريخي والاقتصادي ، وواقعنا المعنوي وآمالنا الزمنية ، واهدافنا الادبية ، وغاياتنا القومية والانسانية، وعقيدتي ان فكرة الوطن ما زالت هي الجديرة بالتقديس والاجلال، وهي موضع المثل الانساني الأعلى اليوم ، والوطن نوع ممتاز من المجتمعات ، وميزته الكبرى انه لا يعترف بالتمايز بين أبناء الامة وأفرادها ، بل هو ساحة تلتقي فيها الجهود مادياً وروحياً ، وخير لهذه الجهود ان تتجه جهة التطور الطبيعي نحو التقدم والرقي والعدالة الاجتماعية؛ فالمواطن في الفكر الحديث شبكة منظمة من الحقوق والواجبات. حريته الصحيحة هي أصل كرامته ، وعمله هو مصدر شرفه ورزقه وحسبه . اما قيمته الاولى ففي ارادته الواعية التي تشعر بذاتها ، وتتحرى كمالها؛ لقد ماتت فكرة الرعية وعاش مفهوم المواطن ، وهو شخص انساني عزيز ، لا يعيش على هامش الحياة ، بل في صميم الوجود ، يرجح جانب التأميم على منحة الارث ، ويفضل العمل والصبر على التواكل والنسب والالقاب .

* * *

يقول زرادشت : « انني أحب من يسعى الى خلق شيء اسمى منه ثم يموت » . والايمان القومي هو اليوم الحقيقة المثلى التي خلقها الانسان الحديث ، وساغ له ان يطمئن اليها ويموت في سبيلها ، ويتخذها نبراساً هادياً محيياً في الحياة، وفي الممات. وحري بالانسان ، انسان الفكر ، ان يعنى بما خلق ، ويعبد ما أحب ، ويخلص في حبه ، وفي عبادته ، واثقاً من مبدأ القوميات . ولئن أثار هذا المبدأ الآن الحرب والضغينة والحقد فما ذلك الا لأن هذا المثل الاعلى الجديد مرحلة ضرورية من مراحل التطور الخلاق ، وسيزول حين يتكامل ، وليس لنا الا ان نقبل قدسيته قبولا حاضراً حتى تبلغ البشرية فوق جسرنا شاطىء النور الامثل ، حيث يحب الانسان اخاه الانسان .

الرياضيات او العلوم الصحيحة (١)

وما سميت بالعلوم الصحيحة الا لموافقتها قواعدها

للاستاذ نادر النابلسي

سأتكلم عن الرياضيات قبل الاسلام وبعده وسأكون منصفاً شأن من يرى في العلم قدسية وفي اصحاب العقول النيرة فضلاً على الانسانية وهم الذين لاتفقد الانسانية بهم سبب وجودها وضرورة خلودها ، فمن هم اولئك الذين اشتغلوا بالعلوم الرياضية قبل الاسلام .

يقول Aldo - Mieli في كتابه الذي عنوانه « العلم عند العرب والدور الذي لعبه في تطور العلم العالمي » قلت يقول « الى القرن السابع من الميلاد ترجع باكورة ثمرات ما يسمونه العلم عند العرب وقد ظلّ هذا العلم حتى القرن الثالث عشر يلعب دوره في نقل العلم الكلاسيكي بل العلم العالمي الى مسيحية القرون الوسطى ومن ثم انطفأ هذا الفكر (وكم حزت في نفسي هذه الكلمة) الذي جعل من العلوم عند العرب حيناً من الدهر (قرابة خمسة قرون) ظاهرة هامة من ظواهر الفكر وتاجاً عملياً مذكوراً .

ثم يرجع بنا هذا العالم القهقرى الى القرن الثامن قبل الميلاد ليتحدث عن ثلاث مجموعات من الأمم مستقل بعضها عن بعض قام فيها البحث عن العلوم وهي :

اهل الصين — الهنود — اقوام حوض المتوسط

فعلى ايّ من علوم هذه الأمم اسس العرب علومهم وذلك في بدء نشوء العلم عندهم وخلال تطوره ؟ وما القدر الذي استعاروه منها والآخر الذي اهملوه .

---

(١) القيت على مدرج الجامعة السورية الكبير مساء الاربعاء في ١٩٥٠/٤/٢٦

يقول لندع جانباً، خلال نظرتنا الاجمالية ، العلم في الصين اذ يبدو أنه لم يكن له أثر ما في العلم عنـد المسلمين حتى انه لم يرد منه شيء تذكره كتب الهنود او اقاصيص السياح .

أما العلم عند الهنود فله اثر في حضارة الاسلام ويكفي لقبول هذه الفكرة الرجوع الى كتاب البيروني عن الهند . وليس هنالك مؤلف البيروني وحده بل هنالك مؤلفات هندية معرّبة أو منقولة الى الفارسية وهي ترجع الى القرون الخمسة أو الستة الأولى من مولد الاسلام .

ويتابع فيقول إن فقـدان الدلالة الزمنية على مؤلفات الهنود رغم ذيوع شهرة بعضها وكبير اهميته يجعل إسناد المعلومات الواردة فيه الى الهنود أو الى غيرهم من الأمم أمراً صعباً فما نسميه بنظرية فيثاغورس مثلاً كان معروفاً من زمن قصي عند الهنود وعند أمم حوض البحر المتوسط وليس بمقدورنا ان نقطع باسناد هذه النظرية الى امة بعينها ، ودون تنقص لـكل ما أسـداه علم الهنود الى الحضارة العربية فانه يمكن الاعتراف بأن لحضـارة المتوسط الأثر الاكبر في حضارتنا وذلك لسببين اثنين أولهما وفرة الكتب وبالتالي المعلومات المسرودة في بطونها . ثانيهما : انتشار العلم في عـالم الاغريق والرومان آنئذ ولمستواه الرفيع الذي كان عليه بالنسبة الى ما كان عليه عند الأمم الأخرى .

فلناق نظرة عجلى على ما وصـل اليه العلم في بلاد حوض البحر المتوسط : وإذا تركنا جانباً بعض المراكز الثانوية للحضارة فانه يمكن القول بأنه كان هنالك قبـل الفي أو ثلاثة آلاف سنة من تاريخ ميلاد المسيح مركزان للثقافة : قام احـدهما في وادي النيل والآخر عند مصب الفرات والدجلة . ويتابع Aldo - Mieli فيقول ولقد كان لنا الى عهد قريب معرفـة ضئيلة بهاتـين الثقافتين ولكن الكشف عنهما لايزال مستمراً ، وفكّ رموز النصوص الهيروغليفية والمسمارية يزيدنا كل سنة علماً بهما .

ولما كنت اريد الاقتصار على الآثار الرياضية في حديثي هذا فلأنقل بعض ماورد في كتاب تراث العرب العلمي لصاحبه قدري حافظ طوقان اذ يقول :

لقد ثبت للباحثين عن اقدم الآثار الرياضية انها وجدت ببابل ومصر وهنالك دلائل كثيرة لايحيط بها شك في انتقال هذه الآثار الى الاغريق الذين زادوا عليها ، وأبان الاستاذ L . karpinski أن الاتصال بين بابل ومصر واليونان كان موجوداً وأنكر الاستاذ ما ادعاه بعضهم من عدم وجود اتصال بين رياضيات الأمم القديمة كما دحض قول القائل بأن رياضيات المصريين القدماء هي ابتدائية وأن نشوءها كان لحوافز مادية فلنستمع الى الدكتور مصطفى مشرفة اذ يقول في مقدمته على كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي :

من اهم نتائج الابحاث الحديثة في تاريخ العلوم انها كشفت عن اهمية العصرين المصري والاسلامي في تاريخ العلم بمعناه المجرد ، ويتابع فيقول ومن الخرافات التي تنسب الى هرودوتس أن علم المصريين القدماء بالهندسة انما نشأ عن حاجتهم الى توزيع الأراضي على اصحابها بعد ان طغى عليها النيل في سنة من السنين واخفى معالم حدودها هذه الخرافة تجعل علم المصريين القدماء بالهندسة مرتبطاً بغرض عملي بحت ، هو توزيع الاراضي على اصحابها وتنفي عن العقل المصري الرغبة في المعرفة وطلب الحقيقة الهندسية لذاتها واليوم وقد كشف عن قليل من كثير مما عرفه المصريون في العلوم الرياضية قلما يوجد بين الملمين بتاريخ العلوم من لايعترف اعترافاً صريحاً بأن العلوم الرياضية بمعناها البحت كانت تُدرس وتُبحث وتتقدم في العصر المصري، ويستشهد على ذلك بقوله في بردى احميس وجدت معادلة من الدرجة الاولى ذات مجهول واحد وذلك قبل الميلاد بنحو الفي سنة . وبعد هذا التاريخ وقبل العصر الذهبي الاغريقي وجدت معادلات من الدرجة الثانية في الآثار المصرية ، وثبت أن للمصريين علماً بنظرية فيثاغورس والاستدلال على ذلك بوجود مثلثات قائمة الزاوية بالمعنى الهندسي الدقيق في أشكال الاهرام وبوجود مسائل يحتاج حلها الى العلاقة $٦^٢ + ٨^٢ = ١٠^٢$ او $٣^٢ + ٤^٢ = ٥^٢$.

ويقول الاستاذ كاربنسكي بشأن جهود المصريين في الرياضيات :

« ... إنه لمن الاجحاف حقاً ان ينظر الى جهود المصريين في الرياضيات كجهود

امة ابتدائية غير متحضرة ، ليس فيها مايدل على تقدم فكري أوارتقاء ، على حين تقوم امامنا شواهد كثيرة تنطق بفضلهم ونبوغهم ، فهذه اهرامهم ومبانيهم وما فيها من هندسة بالغة وهذه مهارتهم في صناعة الحلي وفي ابتكار الألعاب العقلية وبراعتهم في صناعة النحت واثر ذلك في صناعة اليونان الى آخر مايقول » .

قلتُ إن اقدم الأمم التي خلفت آثاراً في الرياضيات هي بابل ومصر واليونان والهند .

أما بابل فألواح من خرائبها تحكي وهي من الخزف المشوي في النار تقص علينا معرفة أهل بابل بالمتواليات وبالنظام الستيني في تقسيم المحيط وبالنسبة والتناسب والأشكال الهندسية المثلثة والرباعية وبالنسبة التقريبية لطول المحيط الى القطر وما اتخذوه لها من عدد هو ٣ ، وقد تحدثوا عن حساب بعض السطوح .

أما في الفلك فلعلّ عبادتهم لبعض الاجرام السماوية دفعتهم الى الاهتمام به . وظهر لبطليموس من ألواح وصلت اليه أن البابليين كانوا على معرفة بالخسوف وبعض الكواكب والنجوم .

أما الاغريق فقد أخذوا الكثير من المعرفة عن المصريين وكانوا على اتصال بالبابليين وهم الذين وضعوا الهندسة المستوية واقاموا لها البراهين المنطقية على خطوات ورتبوا النظريات والعمليات وبذلك اصبح العالم مديناً لعلماء الاغريق أبد الدهر ، ومن هو الذي لم يسمع بكتاب اقليدس وابوابه المختلفة ، هذا وقد اهتم من علمائهم مينا كيموس واريستوس ، وأقليدس ، وأرخميدس وابولونيوس بمعرفة غير الدائرة من المنحنيات فدرسوا القطوع على انواعها من اهليلجي ومكافيء وزائد وخواصها وينسب الى نيكوميدس أنه اكتشف الـ Conchoïd وهو منحن يمكن بوساطته تقسيم الزاوية الى ثلاثة اقسام متساوية .

أما ديوكلس Diocles فقد أتى بالسيسوئيد .

هذا مايتعلق بالهندسة ، فهل كان لعلماء الاغريق باعٌ في الحساب والجبر طويل مثل باعهم في الهندسة ، كلاّ ؛ ذلك لأنهم لم يظفروا بنظام للعد كالنظام العشري ، يسهل

اعمال الحساب على أن فيثاغورس اشتغل بالاعداد وكان ينظر اليها هو وغيره نظرة تقديس ويرون فيها خواص ومعاني وقد عرفوا كثيراً عن التناسب .

أما الجبر فكانوا يعتبرونه جزءاً من الحساب والذي اهتم به منهم Hippocrates واقليدس وهيرون وديوفانطس وخاصة الأخير إلا أنه لم يكن يعتد بالجذر السالب او الأصم وكان لايجد إلا جذراً واحداً موجباً حتى لو كان للمعادلة جذران موجبان .

وحلّ بعض علماء الاغريق المعادلة من الدرجة الثالثة من النوع البسيط .

ويقال إن علم المثلثات لم يبدأ فعلاً إلا مع Hipparchus الذي وضع مؤلفات يتبين منها أنه عرف بعض النسب المثلثية وعلاقات بعضها ببعض ويؤكد Heath ان هيبارخوس وبطليموس عرفا المعادلة الأساسية في المثلثات :

حا٢ب + حتا٢ب = ١

بعد أن أوجزنا مجهود كل من مصر وبابل والاغريق نأتي الى أثر الهنود في الرياضيات :

اشهر ماعرف عن مجهودهم فيه هو نظامهم العشري في الترقيم فكل رقم له قيمة تتبع موضعه من الأرقام وهذه خدمة جليلة للحضارة والى هذا النظام يعود فضل نجاحهم في علمي الحساب والجبر .

أما اشكال الأعداد فكثيرة عندهم ، وقد اطلع العرب عليها واختاروا منها سلسلتين هي المنتشرتان في اكثر انحاء العالم سنأتي على ذكرهما في حينه .

لقد قطع الهنود في علم الحساب شوطاً بعيداً ، وكانت لهم طرق عديدة لحل المسائل واتبعوا في بعضها طريقة الخطأين ، وكان الدافع اليها التسلية والمتاع العقلي . واشتغلوا بالمتواليات الحسابية والهندسية وبالتباديل والتوافيق والمربعات السحرية .

أما في الجبر فقد عرفوا الأعمال الأربعة وكانوا يضعون لكل مجهول رمزاً خاصاً به ويقول بعض الباحثين إنهم أول من قال بالكميات السالبة وميزوها من الموجبة . وحلوا المعادلات من الدرجة الثانية ، وكونوا من اشكالها المختلفة شكلاً عاماً هو الشكل المعروف وحلوها بطريقة تقرب مما نعرفه لها من حل وكان ذلك في القرن السابع للميلاد

ووجد من علمائهم من قال بوجود جذرين للمعادلة من الدرجة الثانية وقدسبقهم في ايجاد الجذرين الموجبين الخوارزمي ، أما عالمهم Bhaskara (ظهر في القرن الثاني عشر للميلاد) كان يقول بوجود جذرين ولا يأخذ إلاّ الموجب ويدع السالب لعدم موافقته على زعمه .

واشتغلوا بالمعادلات ذوات الحلول غير المعينة والتي يسميها العرب بالسيالة والتي سنأتي على ذكرها .

أما في الهندسة فعرفوا انشاء المربعات والمستطيلات والعلاقات بين الاقطار والأضلاع وتحدثوا عن الأشكال المتكافئة وعرفوا نظرية فيثاغورس واستعانوا بكثير من القوانين الهندسية التي وضعها علماء الأغريق امثال هرون وغيره وحسبوا على اساس معادلة هيرون مساحة الشكل الرباعي المرسوم داخل دائرة وأوجدوا قطريه بالنسبة الى اضلاعه ، ووقعوا في أغلاط كثيرة في مساحات الاجسام وحجومها وكانت قوانينهم مغلوطة واعطوا للنسبة التقريبية قيمة قريبة جداً من القيمة الحقيقية فقد أعطى Aryabhata للنسبة المذكورة ٣،١٤١٦ واستمر اشتغال الهنود بالعلوم الرياضية الى مابعد ظهور الاسلام بثلاثة قرون .

أما في المثلثات فقد عنوا بها واهتموا لها وذلك لاتصالها بعلم الفلك وعرفوا شيئاً عن بعض قوانينها ، اتى على خلاصتها العلامة Smith ، ووضعوا بعض الجدوال المتعلقة بالجيب .

وهنالك أقوام كالصينيين واليابان والرومان اشتغلوا بالعلوم الرياضية ولكن لم يوسم مجهودهم بسمة خاصة فنعرض لها .

* * *

لقد عرضنا عرضاً موجزاً لمجهود بابل ومصر والاغريق والهند في نشوء علم الرياضيات وتبين لنا من خلال هذا العرض ان هذه البلاد لابد ان قد تأثر أهلوها بعضهم ببعض فكان مثلُ ذلك مثلَ الغدير تسقيه العيون التي كثيراً ماتلتقي روافدها .

والتاريخ يؤيد ماذهبنا اليه من ان هذا التراث لم يكن في يوم من الأيام صناعة

عقلية يتقنها قوم دون غيرهم بل كان وسيظل تاجاً لعقول الأقوام التي تهتم بمسائل الهندسة وخواص الأعداد.

بعد استهلالنا بمجهود الآخرين آن لنا ان ننتقل بكم الى مجهود آبائنا العرب ولننقل اليكم بعض ماجمعه الاستاذ قدري حافظ طوقان من أقوال المنصفين من علماء الفرنجة ففيها تعريف بالعرب ورد على جاحدي فضلهم وباخسيهم حقهم.

قال الدكتور سارطون «... يجرّب بعض الغربيين الاستخفاف بما أسداه الشرق الى العمران فيصرحون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة ولم يضيفوا اليها شيئاً ما ... هذا الرأي خطأ ... لو لم تنقل الينا كنوز الحكمة اليونانية لتوقف سير المدنية بضعة قرون، ويمضي الدكتور فيقول ... ولذلك فان العرب كانوا أعظم معلمي العالم في القرون الثلاثة: الثامن، والحادي عشر، والثاني عشر للميلاد»

وقد اعترف سارطون وسمث وكاجوري وبول بأن العرب أخذوا بعض النظريات عن اليونان وفهموها جيداً وطبقوها على حالات كثيرة مختلفة ثم كونوا من ذلك نظريات جديدة وبحوثاً مبتكرة فهم بذلك قدموا للعلم خدمات جليلة لاتقل عن التي أتى بها كبار رجال الاختراع والاكتشاف في الغرب.

قال احد علماء الفرنجة إن بعض الابتكارات والاختراعات حسبناها من عملنا وحدنا فثبت بعد قليل أن العرب سبقونا اليها.

قال فلوريان «... كان للعرب عصر مجيد عرفوا فيه بانكبابهم على الدرس وسعيهم في ترقية العلم والفن ولا نبالغ اذا قلنا إن اوروبا مدينة لهم بخدمتهم العلم تلك الخدمة التي كانت العامل الأول والأكبر في نهضة القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد»

قال ويلز «... كانت طريقة العربي أن ينشد الحقيقة بكل استقامة وبساطة وان يجلوها بوضوح وتدقيق غير تارك منها شيئاً في ظل الابهام. فهذه الخاصة التي جاءتنا نحن الاوروبيين من اليونان وهي نشدان النور انما جاءتنا عن طريق العرب ولم تهبط على أهل العصر الحاضر عن طريق اللاتين ...»

مما لاشك فيه أن الحضارة العربية كانت حلقة الاتصال بين حضارة اليونان وحضارة العصر الحاضر فهم الذين حفظوا علوم اليونان من الضياع وهم الذين نقلوها مع

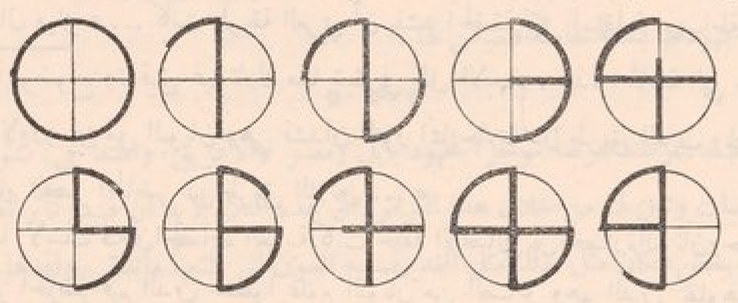
اضافات كثيرة الى اوروبا عن طريق الاسبان ويعترف كارادوفو بأن الرومان لم يحسنوا حفظ تراث اليونان بل العرب هم الذين حفظوه ولم يقفوا عند هذا الحد بل تعدوه الى ترقية ما اخذوه والى تطبيقه باذلين الجهد لتحسينه وانمائه حتى اسلموه الى العصور الحديثة .

العرب والحساب

اقتبس العرب ابان الفتح الاسلامي فكرة حساب الجمل عن البلاد التي استولوا عليها ثم استعاضوا عن هذا النظام بالنظام الهندي في الترقيم الذي يجعل للرقم قيمة تتبع وضعه في صف الأرقام وهذا النظام يعرف الآن بالنظام العشري وكان للهنود اشكال عديدة للأرقام هذب العرب بعضها وكونوا منها سلسلتين عرفت احداهما بالارقام الهندية وهى المستعملة في بلادنا واكثر الاقطار الاسلامية والعربية (وسميت ايضاً بالعربية الشرقية) وعرفت الثانية بالغبارية (او العربية المغربية) لانتشار استعمالها في بلاد المغرب والاندلس والأخيرة هي التي دخلت الى اوروبا وهى معروفة عندهم الى يومنا هذا بالأرقام العربية .

قال البيروني : ان الارقام الغبارية هى احسن ماعند الهنود ويرى بعض العلماء ان السلسلة الغبارية مرتبة على اساس الزوايا .

ويرى بعضهم نشوءها عن الدائرة وقطريها :



أما اصل تسميتها بالغبارية فلأن اهل الهند كانوا يأخذون غباراً لطيفاً يبسطونه على لوح من الخشب أو غيره (مماهومستوٍ)ويرسمون عليه الأرقام التي يحتاجون اليها في عملياتهم الحسابية ومعاملاتهم التجارية .

كان الهنود يستعملون كلمة çunya أو الفراغ للدلالةعلى معنى الصفرولرسم الصفر استعملوا النقطة كما استعملوا الدائرة ٥ .

وفي اول الأمر لم يأخذ العرب بالدائرة لمشابهتها الرقم ٥ بل استعملوا الصفر ثم كان ان اختيرت النقطة لتكون في الارقام الهندية والدائرة لتكون في الارقامالغبارية ومع ذلك في بعض المخطوطات عثر على المدورة في الارقام الهندية للدلالة على النقطة كما رسمت الخمسة هكذا ٥ .

وكلمة صفر قد تكون تحريفاً من كلمة çunya كذلك Zéro .

أما فاصلة الكسر العشري فلا ما يؤكد استعمال العرب لها وقد وضع الكاشي قيمة π هكذا :

صحيح

٣ ١٤١٥٩٢٦٥٣٥٨٩٨٧٣٢

وحسابهم غباري وهوائي بمفهومها الواضح والثاني يعرف الآن باسم الحساب الذهني . وقد يكون من الخير لنا ان نتبنى بعض طرق العرب والفاظهم فنودعها مؤلفاتنا .

توسع العرب في بحوث النسبة وقالوا انها عددية وهندسية وتأليفية واجادوا في موضوعات التناسب وكيفية استخراج المجهول .

ومن طرقهم في استخراج المجهولات طريقة الاربعة المتناسبة كما نعرفها وطريقة الخطأين وطريقة التحليل بالتعاكس .

وها نحن اولاء نورد مثالاً على كل من هاتين الطريقتين بلغة العرب :

من متن النزهة لابن الهائم

١٨		
٣	٦	٦٠ ــ ١٥ = ٤٥
١٠	٥	٤٥ ÷ ٥ = ٩ وهو المطلوب .

تصور ميزاناً هكذا

ولتكن المسألة مال زيد عليه ثلثاه وثلاثة فحصل ١٨، كم هو ؟ تضع المفروض ١٨ على قبة الميزان وترسم في احدى الكفتين عدداً ما وتعمل فيه بحسب الفرض الى الانتهاء وتقابل بالمنتهى اليه ماعلى القبة فان ساواه فمارسمته المطلوب والا فاثبت الخطأ الزائد فوق الكفه والناقص تحتها ثم ارسم في الكفة الاخرى عدداً آخر وتصرف فيه بحسب السؤال فان انتهت الى مثل ما على القبة فالمرسوم ثانياً هو المطلوب والا فأثبت خطأه كما مر ثم اضرب مرسوم كل كفة في خطأ الاخر واقسم مابين الحاصلين على مابين الخطأين ان اتفقا زيادة أو نقصاً . والا فمجموع الحاصلين على مجموع الخطأين .

٥	١٨
١٢	٣

١٠

١٠ + ١٢٠ = ١٣٥ ، ١٣٥ ÷ ١٥ = ٩

اما طريقة التحليل بالتعاكس

وقد وردت في كتاب الخلاصة « للآملي » فها كها :

لو قيل ان عدداً ضرب في نفسه وزيد على الحاصل اثنان وضعف وزيد على الحاصل ثلاثة دراهم وقسم المجتمع على خمسة وضرب الخارج في عشرة حصل خمسون »

العمل لحل هذه المسألة على طريقة العرب : هو ان ترجع بالمسألة القهقرى وان تعكس الاعمال فان ضعّف السائل فنصّف وان زاد فانقص أو ضرب فقسم أوجذر فربع أو عكس فاعكس .

العرب والجبر

يقول الاستاذ طوقان «العرب هم اول من اطلق لفظة الجبر على العلم المعروف بهذا الاسم وعنهم اخذ الفرنجة هذه اللفظة Algèbre ، Algèbra بل هم أول من ألّف فيه بصورة علمية منظمة وأول من الف فيه منهم محمد بن موسى الخوارزمي في زمن

المأمون وقد جاء في مقدمة الاستاذين مصطفى مشرفة ومحمد مرسى احمد على كتاب الجبر والمقابلة جاء فيها .

أما على اثر الخوارزمي وشهرته عند الافرنج فيكفى للتدليل عليها ان اسمه صار كلمة في معاجم اغلب لغات العالم ففي الانجليزية تستخدم كلمة Algorithm محرفة عن اسمه وكانت الاعداد ١،٢،...،٨،٩،٠ الى اوائل القرن الثامن عشر تسمى باللاتينية Algorismus كما ان الكلمة الاسبانية التي معناها الاعداد أو الارقام هى guarismo .

وهذه النسخة المذكورة مأخوذة عن مخطوط كتب في القاهرة وهو محفوظ با كسفورد ولم تنشر النسخة العربية الا مرة واحدة عام ١٨٣١ قام بنشرها فردريك روزن وطبعت بلندن ونشر معها ترجمة انجليزية وتعليق باللغة الانجليزية ، ونشر marre الفرنسي فصل المساحات منها .

وقد ورد في كتاب الفهرست لابن النديم الذي تم تأليفه سنة ٩٨٧ ميلادية مانصه :

الخوارزمي واسمه محمد بن موسى واصله من خوارزم وكان منقطعاً الى خزانة الحكمة للمأمون ، وهو من اصحاب علوم الهيئة ، وكان الناس قبل الرصد وبعده يعولون على زيجيه الأول والثاني ويعرفان بالسند هند وله من الكتب كتاب الزيج نسختين اولى وثانية وكتاب الرخامة وكتاب العمل بالاسطرلابات .

ولا يعلم على وجه التحقيق تاريخ ولادة الخوارزمي ولا تاريخ وفاته الا ان ما ورد في فهرست ابن النديم عن انقطاع الخوارزمي الى مكتبة المأمون الذي حكم من سنة ٨١٣ الى سنة ٨٣٣ بعد الميلاد يدلنا على عصر اشتغال الخوارزمي ، بالعلم والادب

قال الخوارزمي في مقدمته :

الحمد لله على نعمه بما هو أهله من محامده ... الى ان يقول ولم تزل العلماء في الازمنة الخالية والامم الماضية يكتبون الكتب مما يصنفون من صنوف العلم ووجوه الحكمة نظراً لمن بعدهم واحتساباً للأجر بقدر الطاقة ورجاء ان يلحقهم من اجر

ذلك وذخره وذكره ويبقى لهم من لسان الصدق مايصغر في جنبه كثير مما كانوا يتكلفونه من المؤونة ويحملونه على انفسهم من المشقة في كشف اسرار العلم وغامضه ، إما رجل سبق الى ما لم يكن مستخرجاً قبله فورثه من بعده ، واما رجل شرح مما ابقى الاولون ما كان مستغلقاً فأوضح طريقه وسهل مسلكه وقرب مأخذه ، واما رجل وجد في بعض الكتب خللا فلم شعثه وأقام أوده وأحسن الظن بصاحبه غير راد عليه ولا مفتخر بذلك من فعل نفسه ...الخ .

لنعد الى الآملي في معنى كلمتي الجبر والمقابلة « قال وتستعمل ما يتضمنه السوآل سالكا على ذلك المنوال حتى تنتهي الى المعادلة ، والطرف ذو الاستثناء تكمله وتزيد على الآخر وهو الجبر .»

«والاجناس المتجانسة في الطرفين تسقط منها وهو المقابلة »

ويقول الخوارزمي إني وجدتُ الأعداد التي يحتاج اليها في حساب الجبر والمقابلة على ثلاثة ضروب جذور وأموال وعدد مفرد لاينسب الى جذر ولا الى مال .

فالجذر منها كل شيء اعد ليضرب في نفسه ، والمال كل ما اجتمع من الجذر المضروب في نفسه والعدد المفرد كل ملفوظ به من العدد بلا نسبة الى جذر ولاالى مال.

وها أنا أقرأ عليك معادلة أتى بها الخوارزمي :

مال	و	عشرة أجذاره	يعدل	تسعة وثلاثين درهما

$$س^٢ + ١٠ س = ٣٩$$

وبابه (اي الحل)

ان تنصف الاجذار ٥

فتضربها في مثلها $٥^٢ = ٢٥$

فتزيدها على التسعة والثلاثين $٥^٢ + ٣٩ = ٦٤$

فتأخذ جذرها $\sqrt{٥^٢ + ٣٩} = ٨$

فتنقص منه نصف الاجذار $٨ - ٥ = ٣$

فيكون الجذر $= ٣$

ويكون المال $= ٩$.

وقد تنبه الخوارزمي الى الحالة التي يستحيل معها الحل فسماها المعادلة المستحيلة وظل اسمها كذلك بين علماء الرياضيات الى أواخر القرن الثامن عشر عندما بدىء البحث عن الكميات التخيلية على أيدي كاسبار وجان روبير ارجان .

هذا ويقول كارادوفو ان التباين الكلي بين جبرى الهنود والعرب قائم على طريقة حل المعادلة من الدرجة الثانية وعلى تعليل الاشارتين المختلفتين ± والطريقة تحليلية عند الهنود ، هندسية عند العرب ويصف كارادوفو الطريقة الاخيرة بقوله .

Il faut reconnaitre d'ailleurs que cette solution géomètrique est fort belle et que son exposé fait honneur aux mathématiciens arabes .

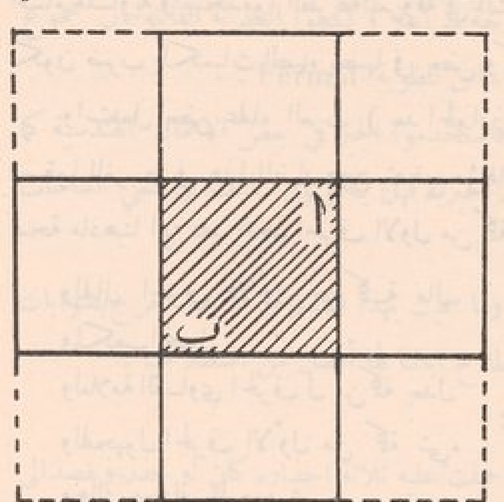
فلنورد الحل الهندسي هذا وبلغة الخوارزمي.

يقول فأما علةُ مالٍ وعشرة اجذار تعدلُ تسعةً وثلاثين درهماً فصورة ذلك :

سطحٌ مربع : مجهول الأضلاع نريد معرفته ومعرفة جذره .

يقول الخوارزمي :

« كل ضلع من أضلاعه اذا ضربته في عدد من الأعداد فما بلغت الأعداد فهي اعداد جذور ، كلُ جذر مثل جذر ذلك السطح ، فلما قيل ان مع المال عشرة اجذاره اخذنا ربع العشرة وهو اثنان ونصف وصير كل ربع منها مع ضلع من أضلاع السطح فصار مع السطح الاول اربعة سطوح متساوية طول كل منها مثل جذر السطح أ ب وعرضه اثنان ونصف ، ويقول حدث



سطحٌ متساوي الاضلاع مجهولٌ ايضاً ناقص في زواياه الأربع ، في كل زاوية من النقصان اثنان ونصف في اثنين ونصف فصار الذي يحتاج اليه من الزيادة حتى

يتربيع السطح اثنان ونصف في مثله اربع مرات ومبلغ ذلك جميعه خمسة وعشرون .

وقد علمنا ان السطح الاول الذي هو سطح المال والاربعة السطوح التي حوله وهي عشرة أجذار ، الشكل ٣٩ فاذا زدنا عليه الخمسة والعشرين التي هي المربعات الاربع التي هي على زوايا سطح أ ب تم تربيع السطح الاعظم وقد علمنا ان ذلك كله اربعة وستون ، واحد اضلاعه جذره وهو ثمانية فاذا نقصنا من الثمانية مثل ربع العشرة مرتين من طرفي ضلع السطح الاعظم وهو خمسة بقي من ضلعه ثلاثه وهو جذر ذلك المال .

ثم يستدرك فيقول انما نصفنا العشرة الاجذار وضربناها في مثلها وزدناها على العدد الذي هو ٣٩ليتم لنا بناء السطح الأعظم بما نقص من زواياه الاربع لان كل عدد يضرب ربعه في مثله ثم في اربعة يكون مثل ضرب نصفه في مثله فاستغنينا بضرب نصف الاجذار في مثلها عن الربع في مثله ثم في اربعة وفي الشكل السابق صورته .

ولم يغفل الخوارزمي عن ذكر حالة تساوي الجذرين ايضاً .

استعمل العرب منحني نيكوميدس اى الـ(Conchoïd) في تقسيم الزاوية الى ثلاثة أقسام متساوية واستخدموا الطريقة المعروفة في انشاء الشكل الاهليلجي وأبانوا كيف يكون ضرب الكميات الصماء بعضها في بعض وكيف تجمع وتطرح وتقسم .

واستعمل بعض علماء العرب (بعد الخوارزمي) الرموز في الاعمال الرياضية وسبقوا الغربيين في هذا المضمار ومن يتصفح مؤلفات أبي الحسن القلصادي يتبين منها صحة ماذهبنا اليه فقد اتخذ الحرف الاول من كلمة ج للجذر اي مايقابله $\sqrt{\ }$

ولمال الحرف الأول من كلمة مال	مـ
ولمكعب المجهول	ك
ولعلامة التساوي الحرف ل من كلمة يعدل	ل
وللمجهول الحرف الأول من كلمة شيء	س

وهاك معادلة بالرموز :

مـ		س	
٥	ل	١٢	٥٤

وحل العرب معادلات من الدرجة الثالثة وقد أجادوا في ذلك وابتكروا ابتكارات قيمة هي محل اعجاب علماء اوروبا ، قال كاجوري « ان حل المعادلات التكعيبية بوساطة قطوع المخروط من أعظم الأعمال التي قام بها العرب »

وقد حاولوا أن يحلوا المسألة الآتية :

« كيف تجد ضلع مسبع منتظم على ان يكون انشاء الضلع من المعادلة الآتية :

$$س^٣ - س^٢ - ٢س + ١ = ٠$$

وقد جرب ان يحلها كثيرون واخيرا توصل ابو الجود (وهو من علماء القرن العاشر للميلاد) الى حلها رغم صعوبتها .

وثبت ان ثابتاً بن قرة اعطى حلولا هندسية لبعض المعادلات التكعيبية وكذلك نجد ان ابا جعفر الخازن والخيام حلا بعض المعادلات بوساطة قطوع المخروط، كذلك نجد ابا الخازن والخجندي وابن الهيثم وغيرهم اخذوا بعض حالات للمعادلات التكعيبية وحلوها هندسياً .

وحلوا بعض المعادلات من الدرجة الرابعة وكشفوا النظرية القائلة بأن مجموع مكعبين لا يكون عددا مكعبا وهي اساس لنظرية Fermat .

فهم جمعوا بين الهندسة والجبر ، فاستخدموا الجبر في بعض الاعمال الهندسية كما استخدموا الهندسة لحل بعض الاعمال الجبرية فهل يكونون بذلك واضعي اساسات الهندسة التحليلية ؟

وقد عني العرب بالمسائل السيالة وما سميت بهذا الاسم الا لأنها تخرج بصوابات كثيرة ونسميها الآن بغير المعينة واصطلاح ابائنا لها أفضل من اصطلاحنا .

وقد حل ابن بدر المسألة الآتية :

اذا قيل لك مال له جذران ان حملت عليه ثلاثة اجذاره كان له جذر ويقصد الى حل المعادلة $س^٢ + ٣س = ص^٢$.

وبحث العرب عن نظرية ذي الحدين وقد فك اقليدس مقداراً جبرياً ذا حدين

اسه اثنان وأما كيفية العمل لفك قوة اسها اكبر من اثنين لمقدار جبري ذي حدين فلم تظهر الا في جبر الخيام .

وقد ترجم العالم Woepcke كتاب الخيام في الجبر في منتصف القرن التاسع للميلاد.

وقد عني العرب بالجذور الصماء وكان الخوارزمي أول من استعمل كلمة اصم لتدل على العدد الذي لا جذر له. واستخرج الآملي القيم التقريبية للجذور الصماء بطرق خاصة.

سادتي وسيادتي لقد خلف اباؤنا ذكراً كريماً وتركوا بين أيدينا تراثاً جليلاً يجب علينا حفظه وتنميته، فعلى أبناء الجامعة السورية ان يساهموا في الانسانية بعمل يحيي في نفوس الجيل الناشيء من العرب تالد الامجاد والسلام عليكم .

❀❀❀

احكام المنازعات القانونية الواردة في

القانون المدنى السوري

لعميد كلية الحقوق الاستاذ الدكتور سامي الميداني

القسم الاول

بيان المواد المتعلقة بالقانون الدولي الخاص الواردة

في القانون المدني السوري

١ — الحق والقانون :(التنازع القانوني)

١ = التنازع بين النصوص (المادة الثانية).

٢ = التنازع بين الاعمال المشروعة وغير المشروعة (الاحتيال على القانون) (المادتان ٥ و ٦).

٣ = في التطبيق من حيث الزمان : المنازعات القانونية (المادة ٧) المنازعات القضائية (المادة ٢٣) المنازعات القانونية الدولية (المادة ١٢ ومابعدها) المنازعات القانونية الداخلية (المادة ٢٨) النعت القانوني(المادة ١١) الاحتيال (المادتان ٥و٦) المصلحه القوميـة (المادة ١٢) منـع الاحالة الدولية (المادة ٢٩) النظام العام (المادة ٣٠) .

٢ — المنازعات في الجنسية (المادة٢٧)

٣ — المنازعات في المقام

الموطن للافراد العاديين والحكميين (المادة ٤٢) الشركات الاجنبية المستقرة في

سورية (المادة ٥٥) الحق المكتسب : في الاهلية (المادة ٧) في التقادم (المادتان ٨ و ٩) في الادلة (المادتان ١٠ و ٢٤).

٤ — المنازعات التشريعية في الاحوال المدنية للاشخاص العاديين الحكميين (المادة ١٢)

الاهلية (المادة ٧) صحة الزواج (المادة ١٣) آثار الزواج ـ الطلاق ـ النفقة (المواد ١٤ و ١٥ و ١٦) الولاية ـ الوصاية ـ القوامة (المادة ١٧).

الميراث ـ الوصية ـ شكلها ـ التصرفات المضافة الى مابعد الموت (المادة ١٨).

الملكية العقارية ـ الحيازة ـ الحقوق العينية الاخرى (المادة ١٩).

المنقول ـ الحيازة ـ الملكية ـ الحقوق العينية الاخرى (المادة ١٩)

الالتزامات التعاقدية (المادة ٢٠).

اشكال العقود (المادة ٢١) .

الالتزامات غير التعاقدية ـ الفعل الضار الجائز في سورية (المادة ٣٢) .

٥ — المنازعات القضائية (المادة ٢٣).

٦ — اصطدام القوانين الخاصة مع المعاهدات (المادة ٢٥).

الرجوع للقانون الدولي الخاص (المادة ٢٦).

حرية التعاقد (المادة ٩٦).

التعاقد بين الغائبين (المادة ٩٨) .

الارث — تعين الورثة وانصبائهم ـ التوارث في العقارات ـ الوصية ـ الوصية للاجنبي (المواد ١٨ و ٨٣٦ و ٨٧٦) .

٢ — القسم الثاني

ترتيب اجمالي للاحكام القانونية الدولية الخاصة الواردة في القانون المدني السوري

٢ — ١ — المنازعات القانونية الداخلية :

آ — النصية — نصوص صريحة — نصوص متعارضة — نصوص تجديدية — (المادة الثانية) .

ب — القانونية = عند تعدد القوانين الداخلية (المادة ٢٨).

ج — الفعلية = عند الاضرار بالغير — وعدم تناسب المصالح مع الاضرار — عدم مشروعية الاهداف (المادتان ٥ و ٦) .

د — الزمنية = في الاهلية وفي التقادم والادلة (المواد ٧ و ٨ و ٩ و ١٠ و ١٢ و ٢٤) .

٢ — المنازعات القانونية الدولية :

١ — في التكييف او النعت القانوني (المادة ١١).

٢ — العمل باحكام القانون الدولي الخاص (المادة ٢٦).

١) المكانية آ = التشريعية : آ — في الاحوال المدنية :

آ — الاهلية للاشخاص (المادة ١٢) ٢ — الاهلية للزوجين (المادة ١٣) ٣ — صحة الزواج (المادة ١٣) ٤ — آثار الزواج (المادة ١٤) ٥ — الطلاق والفراق (المادتان ١٤ و ١٥) النفقة (المادة ١٦) الوصاية والولاية (المادة ١٧) الارث والوصاية (المواد ١٨ و ٨٣٦ و ٨٧٦) .

ب — الاحوال العينية (المادة ١٩) .

ج — التعاقدية : موضوعها (المادة ٢٠) شكلها (المادة ٢١) ٢ — غير التعاقدية (المادة ٢٢) .

ب = القضائية : شكلها (المادة ٢٣) الدليل (المادة ٢٤) .

٢) المنازعات النصية الدولية: بين القوانين الداخلية والاتفاقات الدولية(المادة٢٥).

٣) المنازعات الجنسية : المنازعات الايجابية والسلبية (المادة ٢٧).

٤) المنازعات الموطنية ! للاشخاص العاديين والحكميين في المنازعات السلبية والايجابية (المادة ٥٥) .

٥) القيود الواردة على العمل بالقوانين الاصلية :

١ — النظام العام (المادة ٣٠) .

٢ — الاحتيال (المادتان ٥ و ٦) .

٣ — المصلحة القومية(المادة ١٢).

٤ — الاحالة(المادة ٢٩).

ارقام المواد بالتسلسل				الاجمال
٢ — نصية	١٢ — شخصية	٢٠ — مكانية	٢٨ — مكانية	٣ — نصية
٥ — عملية	١٣ — 〃	٢١ — 〃	٢٩ — 〃	٥ — زمنية
٦ — 〃	١٤ — 〃	٢٢ — 〃	٣٠ — 〃	٧ — شخصية
٧ — زمنية	١٥ — 〃	٢٣ — 〃	٤٢ — 〃	٢٠ — مكانية
٨ — 〃	١٦ — 〃	٢٤ — 〃	٥٥ — 〃	
٩ — 〃	١٧ — 〃	٢٥ — 〃	٩٦ — 〃	
١٠ — 〃	١٨ — 〃	٢٦ — 〃	٩٨ — 〃	
١١ — مكانية	١٩ — مكانية	٢٧ — 〃	٨٣٦ — مكانية	
			٨٧٦ — 〃	

٣ ــ القسم الثالث

(مقدمة تاريخية للاحكام الدولية في القوانين المدنية في سورية)

٣ ــ لقد خلق الله البشر من ذكر وانثى وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا ويتواصلوا ويتعاونوا على البر والتقوى ثم قسم الارزاق والكفاآت على القارات والمخلوقات مما جعل بعض الناس متفاوتين عن بعضهم الآخر او متجانسين متحدين فتحقق بذلك ناموس تقسيم الاعمال وتبادل الجهود والاموال فبدت آيات التضامن والاستقلال والاكتفاء والاعتزال وعلى هذا النمط تكونت المجموعات البشرية الممثلة بالدول المستقرة في اقاليم معينة والمتجهة نحو مثل عليا متنوعة في ظل شرائع وسلطات متباينة مفطورة على التبادل والتشابك في الاعمال والاعيان مما جمع بين مصالحها والف بين علاقاتها فبدت بذلك منذفجر التاريخ اقوام وجماعات وتيارات واتصالات أدبية ودينية انسانية او دولية تزداد او تتناقص من دون ضابطة ولا رابطة تارة تخضع للمصالح والاهواء وتارة تقف وتهدأ أثر الحروب والانواء حتى قيض الله للبشرية من اهتم بتنظيم هذه التصرفات والعلاقات فنشأت شتى النحل والمذاهب العلمية فمذهب يرى ان الخير كل الخير في اخضاع الروابط بين الناس وما ينجم عنها من مشاكل ومنازعات الى أحكام الشرائع والعادات المحلية من دون قيد ولا شرط وهذا ما عرف بمكانية القوانين Territorialité des lois = Territorialité des droits ومذهب يتمسك بلزوم معاملة الاشخاص اذا كانوا من جنسيات متباينة بحسب أوضاعهم الشخصية الاصلية لانها ما شرعت الا لاجلهم ضاربين بالسيادة المكانية للقوانين المحلية عرض الحائط وهذا ما يدعى بشخصية القوانين Personnalité des lois ومذهب ثالث يقول ان خير الامور الوسط وذلك في التعديل والتوفيق بين المذهبين السابقين شريطة التفريق بين التصرفات المتعلقة بالاشخاص والاموال او العقود والاعمال ولايطبق على الشؤون

المتعلقة بالاحوال الشخصية Statut personnel, loi nationale=lex nationali الا القوانين الاصلية اي (شخصية القوانين) وعلى قضايا الاعيان والالتزامات الا القوانين العينية اي Statut réel=lex situs مكانية القوانين ، راضين في ذلك مطاليب السيادتين الاصلية والمكانية وموفقين بين المصلحتين الوطنية والاجنبية ؛ ولو رجعنا الى ماسنه الاسلام من أحكام في هذا الشأن لوجدناه يقر بسيادة القوانين المكانية على ان يتسامح مع غير المسلمين من وطنيين وأجانب في الشؤون المتعلقة بدينهم ومعاملاتهم المتصلة بـه وذلك بمعالجتها وفقاً لشريعتهم الاصلية اي لمبدأ الشخصية القانونية personnalité de droit اما الغرب فلم يصل الى هذه الحال الابعد مراحل عديدة اقتضت لها عشرات القرون ولقد لبثت البلاد الغربية سائرة على هذا الاسلوب ردحاً من الزمن حتى تطورت النزعات والافكار فتحولت الاوضاع والاحكام فأيدت السلطان القومي واقرت تركيز الشرائع حول احترام السيادة المكانية واعتبار صالح الجماعة هدفاً مثالياً لـكل شريعة ترمي الى توطيد النظام العام اما في البلاد الاسلامية ومنها سورية التي كانت تخضع للقوانين العثمانية والامتيازات الاجنبية فقد لبثت أوضاعها مستسلمة لسلطان الشخصية القانونية حتى في أيام الانتداب حيث كانت تحكم المحاكم المختلطة وفقاً للقوانين القديمة العثمانية من دون ان تسعى السلطات المسؤولة الى اصلاحها الاقليلا.

مع انه سبق للدولة العثمانية حينما اعتزمت انهاء الامتيازات الاجنبية قبيل دخولها الحرب العالمية الاولى ان وضعت قانوناً موقتاً بتاريخ ٢٣ شباط ١٣٣٠ استمدت احكامه من روح الشرائع العصرية المنتشرة في الديار الغربية بشأن معاملة الاجانب بنته على المماثلة والمقابلة واصرت فيه على فض المنازعات القانونية والقضائية وفقاً لاحكام الحقوق الدولية الخاصة وذلك باحترام الشخصية الحقوقية في قضايا الاحوال المدنية ومكانية القوانين في قضايا العقود والالتزامات والاموال والجرائم وأشباهها واعتبار المحاكم الوطنية في مقام المدعى عليه مرجعاً للحكم في الدعوى ولزوم دفع الاجنبي كفالة قضائية حين عزمه على مراجعة القضاء الوطني صيانة لحقوق بيت المال ومطلب المدعى عليه وغير ذلك من القواعد الاصولية التي ما زالت مرعية حتى يومنا هذا في بعض البلاد الراقية

بيد أنه لم تظهر فوائد هذه الشريعة كما كان يؤمل منها لأنها أهملت ولم يعمل بها كما يجب لا في عهد العثمانيين ولا في عهد من قام من بعدهم لان الافرنسيين بعد ان وضعت الحرب العالمية اوزارها رفضوا الاعتراف بالغاء الامتيازات الاجنبية واستبدالها بهذه الشريعة واصروا على التمسك بمبدأ الامتيازات القضائية والحقوقية وبالنظام القضائي المختلط مستندين في ذلك الى أحكام الانتداب التي اعتبرت الامتيازات معطلة غير ملغاة فاسسوا المحاكم السورية الناظرة بالقضايا الاجنبية التي سارت على غرار المحاكم الافرنسية بالعمل بالشخصية الحقوقية فيما يتعلق بالمنازعات القانونية في الاحوال المدنية وفسرت النظام العام السوري وفقاً لمصالح المنتدبين وتمسكت بمبدأ احترام ارادة المتعاقدين تمسكاً واسعاً وبهيمنة السيادة المكانية على الاشكال الخارجية للعقود وغير ذلك من القيود المضروبة حول نطاق الشخصية القانونية وفقاً لنظرية العالم الشهير الاستاذ (آندره فايس) واما بشأن الأموال فقد أخذت تلك المحاكم بالنظرية المكانية ورفضت العمل بالاحالة الخارجية كما انها ابطلت الاعمال المبنية على الاحتيال على القانون بدعوى ان ما بني على الفاسد فهو فاسد .

وقد بقي اجتهاد المحاكم المختلطة سائراً على هذا النمط حتى جلاء الافرنسيين عن البلاد وتوقف المحاكم المذكورة عن العمل وانتزاع البلاد استقلالها التام في القضاء والتشريع حيث ادرك ولاة الأمر منا لزوم تجديد الأحكام القانونية المرعية في البلاد منذ اوائل القرن التاسع عشر ولا سيما الشرائع المدنية فانصرفت الجهود بالتعاون مع كبار المشرعين العرب الى وضع اسس الوحدة التشريعية العربية التي بني عليها القانون المدني الحديث الصادر في ١٨ أيار ١٩٤٩ الذي تضمن كثيراً من الاحكام الناظمة لفض المنازعات القانونية وتعيين كيفية تمتع الاجانب بالحقوق الخاصة شأنه في ذلك شأن كل شريعة مدنية حديثة كالقانون المدني التركي والالماني والسويسري وقد درج في مقدمته اقوم مباديء الحق الدولي الخاص مما جعلنا نقدر قيمة هذه الخطوة الجبارة في سبيل تنظيم التشريع وتحسين سمعة القضاء وتطمين العباد على حقوقهم .

والآن يجدر بنا ان نعرض لأهم ماورد في هذا القانون من الاحكام الحقوقية

الدولية وما تمشى عليه من مناهج ومباديء وما تضمنه من افكار واساليب لنكون مجهزين بما يلزم من الادراك والاطلاع لتفهم شروح المواد المقتطفة منه والمدرجة فيما بعد بغية تحليلها وتفنيدها واحدة فواحدة .

اولا — لقد بنيت اكثر مواد القانون المدني على احترام مكانية القوانين اي احترام القوانين المحلية اذ ان (٢٠) مادة من اصل (٣٠) مادة واردة فيه عالجت قضايا الحقوق الدولية الخاصة بالاستناد الى مكانية القوانين (والسيادة المكانية)
(Territori alité des lois) (Souverainеté territoriale)

ثانياً — اعتبر القانون احكام الحقوق الدولية الخاصة مرجعاً لفض المنازعات القانونية الدولية وهو اتجاه خطير يقضي على كل فوضى في الاجتهاد والتشريع (انظر المادة ٢٦) .

ثالثاً — نص القانون على لزوم الرجوع لاحكام القانون الداخلي عند تعدد الشرائع الداخلية (انظر المادة ٢٨).

رابعاً - اثبت القانون رجحان المعاهدات والاتفاقيات الدولية على القوانين الداخلية (انظر المادة ٢٥).

خامساً — شجب الاحتيال على القانون والتعسف في استعمال الحقوق (المادتان ٣ و ٤) .

سادساً — نبذ مبدأ الاحالة الدولية خشية تطبيقها بالنتيجة على الرعايا السوريين المغتربين (المادة ٢٩).

سابعاً — رفع شأن النظام العام السوري لما في ذلك من صيانة للصالح الوطني (المادة ٣٠) .

ثامناً — اعلى منزلة الجنسية السورية على غيرها عند تنازعها مع الجنسيات الاخرى (المادة ٣٧) .

تاسعاً — ركز النعت القانوني على نصوص القانون السوري لما في ذلك من ضمانة للتشريع والقضاء (المادة ١١).

عاشراً — اخضع اجراءات الدعاوى والمحاكمات للقوانين السورية (المادة ٢٣) ثم قيد الاحوال المدنية والارث والوصية بالشرائع الدينية للسوريين حفظاً للتقاليد الاسلامية واحكام القوانين السورية المرعية (المواد ١٢و ١٣ و١٤ و ١٥ و ١٦و١٧ من القانون) .

احدى عشرة — ميز في النفقة قانون المكلف بها على غيره رفقاً به وقانون المطلوب حمايته في الولاية واشباهها (المواد ١٦ و ١٧ من القانون) .

اثنتا عشرة — نص على ان التصرفات الصادرة عن الاشخاص الحكمية الاجنبية في البلاد السورية خاضعة لقوانين هذه البلاد (المادة ١٢).

ثلاثة عشر — ايد قاعدة المكان يسود العقد لما فيها من سهولة للمتعاقدين وحماية لغيرهم (المادة٢١) .

اربعة عشر — رد الالتزامات التعاقدية وغير التعاقدية لقانون الموطن (المادتان ٢٠ و ٢٢) .

خمسة عشر — اسند مكان التعاقد بين الغائبين لمحل القبول قطعاً لكل خلاف نظري وعملي بين المتعاقدين (المادة ٩٨) .

ستة عشر — ادخل العقود وشبه العقود تحت حكم قانون الموطن المشترك اذا لم يجر اتفاق على خلافه (المادة ٢١) .

سبعة عشر — سلم الحقوق العينية لسلطان المكانية القانونية (انظر المادة ١٩).

ثمانية عشر — دمج الدليل والتقادم والاهلية في الاحكام المبنية على مبدأ احترام الحقوق المكتسبة (المواد ٧ و ٨ و ١٠) .

تسعة عشر — قيد استفادة الاجانب من الارث والوصية والاموال غير المنقولة بالتماثل والتقابل(انظر ٨٣ و ٨٧٦).

عشرون — جعل تعيين الورثة وتقدير حصصهم وانتقال الاموال اليهم من نصيب احكامهم الاصلية الشخصية (المواد ١٨ و ٨٣٦ و ٨٧٦) اما الاموال الكائنة في سورية فهي خاضعة للاحكام الشرعية والقانونية السورية .

٤ - القسم الرابع

شرح اجمالي للاسلوب المرعي في القانون المدني السوري

بشأن المنازعات القانونية

٤ — بعدما اعطينا خلاصة موجزة لما ورد في القانون المدني السوري عن اخطر القواعد بشأن المنازعات القانونية الدولية يجدر بنا ان نشرح الآن هذه المبادىء والاحكام مع تعليل الاسلوب الذي سار عليه القانون في هذا المضمار مشيرين الى مزاياه ونواقصه فنقول ان المشترع على ما يظهر قد قبل اربعة انواع من المنازعات وهي :

اولاً — المنازعات القانونية الداخلية، ثانياً — المنازعات القانونية الدولية او الخارجية، ثالثاً — المنازعات في تعيين الجنسية (منازعات الجنسية) رابعاً — المنازعات في تعيين المقام او المنازعات الموطنية conflit des domiciles باعتبار ان الجنسية والموطن مركز استناد وارتباط للاشخاص في تعيين الوضع الحقوقي .

١ - المنازعات الحقوقية الداخلية

لقد اعتبرنا كل تصادم بين القوانين الصادرة عن السلطات القومية نزاعاً بين القوانين الداخلية يقتضي فيه بذل الجهد لتعيين النص الانسب للعمل به . وقد حصر المشترع هذه المنازعات في حالات اربع وهي :

١ً) التنازع النصي وقد شرحت كيفيتها في المادة الثانية من القانون اذ قال (يقع الالغاء للنص التشريعي : اولا — بنص صريح . ثانياً — بنص يتعارض مع النص القديم . ثالثاً — بتنظيم جديد لنفس الموضوع .

٢ً) التنازع القانوني وقد لخصه بقوله في المادة ٢٨ منه ما يأتي : (عند تعدد الشرائع الداخلية فان القانون الداخلي هو الذي يقرر الشريعة الصالحة للتطبيق) وقد قبل بذلك مبدأ الاحالة الداخلية مع انه رفض الاحالة الدولية كما سنذكر ذلك فيما بعد

٣) التنازع الفعلي الموصوف في المادتين (٥ و ٦) حيث نص على الاستعمال المشروع للحق بانه مبرر ولا يكون صاحبه مسؤولا عن الضرر واما الاستعمال غير المشروع للحق فيقع في احدى الحالات الآتية :

آ — اذا لم يقصد به سوى ايقاع الضرر بالغير ، ب — اذا لم تتناسب المصالح المحققة مع الضرر الواقع ، ج — اذا كانت المصالح المقصود تحقيقها غير مشروعة .

٤) التنازع الزمني — وقد حصره المشترع في الاهلية والتقادم والادلة ، وقال عن فقدان الاهلية اللاحق انه لايؤثر في الاعمال المنجزة وعن التقادم انه خاضع في اكثر حالاته للنصوص التي وقع في عهدها وعن الادلة انها تخضع للنصوص السائدة حين نشأتها وخلال مدة اعدادها (راجع نظرية الحق المكتسب) .

٢ — المنازعات القانونية الدولية

وهي تلك المنازعات الناجمة عن تعدد النصوص لتعدد السلطات والسيادات الصادرة عنها وهي على اربعة انواع ١ — المنازعات المكانية ٢ — المنازعات النصية ٣ — المنازعات الجنسية ٤ — المنازعات الموطنية .

فالمكانية منها اما انها تتعلق بالتشريع او بالقضاء وقبل البدء بذكر الاحكام العائدة لهذه المنازعات لابد لنا من التنويه بالمادة الحادية عشرة من القانون المدني التي تعرضت للنعت القانوني المعروف بالتكييف Qualifi cation فجعلته تابعاً للقانون السوري وقد قسمت المنازعات التشريعية الى اربعة اقسام وهي :

اولا — المنازعات المتعلقة بالاحوال المدنية التي حصرت بالاهلية والزواج والطلاق والفراق والنفقة واصول الحماية (القوامة ، الولاية ، الوصاية) وسلمت للقانون الاصلي للاشخاص مع استثناء الاحوال التي فيها خفاء لايسهل كشفه فانها تتبع القانون السوري ولم يتعرض القانون للنسب لاسباب بقيت مجهولة عندنا . وفي صحة الزواج ذكر لزوم الاستناد للقوانين الاصلية للزوجين اما بشأن آثاره فيرجع بحسب نص المادة الرابعة عشرة لقانون الزوج كما هو الحكم ايضاً في الطلاق والفراق ومع ذلك يرجح العمل بالقانون السوري اذا كان هو احد القانونين المتنازع فيهما وفي

النفقة يعمل بقانون المدين بها واخيراً جاءت المادة الرابعة عشرة وقالت ان الولاية والوصاية والقوامة وغيرها من الاوضاع المقررة لحماية القاصرين والغائبين انما يعمل فيها بقانون الشخص المطلوب حمايته وفي الميراث والوصية عينت المادة ١٨ لزوم التقيد بقانون المتوفى او الموصي على ان يخضع شكل الوصية لقانون مكان تنظيمها وان تراعى بهذا الشأن احكام المادتين ٨٣٦ و ٨٧٦ في الارث العقاري والوصية في البلاد السورية.

ثانياً ـ المنازعات العائدة للاموال فذكرت المادة ١٩ انه يحكم فيها بحسب قانون مكانها.

ثالثاً ـ المنازعات المتعلقة بالالتزامات التعاقدية وغير التعاقدية فيرجع في شكلها الظاهري لقانون مكان التنظيم وفي موضوعها الى القانون المشترك الجامع بين المتعاقدين (سواء اكان الموطن او القانون الاصلي). وبعد ان اتم المشترع سرد هذه الحلول العائدة للمنازعات التشريعية الدولية ذكر في المادتين ٢٢ و ٢٤ من القانون القسم الثاني منها وهي المنازعات المتعلقة بالمحاكمات اي المنازعات القضائية فأقر لزوم العمل بقانون البلد الذي تقام فيه الدعوى ولاجل الدليل بقانون البلد الذي يعد فيه.

وبعد ذلك حل المشترع لنا مشكلة التنازع النصي الممكن الحدوث بين النصوص الداخلية والدولية فرجح الاتفاقات الدولية على النصوص القانونية الداخلية وعند فقدان النصوص فرض على القاضي في المادة ٣٦ منه لزوم العودة لمبادىء القانون الدولي الخاص، ومما لاشك فيه انه عند نضوب هذا المعين الحقوقي الخاص يجدر بالمحاكم الرجوع للنص العام الوارد في المادة الاولى من القانون التي اعتبرت الشريعة الاسلامية. فالعرف ثم القانون الطبيعي واحكام العدالة مرجعا اخيرا للقضاء سواء اكانت القضية المبحوث عنها وطنية أو ذات عنصر اجنبي.

٣ — المنازعات في الجنسية

وفي منازعات الجنسية اعطيت للقاضي بحسب المادة ٢٧ من القانون حرية تعيين القانون الواجب العمل به بشأن من لاجنسية لهم او الذين لهم جنسيات متعددة على أنه ترجح الجنسية السورية اذا كانت احدى الجنسيات المتنازع فيها.

٤ — المنازعات المتعلقة بالموطن

لقد ذكرت المادة ٤٢ من القانون المدني ان الموطن هو المكان الذي يقيم فيه الشخص عادة واباحت هذه المادة وجود اكثر من موطن لشخص واحد كما انه يجوز ان لايكون للشخص موطن ما . اما بشأن الاشخاص الحكميين الاجانب فقد اعتبرت المادة ٥٥ منه ان موطنهم اذا كان نشاطهم ممتداً الى البلاد السورية ، المركز الذي توجد فيه الادارة المحلية ، وبعد ان اتم المشترع تنظيم هذه السلسلة من الاحكام الرامية لفض المنازعات القانونية على اختلاف اشكالها اشار الى القيود الآتية المانعة لتطبيق القوانين الاصلية الاجنبية للاشخاص ولزوم العمل بالقانون السوري في الحالات الآتية :

اولا — اذا تعارضت هذه القوانين مع النظام والآداب العامة المعتبرة في سورية (راجع المادة ٣٠) .

ثانياً — اذا كان الارتباط بهذه القوانين مبنياً على الاحتيال او الاستعمال غير المشروع للحق (المادتان ٥ و ٦).

ثالثاً — اذا كانت احكام القوانين الاصلية المتعلقة بالاهلية محل خفاء وكانت الاعمال المنجزة منطبقة على القوانين السورية (المادة ١٢) وعلى هذا الطراز تكون الاحكام الواردة في قانوننا المدني الحديث جامعة لاحدث النظريات الحقوقية ومنسجمة مع اسلم المبادىء التشريعية والقضائية ولاسيما اذا علمنا ان القانون استوجب بشأن تمتع الاجانب بهذه الحقوق قيد المعاملة بالمثل سواء اكان ذلك بالارث او بالوصية في الاموال الثابتة وغيرها .

والخلاصة لجميع ما ذكرناه سابقاً هي ان قانوننا المدني رجح المكانية القانونية المحترمة في اغلب الاحكام الموضوعة لفض المنازعات القانونية في الوقت الحاضر والتي نحن من أشد انصارها للاسباب الآتية :

كثيرا ما تكون متحولة أو متعارضة أو متباينة يقتضى فيها اتباع قواعد صريحة لترجيحها او قياس بعضها مع البعض الآخر واستبعاد ما بطل حكمه منها .

٢ ــ (التنازع في الاستعمال المشروع وغير المشروع للحقوق)

المادة الخامسة (٥) من استعمل حقه استعمالا مشروعاً لا يكون مسؤولا عما ينشأ عن ذلك من ضرر .

المادة السادسة (٦) يكون استعمال الحق غير مشروع في الاحوال الآتية :

آ — اذا لم يقصد به سوى الاضرار بالغير .

ب — اذا كانت المصالح التي يرمي الى تحقيقها قليلة الاهمية بحيث لا تتناسب البتة مع ما يصيب الغير من ضرر بسببها .

ج — اذا كانت المصالح التي يرمي الى تحقيقها غير مشروعة .

وضع الشارع هذه الشروط الثلاثة للتفريق بين الاستعمال المشروع وغير المشروع ولما كانت هذه الشروط نفسها هي التي يعول عليها في التفريق بين الاستعمال البريء اي (بحسن نية) والاحتيال على القانون الكثير الحدوث في الحقل الدولي الخاص لهذا نرى من الواجب الاسترشاد بها في هذا الصدد لان كثيرا من الاشخاص يسعون للتملص من وضعهم الحقوقي المفروض عليهم بحسب جنسيتهم او مقامهم او دينهم والالتصاق بوضع حقوقي آخر رغبة في الاضرار بالغير والافادة الشخصية ماديا أو أدبياً فيتحايلون على النصوص القانونية بشتى الاساليب ولما كانت الاحكام المرعية في الحقوق الدولية الخاصة كثيرة التباين لهذا كان مجال التلاعب فيها واسعاً وقد أيدت النظريات العلمية والاختبارات القضائية قاعدة ابطال كل احتيال أو تعسف او اساءة استعمال حق يرمي الى الاضرار بالغير أو الى جلب المنافع للنفس .

وقد أضاف الشارع مقياساً لنعت العمل بأنه تعسف حينما يفتقد التناسب والتعادل بين الضرر الواقع والمنفعة المزعومة ولهذا أفسح المجال للقاضي بأن يتصرف في الأمر وفقاً للمصلحة العامة المودوعة اليه او المطالب الخاصة المعروضة عليه .

٢ — (تطبيق القانون ، تنازع القوانين من حيث الزمان ، التنازع الداخلي بين القوانين من حيث الزمان ، التنازع الزمني)

المادة السابعة (٧) الاهلية :

١ — النصوص المتعلقة بالاهلية تسري على جميع الاشخاص الذين تنطبق عليهم الشروط المقررة في هذه النصوص .

٢ — واذا عاد شخص توافرت فيه الاهلية ـ بحسب نصوص قديمة ـ ناقص الاهلية ـ بحسب نصوص جديدة ـ فان ذلك لا يؤثر في تصرفاته السابقة: (المنازعات النصية) (الحق المكتسب) (المصلحة القومية) ، انه لمن الضروري بعد وقوع تبديل في الاحكام رعاية مبدأ احترام الحق المكتسب ولا سيما في المعاملات والتصرفات الواقعة بين الاشخاص الوطنيين والاجانب وذلك حفظاً للمصلحة القومية واحتراماً للقواعد المرعية في التنازع الزمني **Conflit temporal** اذ يقدم كثيرا من الاجانب الذين هم غير اهل للتصرف في بلادهم الاصلية على القيام بمعاملات مع أبناء البلاد التي قد تعتبرها باطلة لو اقدموا عليها وهم في بلادهم الاصلية.ولما كان المقصود في الأهلية في هذه المادة أهلية التصرف في الحقوق الخاصة وهي في سورية عامة ومطلقة بحق جميع المواطنين ماعدا الاجانب الذين يخضعون للاحكام المرتبطين بها بالنظر لقوانينهم الاصلية وفقاً لقاعدة الشخصية الحقوقية وكانت ثمة اختلافات بين هذه الاحكام فقد ينجم عن ذلك منازعات شتى فصلتها المادة ١٢ من القانون التي سيأتي شرحها فيما بعد ، اما في هذه المادة فقد عولجت القضية من ناحية الاختلاف الطارىء على النصوص داخلياً واقر الحق المكتسب وفاقاً للقانون بالاعتماد على الاهلية التي قد يطرأ عليها تعديل فيما بعد من جراء صدور نصوص جديدة فالمصلحة الاجتماعية تقضي بالاعتراف بالاهلية القديمة وقبولها وعدم حرمان صاحبها ومن عامله نتيجة تصرفاته السابقة الصحيحة في حينها لان ما انجزه الشخص بحسب أحكام قوانين زمانه حين قيامه بعمل معين يبقى صحيحاً بالرغم من كل تبدل لاحق وتطور طارىء .

المادة الثامنة (٨) في التقادم :

١ — تسري النصوص الجديدة المتعلقة بالتقادم في وقت العمل بها على كل تقادم لم يكتمل .

٢ — على ان النصوص القديمة هي التي تسري على المسائل الخاصة ببدء التقادم ووقفه وانقطاعه وذلك عن المدة السابقة على العمل بالنصوص الجديدة (الحق المكتسب).

انه وان كانت النصوص الجديدة الناظمة للنظام العام والمكلفة برعايته يبدأ مفعولها من حين وضعها غير انه اذا تعارضت مع مبدأ احترام الحق المكتسب فلا بد من صيانة هذا الحق ولاسيما في نطاق الحقوق الخاصة وكثيرا ما نشاهد حين انتقال البلاد من سيادة الى سيادة اختلافاً بين القوانين الحديثة والقديمة الموضوعة بشأن أحكام التقادم التي قد تختلف مددها وشروطها في التشريعين المتعارضين فالمشترع يحرص كما قلنا على احترام حقوق الافراد كحرصه الشديد على احترام قواعد النظام العام لهذا اتت المادة التاسعة الباحثة عن احكام التقادم التي نصها مايلي :

١ — اذا قرر النص الجديد مدة للتقادم اقصر مما قرره النص القديم سرت المدة الجديدة من وقت العمل بالنص الجديد ولو كانت المدة القديمة قد بدأت قبل ذلك .

٢ — اما اذا كان الباقي من المدة التي نص عليها القانون القديم اقصر من المدة التي قررها النص الجديد فان التقادم يتم بانقضاء هذا الباقي (ملاحظة الحق المكتسب جزئياً).

فحافظت الفقرة الاولى منها على غاية المشترع من التقادم على انها عدلت الحق المكتسب اذا تعارض مع النظام العام الذي اما ان يضعفه او يوقف مفعوله في مثل هذه الحالة وهذا تعارض جزئي بين الحكمين حلت المنازعة بشأنه لجانب صاحب التقادم .

المادة العاشرة (١٠) الادلة — تسري في شأن الادلة التي تعد مقدما النصوص المعمول بها في الوقت الذي اعد فيه الدليل — او في الوقت الذي كان ينبغي فيه اعداد (مبدأ احترام الحق المكتسب) .

ان نشوء الدليل وظهوره حق — اذا اكتسبه أحد يحترم أثره بالنسبة اليه . ولو

كان في ذلك تعارض مع النظام العام لان التجاوز على الحق الخاص ملزم بالتعويض او الصيانة او الرعاية . ولقد حرص المشترع السوري في هذه السلسلة من المواد على حماية حقوق الافراد مع تضحية جزء من آثار الاحكام العامة وبهذا توفيق بين مقتضيات المصلحتين الخاصة والاجتماعية وحكمة تشريعية صحيحة .

(التنازع بين القوانين من حيث المكان Conflit dans l'espace)

(التنازع المكاني — التنازع الدولي Conflit international)

المادة الحادية عشرة (١١) (التكييف او النعت القانوني — الوصف القانوني Qualification juridique) .

النعت القانوني — القانون السوري هو المرجع في تكييف العلاقات عندما يطلب تحديد نوع هذه العلاقات في قضية تتنازع فيها القوانين لمعرفة القانون الواجب تطبيقه في شأنها (مكانية القوانين — قانون القاضي) .

النعت القانوني ترتيب تمليه المصالح المرسلة والنظام العام على القضاة بغية تنظيم التصرفات الحقوقية وتصنيفها وتيسير لرجال القضاء لتأمين العدل واحقاق الحق ولا بد من اعتباره مكانياً (اي خاضعاً لقانون القاضي) لما في ذلك من صلة وطيدة بين الدعوى والحق المدعى به لان الاولى وسيلة والثاني غاية . ولا يجوز ان يكون ثمة تباين في الاهداف بين اجراآت المحاكم والدعوى والتشريع الموضوعي .

المادة الثانية عشرة (١٢) الاحوال المدنية ـ الاهلية للاشخاص العاديين والحكميين .

١ — الحالة المدنية للاشخاص واهليتهم يسري عليها قانون الدولة التي ينتمون اليها بجنسيتهم (شخصية القوانين) ومع ذلك ففي التصرفات المالية التي تعقد في سوريا وتترتب آثارها فيها ، اذا كان أحد الطرفين أجنبياً ناقص الاهلية وكان نقص الاهلية يرجع الى سبب فيه خفاء لا يسهل على الطرف الآخر تبينه فان هذا السبب لا يؤثر في أهليته (مكانية القوانين) راجع المادة ٧ والفقرة الثانية منها (مبدأ المصلحة الوطنية) Theorie de l'intéret national .

٢ — اما النظام القانوني للاشخاص الاعتبارية الاجنبية — من جمعيات ومؤسسات

وشركات وغيرها — فيسري عليه قانون الدولة التي اتخذت فيها هذه الاشخاص مركز ادارتها الرئيسي الفعلي (مكانية القوانين) ومع ذلك فاذا باشرت نشاطها الرئيسي في سورية فان القانون السوري هو الذي يسري (مكانية القوانين) انتهى .

ولما كانت الاحوال المدنية التي يجتازها المواطن من مهده الى لحده ملاحقة وملازمة لشخصه لهذا يجب ان تكون مستديمة وشخصية ولا سيما في بلادنا التي لا يوجد فيها تشريع كامل جامع لهذه الاحوال وعام شامل لجميع المواطنين وقد حفظ المشترع حقوق المواطنين المتعاقدين مع الاجانب المستكملين لشروط الاهلية بحسب القوانين المحلية اذ اعتبر الشخص الناقص الاهلية بحسب قوانينه الاصلية كاملها في الاحوال التي فيها سهولة الاخفاء بشرط ان لا يكون ثمة تواطيء او غش او اهمال او مخالفة للقوانين المحلية او تجاهل مصطنع وهذا ما عرفه الحق الدولي الخاص بمبدأ حفظ حقوق المواطنين .

اما في الفقرة الثانية من المادة فقد حرص المشترع على ربط الاشخاص الاعتبارية على اختلاف انواعها وأهدافها بمكانية القوانين فاورد نصاً صريحاً على ذلك رعاية وصيانة لحقوق المواطنين السوريين بالنظر لكثرة الشركات الاجنبية الشخصية والمالية والشركات ذوات الامتياز في البلاد فاعتبر مجال نشاط هذه الشركات مستنداً ومداراً لربطها واخضاعها من هذه الناحية للقوانين السورية وقد كان موفقاً في هذه القيود اذ ان الفكرة السائدة الآن اما حل الشركات الاجنبية وتصفيتها او تأهيلها من النواحي التشريعية والقضائية والمالية او توطينها بفرض أحكام القوانين المحلية عليها .

المادة الثالثة عشرة (١٣) صحة الزواج ويرجع في الشروط الموضوعية لصحة الزواج الى قانون كل من الزوجين (شخصية القوانين) .

لما كانت الوحدة في الجنسيات والاوضاع الحقوقية نتيجة حتمية لاكثر عقود النكاح ولا يتحقق ذلك الا بعد الزواج الذي قد يكون الزوجان خاضعين قبله لاحكام قانونية متباينة لهذا يجب صوناً لحقوق الزوجين ومن يلوذ بهما ان يكون الزواج اولاً صحيحاً والصحة لا تتوفر الا وفقاً لأحكام كل واحد من القوانين المنسوب اليهما الزوجان ولا سيما وان الاطلاع على هذه الاحكام بالنسبة لكل زوج سهل حين العقد لهذا أجمعت

القوانين والمعاهدات ولاسيما اتفاقيات لاهاي المشهورة على ان تكون الشروط الجوهرية للزواج متوافرة عند كل واحد من الزوجين لان وضعهما قبل الزواج يختلف عنه فيما بعده ولا بد من تحقيق هذه الشروط والقيود في عقود النكاح والاكتفاء فيما بعده بترجيح وضع أحد الزوجين على الآخر توطيداً للوحدة القانونية ضمن نطاق العائلة الواحدة **Unité de la famille**.

المادة الرابعة عشرة (١٤) آثار الزواج

١ — يسري قانون الدولة التي ينتمي اليها الزوج وقت انقضاء الزواج على الآثار التي يرتبها عقد الزواج بما في ذلك من أثر بالنسبة الى المال (شخصية القوانين) .

٢ — اما الطلاق فيسري عليه قانون الدولة التي ينتمي اليها الزوج وقت الطلاق ويسري على التطليق والانفصال قانون الدولة التي ينتمي اليها الزوج وقت رفع الدعوى (شخصية القوانين).

١ — لما كان الزواج اصلا يوحد الجنسيات والاوضاع الحقوقية للزوجين وينقل الزوجة من حالها السابقة الى حال زوجها كما جاء في المادة السابقة فالارجحية تكون بعد ذلك لاحكام القانون المنسوب اليه الزوج ولاسيما بالنسبة للاموال لانها غالباً ما توضع تحت اشراف وادارة الزوج الذي يصبح مسؤولاً عنها قبل الجميع فقانونه يكون بحقه اوفق وارفق من القوانين الاخرى وفي التوحيد بين الاحكام القانونية تسهيل وتيسير للزوجين والاولاد والاشخاص الآخرين .

٢ — اما الطلاق فمن المناسب رده الى قانون الزوج كما سار عليه التشريع في بلادنا من تأييد سلطان الرجل على المرأة ونظارته على شؤونها . كما انه في المحاكمات الجارية للتطليق والتفريق يرجع لقانون الزوج ، حين رفع الدعوى حتى لا يكون ثمة تردد او شك في هذا الشأن اذا بدل الرجل جنسيته بعد الزواج .

المادة الخامسة عشرة (١٥) آثار الزواج اذا كان أحد الزوجين سورياً .

في الاحوال المنصوص عليها في المادتين السابقتين اذا كان احد الزوجين سوريا

وثبت انعقاد الزواج يسري القانون السوري وحده فيما عدا شرط الاهلية للزواج (شخصية القوانين) .

عاد المشترع هنا ورجح القانون السوري اذا كان هو قانون أحد الزوجين وقت انعقاد الزواج لانه من المعقول والمقبول ان يرجح التشريع قانون واضعه حرصاً على المصلحة المكلف بحمايتها وقد استثنيت من ذلك الأهلية التي هي أساس لكل عقد والتي يجب ان تتحقق في كل متعاقد بحسب قوانينه الاصلية قبل اقدامه على العقد والتصرف بأي شأن من شؤونه وقد كان المشترع مصيباً في وضعه قيداً للشخصية الحقوقية اذا تعارضت مع المكانية الحقوقية غير انه كان من الضروري ان يراعى في قضايا الاحوال الشخصية قانون المقام المشترك للزوجين اذا ثبتت اقامتهما في مكان ما ولو لمدة معينة لانه لا يجوز ان تخلد في البلاد طائفة من الأجانب مقيمة فيه منذ اجيال وتبقى محتفظة بروابطها القانونية بوطنها الاصلي الذي لا تعرف منه الا اسمه بل انه من الانسب دمجها في وضع حقوقي التصقت به وعاشت في ظله منذ أجيال عديدة .

المادة السادسة عشرة (١٦) حكم النفقة

يسري على الالتزام بالنفقة بين الاقارب قانون المدين بها (شخصية القوانين) .

لما كان أغلب المشترعين في العالم يتجه نحو تحكيم قانون من كان موقفه أضعف من غيره أمام المحاكم رفقاً به واشفاقاً عليه فقد قبلت هذه القاعدة أيضاً في قانوننا المدني حرصاً على حقوق المدين المطالب بها لكي يستطيع الدفاع عن نفسه امام المحاكم بالاستناد الى قانون قريب منه ومعلوم لديه وقد خالفت المحاكم الاوربية مؤخراً هذه الفكرة في اثبات النسب من ابوة وامومة اذ أخذت بقانون الولد لا الوالد ولما كانت العوامل النفسية والاجتماعية الواردة بشأن تسهيل النسب واردة أيضاً في النفقة لهذا كان من الاوفق ان تأخذ بهذه القاعدة لان اثبات النسب في أغلب الاحيان تكون الغاية منه تعيين النفقة ومع ذلك لا بد في المستقبل من اعادة النظر في هذه المادة على هدى هذه الفكرة ولا سيما اذا نظرنا الى قضية النفقة كنتيجة لعقد ضمني يجب ان ينظر اليه نظرة رفق بالفريق الضعيف المطالب بها .

المادة السابعة عشرة (١٧) الولاية ـ الوصاية ـ القوامة

يسري على المسائل الموضوعية الخاصة بالولاية والوصاية والقوامة وغيرها من النظم الموضوعة لحماية المحجورين والقائمين قانون الشخص الذي تجب حمايته (شخصية القوانين) .

مما لا شك فيه ان هذه الاوضاع من متعلقات الأحوال الشخصية التي تخضع في بلادنا اصلا وعموماً للقانون الاصلي للاشخاص وفقاً للمبادىء التي ألمعنا اليها في المواد السابقة ومن الغريب ان المشترع لم يعالج بهذه المناسبة قضايا اثبات النسب ومنها الابوة والامومة مع انهما من مستلزمات الولاية وغيرها التي لم توضع الا لحماية الاولاد وقد جرت الاجتهادات في المحاكم الغربية كما ذكرنا في تطبيق قانون الاولاد دون الآباء خلافاً للاجتهاد القديم بداعي العطف على حقوق القاصرين مع ان النسب لا يتضمن فرض النفقة فحسب بل يشتمل على تحقيق صلات أدبية ومادية كالارث والاسم وغيره مما لا يجوز ان ينظر فيه وفقاً للقانون المنسوب اليه الوالد اذا اختلفت جنسيته عن ولده بل تجب فيها مراعاة حقوق هذا الاخير ومداراة مصالحه الاجتماعية قبل كل شيء آخر.

المادة الثامنة عشرة (١٨) الميراث والوصية

١ — يسرى على الميراث والوصية وسائر التصرفات المضافة الى مابعد الموت قانون المورث والموصي او من صدر منه التصرف وقت موته (شخصية القوانين) .

٢ — ومع ذلك يسري على شكل الوصية قانون الموصي وقت الايصاء (شخصية القوانين) او قانون البلد الذي تمت فيه الوصية (مكانية القوانين) وكذلك الحكم في شكل التصرفات المضافة الى مابعد الموت (شخصية ومكانية) .

لقد طبقت هذه المادة كمبدأ عام لارث الأجانب (شخصية القوانين) خلافا لما ورد في المادة ٨٣٦ التي هي مكانية اذ تقول بلزوم العمل بالقوانين الاسلامية بالنسبة لجميع المواطنين فيما يتعلق بالاموال الموجودة في سورية أما الفقرة الثانية منها فانها لاتختلف عن غيرها من المواد المتعلقة باشكال العقود لانها تفرض على شكل الوصية قانون الموصي او قانون البلد المنظمة فيه لما في ذلك من سهولة لصاحب التصرف وضمانة لذوي العلاقة

ومع ذلك فللموصى الخيار بالعمل بهذه القاعدة او الالتجاء للشكل المقرر في قانونه الاصلي بمراجعته لدار القنصلية المنسوب اليها ، اذ ان اغلب الدول تجيز للممثلين لديبلوماسيين والقنصليين قبول الوصية وتنظيمها ثم تسجيلها بالشكل الرسمي المقبول في بلادها وهكذا شأن سائر التصرفات المضافة الى مابعد الموت التي ترك فيها الخيار صاحبها اما باتباعه قانونه أو قانون البلد الذي يجري التصرف فيه وفي قبول ذلك توفيق بين مبدأي الشخصية والمكانية القانونية .

المادة التاسعة عشرة (١٩) الملكية العقارية :

يسري على الحيازة والملكية والحقوق العينية الاخرى قانون الموقع فيما يختص بالعقار (مكانية القوانين)ويسري بالنسبة الى المنقول قانون الجهة التي يوجد فيها المنقول وقت تحقق السبب الذي ترتب عليه كسب الحيازة او الملكية او الحقوق العينية الاخرى او فقدها (مكانية القوانين) .

لما كانت الملكية العقارية وماينبثق عنها من حقوق وارتفاقات ذات اثر عظيم في الثروة العامه ولاسيما في ممارسة السيادة الاقليمية لهذا ذهب الشارع الى اخضاعها للمكانية القانونية وهكذا كان مصير الأموال المنقولة ايضاً تطبيقاً لقاعدة المكان يسود المال وقد اصرت الحكومة العثمانية على انفاذ هذه القاعدة بشأن الاجانب حتى أنها لم تسمح لهم بالتمتع بالملكية العقارية الابشرط تنازلهم عن امتيازاتهم الاجنبية (راجع محضر صفر عام ١٢٨٤) لان مبدأ توحيد القوانين المرعي بصدد الاموال العقارية ناموس عالمي تمسكت به جميع الامم واعتبرته من مقتضيات النظام العام فضلا عن أنه يشترط في هذا الشأن بالنسبة لكل أجنبي يعتزم التملك للمال الثابت في البلاد الحصول على اجازة خاصة او الانتساب لدولة تتمتع رعاياها باجازة عامة بنتيجة معاهدة معقودة بين دولتين فاكثر تبنى احكامها في اغلب الاحيان على المعاملة بالمثل او المعاملة المفضلة .

المادة العشرون (٢٠) الالتزامات التعاقدية :

١ — يسري على الالتزامات التعاقدية قانون الدولة التي يوجد فيها الموطن المشترك

للمتعاقدين اذا اتحدا موطناً (مكانية القوانين) فان اختلفا موطناً سرى قانون الدولة التي تم فيها العقد (مكانية القوانين) هذا اذا لم يتفق المتعاقدان أو تبين من الظروف ان قانوناً آخر هو الذي يراد تطبيقه (مبدأ حرية المتعاقدين) .

٢ — على ان قانون موقع العقار هو الذي يسري على العقود التي ابرمت بشأن هذا العقار ، (مكانية القوانين) .

انه من الامور المسلم بها لزوم توحيد الوضع الحقوقي للعقود اذا اختلفت جنسيات المتعاقدين او مواطنهم ولهذا اذا لم يمكن ذلك بحسب الجنسيات فيرجع حينئذ الى الموطن المشترك ويعتبر مرجعاً لتعيين هذا الوضع لأن المتعاقدين غالباً اذا اختلفت جنسياتهم لايقدمون على التعاقد في بلد اجنبي الا ان يكونوا قابلين ضمناً الرجوع لتحكيم قانون هذا البلد فى اختلافاتهم المقبلة التي يمكن أن تنجم عن ذلك العقد فهذا العقد الضمني يعتبر مستنداً في اكثر الاحيان لتعيين الوضع الحقوقي للعقد ومع ذلك فقد ترك المشترع للمتعاقدين الخيار واعتبر عند اختلافهما في الموطن أو الجنسيات محل التعاقد اساساً للارتباط وكثيرا ما يقبل الشارع هذا المكان مربطاً لمثل هذه الاحوال عند التنازع في الأمر الذي صار عليه الاتفاق ضمناً أو صراحة اما اذا كان النزاع في التنفيذ فيرجع لقانون موضعه لانه من الموافق الفصل بين مرحلة الانفاذ في العقود وبين محال عقدها او انجازها او تنظيمها او تسجيلها وفي كل الأحوال للاجراء والانفاذ اهمية عملية لايجوز اهمالها بل علينا ان نطبق عليها انسب القوانين واعدلها ولايكون ذلك الا برعاية مكان التنفيذ اما الفقرة الثانية من هذه المادة فهي نتيجة طبيعية لما سبق ذكره حين شرح المادة التاسعة عشرة لأن العقود التي تبرم بشأن العقارات لاتكون ذات مفعول بالنسبة للغير الا اذا سجلت ولايكون التسجيل صحيحاً اذا لم تسيطر عليه احكام مكانية ، لهذا قيد المشترع الالتزامات العقارية بمكانية القوانين صيانة لحقوق الغير ومراعاة لمقتضيات النظام العام في ملكيتها والتصرف فيها .

المادة الواحدة والعشرون (٢١) اشكال العقود :

العقود ما بين الأحياء تخضع في شكلها لقانون البلد الذي تمت فيه (مكانية)

ويجوز ايضاً ان تخضع للقانون الذي يسري على احكامها الموضوعية(مكانية) كما يجوز ان تخضع لقانون موطن المتعاقدين او قانونهما الوطني المشترك (مكانية).

ان قاعدة المكان يسود اشكال العقود قديمة جدا وهي من مخلفات المدرسة الايطالية الاولى وقد سارت عليها جميع الامم لما فيها من يسر ورعاية لاحكام الانظمة المحلية على انه قد اجازت بعض الدول اهاليها باعطاء ممثليها حق تسجيل العقود وتنظيمها بين رعاياها وفقاً لقوانينهم الاجنبية ومع ذلك فلم يتقيد المشترع السوري بها تقيدا اعمى بل أنه أباح تجاوزها أحيانا بالاستناد الى قانون الموضوع المبحوث عنه فاذا كان من الأحوال المدنية او العينية فيسوغ فيها اتباع قوانينها المكانية ، وقد سمح للقاطنين في بلد واحد أي (في موطن مشترك) اذا اختلفت جنسياتهما او اذا اتحدتا ان يقبلا شكلا آخر لعقودهما الا وهو قانون موطنهما الذي قد يختلف عن الاشكال المنصوص عنها في قانون البلد الذي تم التعاقد فيه .

وبهذا وضع الشارع السوري سبلا ثلاثة لاشكال التعاقد وفي ذلك تسهيلات عملية كبرى لذوي العلاقة لاتنكر .

المادة الثانية والعشرون (٢٢) الاعمال غير التعاقدية :

١ — يسري على الالتزامات غير التعاقدية قانون البلد الذي وقع فيه الفعل المنشيء للالتزام (مكانية) .

٢ — على انه فيما يتعلق بالالتزامات الناشئة عن الفعل الضار لاتسري احكام الفقرة السابقة على الوقائع التي تحدث في الخارج وتكون مشروعة في سورية — وان كانت تعد غير مشروعة في البلد الذي وقعت فيه (مكانية) يفهم من هذه المادة أن الأعمال المولدة للالتزامات غير التعاقدية تنقسم الى قسمين ضارة وغير ضارة فيطبق بشأن الأخيرة منها قانون البلد الذي وقعت فيه تلك الأعمال وتقيد آثار هذا الالتزام باحكام ذلك القانون اما بشأن الفعل الضار فلم يقبل الادعاء به اذا اعتبرته الشرائع السورية مشروعاً وهذا اثر من الآثار السلبية للنظام العام السوري مثاله الاعتداء الواقع على الملكية الأدبية لشخص مقيم في بلاد سجلت فيها تلك الحقوق غير انه لم ترتبط

سورية معها بمعاهدات تتضمن حرمة هذا الحق فلو اتى المعتدى عليه ولاحق السوري الذي اعتدى على حقه في الخارج وطالب بالتعويض في سورية وكانت الاحكام السورية للملكية الأدبية لاتقر بهذا الحق ولا تعتبر التجاوز عليه جرماً فلا تحكم له بهذا الطلب وان كان الاستعمال لهذا الحق قد وقع في بلد تراه غير شرعي لأن الفعل المشتكى منه مشروع في سورية (كنقل وتقليد رسوم واجهات المنازل والأبنية من دون اجازة من صاحبها).

المادة الثالثة والعشرون (٢٣) المحاكمات :

يسري على قواعد الاختصاص وجميع المسائل الخاصة باجراءات المحاكمة قانون البلد الذي تقام فيه الدعوى او تباشر فيه الاجراءات. قانون القاضي (مكانية)

لهذا البحث ارتباط عظيم بالمنازعات القضائية التي اجمعت القوانين على اعتبارها من احكام النظام العام كما ان اصول الدعوى ولاسيما مايتعلق منها بالأمور الشكلية او التنظيمية هي مكانية وعامة ولايجوز تعددها واختلافها باختلاف جنسيات المتقاضين ولاسيما وقد قضى على الامتيازات الاجنبية التي كانت تبيح وجود محاكم مختلفة عاملة بمختلف القوانين الاجنبية في البلاد التي تختلف فيها الاوضاع القانونية بحسب جنسيات المتقاضين وهكذا تكون الاجراءات الفرعية للدعاوي كالتحقيق وسماع أهل الخبرة والاستنابة كلها مكانية باتفاق آراء جميع المؤلفين والمشرعين وقد خلفت لنا المدرسة الايطالية القديمة هذه القاعدة التي بقيت مرعية حتى الآن وتجري غالباً هذه المحاكمات لدى محكمة اقامة المدعى عليه لان الدعوى لاتقام عادة الا في محل اقامته ولابد من التوفيق بين هذه المادة والمادة التي سبقتها الموضوعة بشأن سماع الدعوى بطلب ممنوع في البلد الذي تقام فيه تلبية لنداء النظام العام .

المادة الرابعة والعشرون (٢٤) موطن الادلة :

يسري في شأن الادلة التي تعد مقدما قانون البلد الذي اعد فيه الدليل (مكانية القوانين) .

لما كانت الادلة هي الآيات الظاهرات على الافعال والتصرفات المقبولة في المحاكمات وكانت فرعاً لاصل تابع لمكانية القوانين فمن الطبيعي ان تكون خاضعة ايضاً لما يخضع له الاصل ولهذا قبل المشترع في هذه المادة قانون البلد الذي اعد فيه الدليل كما ان للدليل الناشيء في بلد اثرا عظيما فيه تقضي نظرية الحق المكتسب علينا احترامه في كل مكان اللهم الا اذا اصطدم مع النظام العام فعند ذلك يفقد الدليل مزيته مهما كانت النتائج .

المادة الخامسة والعشرون (٢٥) اثر المعاهدات والقوانين الخاصة :

لاتسري احكام المواد السابقة الا حيث لايوجد نص على خلاف ذلك في قانون خاص او معاهدة دولية نافذة في سورية . لقد كان المشرع السوري في هذه المادة اجتماعياً ودولياً شأن كل مشترع عصري اذ اعطى المعاهدات الدولية حقها في تنظيم العلاقات بين الدول كما انه استدرك النصوص الخاصة التي قد تصدر متعارضة مع الاحكام السابقة فاعتبرها ذات مفعول بناء على المادة السابقة وبذلك رافق المشترع التطورات الزمانية وافسح المجال لتنظيم موضوع الأدلة والمحاكم وغيرها وفقاً لتطورات المصالح المرسلة والنظام العام .

المادة السادسة والعشرون (٢٦) الرجوع للحق الدولي الخاص :

تتبع فيما لم يرد في شأنه نص في المواد السابقة من أحوال تنازع القوانين مبادىء القانون الدولي الخاص .

لقد ايدت هذه المادة النزعة العصرية التي يجب أن تسود روح كل تشريع حديث اذ اعتبرت المرجع للاجتهاد عند فقدان النصوص مبادىء القانون الدولي الخاص سواء اكانت قانونية قومية او عهدية دولية او علمية نظرية او انسانية مثالية ، وانا نسجل هذا الاعتراف بكثير من الامتنان للمشترع السوري الذي انتقل بنا من الساحة القومية الضيقة المحدودة للحقوق الخاصة الى الساحة الرحبة الدولية ذات الافق الواسع الملائم للتعاون والتآزر بين الدول في سبيل احقاق الحق وتأمين العدالة وقد رسمت هذه المادة صلة بين القوانين الدولية والقومية ودفعت بالقاضي الى ميدان فسيح لن يعدم فيه

اكتشاف نص او نظرية او مبدأ عام يطمئن اليه في احكامه وبذلك دخلت سوريا في تنظيم حقوقها الخاصة ضمن نطاق المباديء الحقوقية العامة المقبولة عند العالم المتمدن وفي هذا ضمانة للمتداعين وقضاء على فكرة التفريق والتميز بين الاقوام بحسب قوانينهم ومنازلهم الاجتماعية واني اعتبر هذه المادة فتحاً مبيناً في ميدان الحقوق الخاصة الدولية السورية لانها تؤلف هدفاً مشتركا نلتقي فيه مع غيرنا من الامم وفقاً لقاعدة التساوي الاجتماعي والقانوني بين الامم .

المادة السابعة والعشرون (٢٧) تنازع الجنسيات — ترجيح الجنسية السورية والقانون السوري :

اولا — يعين القاضي القانون الذي يجب تطبيقه في حالة الاشخاص الذين لاتعرف لهم جنسية او الذين تثبت لهم جنسيات متعددة في وقت واحد (مكانية قانون الماضي) .

ثانياً — على ان الاشخاص الذين تثبت لهم في وقت واحد بالنسبة الى سورية الجنسية السورية وبالنسبة الى دولة اجنبية او عدة دول اجنبية جنسية تلك الدول فالقانون السوري هو الذي يجب تطبيقه .

عالجت هذه المادة ناحية هامة من نواحي نقاط الاستناد لتعين الوضع الحقوقي من حيث الجنسية اذ انها اعطت القاضي صلاحية تعين القانون الذي يكون غالباً القانون المحلي بشأن الاشخاص الذين لاتعرف لهم جنسية بنتيجة فقدانهم لكل جنسية (Heimatlos) او بنتيجة تنازع سلبي فيها او الاشخاص الذين تثبت لهم جنسيات متعددة وهي الحالة المعروفة بالتنازع الايجابي للجنسيات او تعدد الجنسيات cumul des nationalités ولما كان لتعين الجنسية صلة وثقى بالنظام العام القومي والدولي ترك امر البت بها للقاضي اللبيب المجتهد ضمن اطار السيادة المكانية القضائية وقد جاءت الفقرة الثانية متممة ومكملة للاولى اذ وجهت القاضي نحو ترجيح القوانين السورية في تعين الجنسية عند التنازع بين الجنسيات اذا كانت احدى هذه الجنسيات هي الجنسية السورية ، ومما لاشك فيه ان القاضي سيحذو حذو القانون السوري اذا كان الاختلاف

ايضاً لاصلة له بالجنسية السورية لان التوفيق والتقريب بين الشرائع يقودنا الى القياس والاقتباس وهذا امر مرغوب فيه في ساحتي القضاء والاجتهاد العلمي .

المادة الثامنة والعشرين (٢٨) في التنازع الداخلي يرجح القانون الداخلي (الاحالة الداخلية) .

متى ظهر من الاحكام الواردة في المواد المتقدمة ان القانون الواجب التطبيق هو قانون دولة معينة تتعدد فيها الشرائع فان القانون الداخلي لتلك الدولة هوالذي يقررأية شريعة من هذه القوانين يجب تطبيقها (مكانية القوانين) .

لقد شاعت في العصر الحاضر فكرة الاتحادات الدولية وجواز تعدد القوانين الداخلية بحسب المقاطعات والاقاليم المنسوبة للاجماع اوللاتحادوهكذا تكون الحال في الدول اللامركزية ولهذا أصبح لهذه المادة شأن ولا سيما بالنسبة للبلاد السورية التي أخذت تنادي محافظاتها باللامركزية كما انها تصبو نحو تحقيق اتحاد خاص وعام مع بعض الاقطار العربية ثم ان لهذه المادة مفعولا في فض مشكلة التنازع بين القوانين الداخلية اذ انها اعطت القانون الداخلي حق تعيين المرجع التشريعي والقضائيمنعاًمن انحراف القاضي نحو شرائع أخرى او نحو ترجيحه لتشريع خاص على آخر وبهذا الاسلوبيستطيع الحاكم تعيين المرجع الاصح لحل هذه الاختلافات وقد سارت المانيا وسويسرا والولايات المتحدة الاميريكية على غرار هذه الطريقة التي أصبحت ضرورية بنتيجة التطورات الفكرية والادارية في أغلب البلدان .

المادة التاسعة والعشرون (٢٩) رفض الاحالة :

اذا تقرر ان قانوناً اجنبياً واجب التطبيق فلايطبق منه الا أحكامه الداخلية دون التي تتعلق بالقانون الدولي الخاص. (مكانية القوانين) :

هذه مادة قضت على المبدأ الحقوقي القائل بالاحالة الخارجية او الدولية المرعي في معظم البلاد المتمسكة بمكانية القوانين كانكلترا وأميركا الشمالية وغيرها من الاقطار الانكلوساكسونية واني لا اجد مبرراً لوضع هذه المادة الملزمة بالعودة الى القوانين

الاصلية ومنعت الاحالة للقوانين السورية التي قد يمكن ان يكون تطبيقها عندنا مفيداً للتخلص من المزاعم الواهية الرامية لدعم الامتيازات الحقوقية للاجانب وقد يرد على ذلك القول بان منع الاحالة سيبقى على سياسة حسن الجوار مع الدول الاجنبية ويطمن رعاياها بانه لن يكون ثمة اضرار لتنازلهم عن تطبيق أحكام قوانينهم الاصلية في بلادنا وهذه ضمانة قد يستحبها بعض الاجانب فضلا عن انه قد يطلب منا بقبول الاحالة ترك السوريين بالمهجر وهم كثر لاحكام القوانين الاجنبية وبذلك خسارة لنا مع اننا اذا واجهنا الحقائق وجهرنا بها قلنا اننا برفضنا الاحالة أيدنا مبدأ الشخصية القانونية وابتعدنا عن مكانية القوانين التي هي أجدر ما يصح التمسك به في وضعنا منعاً لكل مطالبة باستثناآت قانونية باي سبب كان .

المادة الثلاثون (٣٠) احترام النظام العام:

لا يجوز تطبيق احكام قانون أجنبي عينته النصوص السابقة اذا كانت هذه الاحكام مخالفة للنظام العام والآداب في سورية . (مكانية القوانين):

لما كانت الغاية من الشرائع الرامية الى ضمانة المثل الاجتماعية هي التي تدفع الامم لرفض كل قانون اجنبي يخالف نظامها و آدابها العامة الاجتماعية وكانت آدابنا ونظمنا العامة منبثقة عن تقاليدنا ووعينا الاجتماعي وعقائدنا السماوية والقومية وهذه المادة ضرورية لكي نحول دون تطبيق القوانين الاجنبية الشاذة التي كثر صدورها في الوقت الحاضر سواء أكان ذلك في ساحة الحقوق الخاصة او الحقوق العامة .

وقد دعمت هذه المادة فكرة المكانية القانونية واعطتها سلاحاً ماضياً وسلطة واسعة اذ ان آثار النظام العام في كل بلد يختلف بعضها عن البعض الآخر ويتناسب مع أوضاعه واهدافه وحاجاته فللقضاة والحكام وجدان مسلكي واجتماعي يشعرون به بمقتضيات وضرورات النظام العام والآداب العامة من دون لزوم لان يكون لهذه الفكرة اية تقييد . وقد سار القانون المدني بهذه المادة على طراز القوانين المدنية الاخرى وليس من حرج عليه في هذا الشأن .

المادة الثانية والاربعون (٤٢) تنازع المقام للافراد:

١ — الموطن هو المكان الذي يقيم فيه الشخص عادة .

٢ — ويجوز أيضاً ان يكون للشخص في وقت واحد اكثر من موطن كما يجوز ان لا يكون له موطن ما .

لقد اعتبرت الحقوق الدولية الخاصة الموطن ايضاً مركز ارتباط لتعيين الوضع الحقوقي للاشخاص الاجانب ، كما هي الحال في الدين والجنسية ولهذا استخرجنا هذه المادة من القانون المدني لتأييد مبدأ وجود موطن أصلي او مكتسب للانسان يجوز وقوع التنازع السلبي بشأنه اذ ينفي عن صاحبه اي موطن اوتنازع ايجابي يعطيه موطنين فاكثر ففي هذه الحال يترتب على القاضي ان يفض المعضلة على ضوء هذه المادة ومن رأينا ان المحل الفعلي هو المعول عليه في الموطن ولا يجوز ان يترك الانسان بلا موطن وللقاضي ان يعطي الانسان موطنه في البلد الموجود فيه فعلا آن حصول النزاع ويعتبره مرداً للوضع الحقوقي وقد اختلف هذا التعريف للموطن عما جاء في قانون الاحوال المدنية السورية . غير أننا نجده بسيطاً وصريحاً يمكن التعويل عليه في تنظيم الصلات المدنية وانهاء المنازعات القانونية الخاصة القائمة بهذا السبيل .

المادة الخامسة والخمسون (٥٥) الشركات

الشركات التي يكون مركزها الرئيسي بالخارج ولها نشاط في سورية يعتبر مركز ادارتها بالنسبة الى القانون الداخلي المكان الذي توجد فيه الادارة المحلية (مكانية القوانين) .

قضت هذه المادة على كل جدل ونقاش طويل دار حول وضع الشركات الاجنبية في بلادنا اذ فرضت عليها قانون المكان الموجودة فيه وهذه القاعدة معقولة ومقبولة لاعتبار المركز الاجتماعي الحقيقي للشركات مستندا لاعطائها جنسيتها وتعيين وضعها الحقوقي كما ان قبولها يعد بمثابة توطين وتأهيل لهذه الشركات التي كثيرا ما اعتبرت نفسها تابعة لاحكام قوانينها الأصلية الاجنبية بغية تنظيم علاقاتها مع ابناء البلاد وان

محل مقاضاتها في بلادها الاصلية .فاعتبار هذه الشركات مقيمة في البلاد السورية تأييد لنظرية مكانية القوانين التي فيها صيانة وضمانة لحقوق السوريين .

المادة السادسة والتسعون (٩٦) الخلاف على المسائل التفصيلية في العقود:

اذا اتفق الطرفان على جميع المسائل الجوهرية في العقد واحتفظا لنفسهما بمسائل تفصيليه يتفقان عليها فيما بعد ولم يشترطا ان العقد لايتم عند عدم الاتفاق عليها اعتبر العقد قد تم واذا قام الخلاف على المسائل التي لم يتفق عليها فان المحكمة تقضي فيها طبقاً لطبيعة التصرف ولاحكام القانون والعرف والعدالة .

لما كانت اكثر العقود المعقودة مع الاجانب قد توضع في البلاد الاجنبية بسرعة بالنظر للتطورات التجارية فينشأ بسبب ذلك خلافات بشأن بعض موادها فقد تركت هذه المادة التي بنيت على احترام ارادة المتعاقدين في المسائل الثانوية للقاضي حرية تعيين هذه الامور حينما تكون مجهولة او غامضة وذلك وفقاً لاحكام قانون البلاد والعرف المحلي وقواعد العدالة فلو حدثت مشكلة بين الاجانب والوطنيين ورغب القاضي في حلها على هذا المنهاج فما لاخلاف فيه ان مكانية القوانين هي المرجع الاوفق لحل هذا الخلاف بدلا من القانون الاصلي الاجنبي للمتعاقدين .

المادة الثامنة والتسعون (٩٨) ترجيح مكان القبول وزمانه بين الغائبين :

يعتبر التعاقد مابين الغائبين قد تم في المكان وفي الزمن الذي صدر فيهما القبول مالم يوجد اتفاق او نص قانوني يقضي بغير ذلك(مكانيه القوانين).

صرفت الحقوق الدولية الخاصة كثيرا من الجهد في سبيل القضاء على الانتقادات التي اثيرت بصدد هذه النقطة الدقيقة ومانشب بسببها من نظريات متضاربه وانا نحبذ ذهاب المشترع الى تأييده هذه الفكرة معتبرا محل القبول مرجعاً عند فقدان النص لانه بتمام القبول يتم العقد ويصبح نافذا .

المادة الثامنمائة والستة والثلاثون (٨٣٦)في الميراث وتصفية التركة:

١ — تعيين الورثة وتحديد انصبائهم في الارث وانتقال اموال التركة اليهم

تسري في شأنها احكام الشريعة الاسلامية والقوانين الصادرة في شأن الارث والانتقال (مكانية) .

٢ — لايمنح الاجنبي حق الارث في العقارات الا اذا كانت قوانين بلاده تمنح مثل ذلك للسوريين (المعاملة بالمثل) .

قسمت هذه المادة قضية الارث الى قسمين :

اولا — اهلية الارث وتعيين حصص الورثة في الاموال الموجودة في سورية ، فهي تابعة الى احكام الشريعة الاسلامية وقوانين الارث والانتقال السورية باعتبارها من متعلقات النظام العام .

ثانياً — بشأن الاموال الكائنة في غير البلاد السورية فالارث يخضع لاحكام قانون المورث كما جاء في المادة ١٨ الآنفة الذكر وقد اشترطت الفقرة الثانية من هذه المادة للارث في العقارات المعاملة بالمثل لمنح الاجانب هذا الحق ولكنها لم تبحث عن المنقولات التي يجب ان تكون غالباً خاضعة لنفس الشروط . على أنه لابد من التوفيق بين احكام المادة ١٨ التي هي ذات صفة عامة والمادتين ٨٣٦ و ٨٧٦ المنحصرتين بالاموال الموجودة في البلاد السورية اللتين يجب ان تعتبرا ذات صلة بالنظام العام .

المادة الثمانمائة والسادسة والسبعون (٨٧٦) الوصية بالعقارات:

اولا — تسري على الوصية أحكام الشريعة الاسلامية والقوانين الصادرة بشأنها (مكانية) .

ثانياً — لايمنح الاجنبي حق الاستفادة من الوصية العقارية الا اذا كانت قوانين بلاده تمنح مثل ذلك للسوريين (مكانية ومعاملة بالمثل) ،

ان هذه المادة متممة للمادة السابقة لان الوصية سبب من اسباب التصرف والملكية يجري فيها مايجري بشأن الارث ولهذا يجب ان تكون الوصية التي هي عقد موحد له شكله وجوهره كما جاء في المادة (٢١) من هذا القانون اما من حيث الموضوع كأهليه الايصاء ومحله فلها شروط صحة اخرى وقد قبل المشترع احكام الشريعة الإسلامية في بلادنا بالنسبة للجميع واعتبر النظام العام الاسلامي مرجعاً لكل خلاف

وهذا امر مقبول في اغلب البلدان لان الملكية على اختلاف انواعها عامل قوي لانماء ثروة البلاد وازدهارها وتأمين العدالة الاجتماعية بين أبنائها والمحافظة على المصالح العامة والخاصة في ربوعها وقد ربط المشترع في الفقرة الثانية حق الاستفادة من الوصية للاجانب في العقارات بشرط التماثل وقد كان من اللازم شمول هذا الحكم للاموال المنقولة ايضاً لان لها ذات القيمة في الاقتصاديات الوطنية كالاموال الثابتة واما اشتراط التماثل فصحيح لا مرية فيه ولاسيما وان العلماء الانكلوسا كسونيين يعتبرونه اساساً للاتصالات الدولية العامة والخاصة ونحن كسوريين لزام علينا ان نهتم بهذه القاعدة لانها تتصل باولادنا المغتربين عنا والذين يقرب عددهم من عدد المستقرين فيها وثروتهم تهمنا كذخر ووفر لنا قد يعودون بها الينا اذا وفقنا لتأمين العدالة بين العباد ونشر الطمأنينة في البلاد لتفهمنا حكمة التشريع العصري في الادارة والقضاء . والسلام .

❀❀❀

fantaisies ou la mélagomanie de l'Etat, c'est à dire s'ils ne sont pas indépendants.

Un des problèmes de l'époque actuelle est sans conteste de trouver des hommes éclairés, indépendants, ayant le sens de l'intérêt général, ayant des vues larges et d'avenir. L'américan Burnham dans un livre qui a eu un certain retentissement "L'ère des Organisateurs" a insisté sur quelques aspects de cette question. Ce besoin urgent d'hommes indépendants, dégagés d'intérêt, libres de passions capables de dire "Non" à qui que ce soit, même l'Etat, se fait sentir dans le cadre national comme sur le plan international, par exemple pour la Banque Internationale de la Reconstruction et le Fonds Monétaire International qui sont des entreprises d'intérêt général dans le cadre mondial.

L'indépendance des questions soulevées par la société moderne, et notamment la direction des entreprises d'intérêt général, nécessite la formation et le développement d'une telle élite. Les institutions ne valent que ce que valent les hommes. Une des meilleures réformes de l'économie est de former des hommes à l'esprit indépendant, à la hauteur des besoins et des aspirations de notre époque.

Il semble cependant que l'on puisse dégager certaines règles qui guideraient en pratique les dirigeants de ces entreprises. A notre avis, comme 1[er] règle, il faut se rappeler que les entreprises d'intérêt général nécessitent de grosses immobilisations ; par suite il est logique de pratiquer des prix, souvent différents (cas des tarifs, chemin de fer, électricité) mais tels qu'ils assurent au maximum l'utilisation de la capacité de production existante et du personnel. Il faut rejeter délibérament toute politique de malthusianisme économique, mais au contraire par des tarifs nuancés appropriés viser à la plus grande consommation, au **plein emploi du matériel et du personnel.** De cette manière on évitera d'avoir des ressources inutilisées considérables en capital et en travail, ce qui serait un gaspillage de forces; on aura également l'avantage de pouvoir réduire le prix de revient global par cette importante production, puisque comme nous l'avons vu le prix de revient est composé en majeure partie de charges fixes. Donc viser à la plus grande production possible dans le cadre des installations existantes, au plein emploi de la capacité de production, ce qui entraine des tarifs doubles appropriés et des prix différents. L'interdiction de la grève découle à la fois de la continuité nécessaire du service et de la tendance au maximum de production.

2°) La compression des coûts de production doit être poursuivie systématiquement et avec énergie. Il ne faut pas notamment que l'entreprise au point de vue technique ou commercial ne s'endorme et ne devienne routinière. Sans doute elle dispose d'un monopole ou d'un quasi monopole.

la forme qui soit la mieux adaptée aux conditions sociales, politiques et psychologiques. Le seul test n'est pas une combinaison ingénieuse et parfaite sur le papier, mais bien la réalité, le succès. Il faut faire fonctionner dans la vie réelle un type d'entreprises qui allie les avantages de l'initiative, de la souplesse et du dynamisme de la gestion privée avec le souci de l'intérêt général supposé représenté par l'Etat ; il faut éviter l'exploitation désordonnée du marché et coordonner l'action de l'entreprise avec la politique économique d'ensemble du gouvernement.

Si l'on suppose que l'on ait trouvé la forme juridique appropriée, une question se pose pour ces entreprises dites d'intérêt général. Elles ne doivent pas être dirigées en vue d'obtenir le profit maximum mais dans le sens de l'intérêt général. Il faut alors préciser en quoi consiste cet intérêt général et cela en toute circonstance. C'est là une très grosse difficulté. On peut toutefois écarter l'identification de l'intérêt général avec l'intérêt du personnel ou celui des usagers. Une entreprise n'est pas faite pour assurer des rentes à son personnel alors que cette main d'œuvre pourrait être plus utilement employée ailleurs et que le prix ainsi extorqué aux usagers les a détourné de l'utilisation maximun de l'entreprise. L'intérêt des usagers conduirait d'autre part à fournir le service au dessous du prix de revient, c'est à dire rejette sur le contribuable ce que l'usager refuse de payer. C'est là une répartition injuste. (De plus l'intérêt de l'usager actuel peut être en conflit avec l'usager futur notamment si on pratique l'autofinancement).

prunter sur le marché, leurs déficits de trésorerie et budgétaire retombent sur le Trésor Public qui en est accablé,

Il existe de plus une zone assez floue d'entreprises qui suivant les circonstances et le moment pourront présenter les caractères d'une entreprise d'intérêt général et par suite être assujetties de façons très diverses à un contrôle de la part de l'Etat. Ce sera le cas des activités protégées par des droits de douane qui ont tendance à exploiter le consommateur national le cas des ententes entre entreprises qui altèrent la concurrence, ententes qui sont déjà réglementées aux Etats-Unis depuis longtemps, en Angleterre depuis 2 ans et qui en France font l'objet d'un projet de loi créant une Cour Economique; demain ce pourra être le cas des syndicats qui sont des monopoles lorsqu'ils sont uniques.

Ainsi s'affirme la richesse des modes d'intervention de l'Etat ; intervention nécessaire lorsque les monopoles ne comprennent pas leur véritable intérêt : produire beaucoup au plus faible prix. Si cette intervention s'étend avec la conception de l'état faustien, demiurge qui se veut partout présent et agissant, elle ne doit cependant pas aboutir à figer l'activité économique, car, trop souvent l'Etat est plus un frein qu'un moteur.

*
* *

Il y a donc une gamme étendue de types d'entreprises d'intérêt général. Tout le problème consiste à découvrir pour chaque industrie et chaque pays à un moment donné

d'entreprises d'économie mixte dans le cadre communal, en France la SNCF, la Compagnie Nationale du Rhône dont le capital actions est fourni par l'Etat, des villes, départements la SNCF, des groupes industriels, l'Etat garantit les obligations. C'est la CNR qui a construit sur le Haut-Rhône le barrage de Genissiat et est en train de construire sur le Bas-Rhône le barrage de Donzère Mondragon, travail considérable qui demande plusieurs années et dont on aura une idée de l'ampleur en relatant qu'il entraîne des déplacements de terre supérieurs à ceux nécessaires pour percer le canal de Suez et que ce barrage fournira plus que Genissiat, soit plus d'un milliard de kwh.

Il faut enfin citer la formule adoptée en France lors des **Nationalisations**. Les entreprises d'intérêt général ont alors leur capital fourni par l'Etat, mais sont administrées par un conseil composé par tiers de représentants de l'Etat, des usagers, du personnel. L'expérience est trop récente pour formuler un jugement autorisé ; mais il semble que certaines craintes que l'on pouvait avoir du principe même de confier l'administration à des représentants d'intérêt soient vérifiées. Les représentants du personnel ne se sont pas encore élevés d'une conception étroite d'intérêt de classe à celle d'intérêt général; les représentants de l'Etat, qui n'ont aucune garantie de stabilité risquent d'être les jouets des gouvernements au pouvoir. Les représentants des usagers mal choisis, sont incompétents et risquent de ne pas pouvoir faire entendre leur point de vue. Enfin, si les entreprises nationalisées, du fait de circonstances diverses, ne disposent pas de crédit et ne peuvent em-

de conditions notamment la stabilité monétaire, le respect absolu par le gouvernement de l'autonomie de ces corporations publiques, et l'existence d'hommes cultivés, indépendants véritablement animés de l'esprit de l'intérêt général.

Les **Sociétés d'économie mixte** visent à associer au sein d'une société par actions les pouvoirs publics et les personnes privées, chacun fournissant un certain capital. La gestion est assurée par un Conseil d'Administration où siègent les représentants des actionnaires publics et ceux des actionnaires privés.

Ce procédé présente une très grande souplesse et permet de multiples combinaisons. Tantôt les pouvoirs publics se comportent comme des actionnaires ordinaires, tantôt ils entendent avoir la majorité au conseil et la place de président; tantôt ils sont amenés à garantir les émissions d'obligations ou d'actions de la Société, etc...

L'Etat semble ainsi reconnaître son incompétence dans certains domaines industriels ou commerciaux; il fait assurer la bonne marche de l'exploitation par les administrateurs privés plus soucieux d'esprit d'économie et plus susceptibles de s'adapter rapidement aux circonstances économiques que ses représentants au Conseil qui veilleront cependant à écarter toute décision qui serait contraire à l'intérêt général. La réussite de ces sociétés d'économie mixte dépend de la composition du Conseil d'Administration et si les pouvoirs publics ne veulent pas trop tenir en laisse l'entreprise. Elles peuvent réussir là où il faut justement se maintenir en contact avec le marché, ou il reste encore quelque concurrence et où on cherche un bénéfice. On peut citer en Allemagne nombre

En Angleterre on trouve un type assez particulier, propre au tempérament britannique; les corporations publiques; on pourrait peut-être en rapprocher le Federal Reserve Board aux USA pour l'émission et le contrôle de la monnaie et du crédit.

Les pouvoirs publics fournissent le capital de l'affaire et remettent la direction et la gestion de l'entreprise dans les mains d'un conseil d'administration formé de membres nommés pour leur indépendance et leur jugement. L'originalité de ce système, c'est de faire fonctionner l'entreprise par un corps d'hommes compétents, ayant le sens de l'intérêt général que l'on cherche à rendre absolument indépendants de quelque intérêt que ce soit. Ils ne sont les représentants de personne. Souvent ils ne sont pas désignés par le gouvernement (transport en commun de Londres) mais par des collectivités locales, des usagers, des personnalités que l'on estime elles-mêmes indépendantes. De plus, ils sont nommés pour une longue période, 8 à 15 ans de façon à acquérir de l'expérience, à prendre le sens de leur entreprise; ils sont largement rémunérés, ils ne sont pas révocable sauf des cas très limitativement fixés.

Ils sont donc à même de poursuivre en toute indépendance une politique rationnelle et de longue haleine; ils visent, comme dans la régie coopérative, à exploiter sans bénéfice. Les prix doivent couvrir le coût de revient plus un certain degré d'autofinancement, (si les administrateurs le jugent utile.) Des obligations sont émises pour se procurer les fonds nécessaires au développement de l'entreprise. C'est là une formule très séduisante, mais qui suppose réunies un ensemble

En pratique, on a souvent constaté qu'un tel système où le directeur de la régie n'est pas maître des tarifs, et parfois pas non plus de la rémunération et du nombre du personnel, n'est qu'un procédé pour tenter de réduire les pertes de l'entreprise. La régie intéressée est très souvent en déficit, mais pour des raisons autres que celle d'une mauvaise direction, du fait de la politique même des prix poursuivie par les pouvoir publics. On admet par exemple de fournir une marchandise ou un service à la population à un prix inférieur au prix de revient, par exemple transports urbains. Toutefois avec une direction privée, plus soucieuse d'éviter certains frais, des gaspillages, moins sujette à pression politique, plus dynamique, on s'efforce de ne pas ajouter à ces pertes celles provenant d'une mauvaise gestion.

La **Régie coopérative** vise à fournir un produit ou un service au prix de revient, en ristournant son bénéfice, s'il y en a un, à ses clients en proportion de l'usage qu'ils ont fait de la régie. Une société par actions groupe les principaux consommateurs : collectivités publiques supposées representer les usagers, ou même autres sociétés. C'est un système que l'on trouve notamment en Belgique. On peut citer Linalux, Société Nationale de Distribution d'eau, Société Nationale des chemins de fer vicinaux. Mais une telle formule, qui assure la gestion par les intéressés pour les intéressés, ne peut, semble-t-il, avoir des résultats efficaces que si les usagers sont peu nombreux, homogènes et bien groupés, si on n'est pas en présence d'un monopole complet, si le service assuré est rentable et si on trouve des hommes compétents indépendants et assurés de continuité dans leurs fonctions pour diriger cette régie coopérative,

obligatoirement longue de la concession, longueur fonction notamment de l'importance des investissements élevés nécessaires. Dans cet intervalle de temps forcément très long les dispositions du cahier des charges, du contrat de concession, même si elles sont rédigées avec soin, risquent d'être débordées par des évènement non prévus.

C'est ainsi qu'en France, l'inflation, conséquence de la guerre 1914-18 perturba les rapports entre les pouvoirs concédants et les sociétés de gaz et d'électricité dont les tarifs ne pouvaient suivre la hausse de leur prix de revient, mettant en danger leur situation financière et par suite le bon fonctionnement du service. Le Conseil d'Etat fut amené alors à poser la théorie de l'imprévisibilité qui permettait d'interpréter les clauses du contrat de concession de façon à assurer le fonctionnement régulier, la continuité de l'entreprise d'intérêt général même en présence de circonstances exceptionnelles non prévues dans le contrat.

Dans la **régie intéressée,** les pouvoirs publics apportent le capital, encaissent les bénéfices et supportent les pertes; la direction est confiée non à un corps de fonctionnaires, mais à une personne ou une société privée qui est encouragée à bien gérer, car sa rémunération est calculée d'après une formule qui peut tenir compte de divers éléments : chiffre d'affaires, bénéfice, économie d'exploitation, extension de l'entreprise. La difficulté réside dans l'élaboration d'une formule satisfaisante. De plus comme les frais soit du capital neuf, soit de déficit encombent aux pouvoirs publics, ce peut être parfois une lourde charge financière pour ceux-ci,

lièrement nets lorsque l'Etat en proie à des difficultés financières propres ne peut pas faire face à celles des offices.

Aussi a-t-on cherché des formules pratiques qui permettent d'associer au sein de l'entreprise les qualités de l'activité privée : souci de bonne gestion, dynamisme capable de s'adapter aux changements, avec celles d'un contrôle de l'Etat chargé de faire prévaloir et respecter l'intérêt général. On ne saurait dire qu'il y a un type idéal d'entreprise d'intérêt général. Dans chaque pays suivant son tempérament, ses mœurs, les conditions et la structure économique il faut s'appliquer à mettre sur pied une forme d'entreprise qui soit en correspondance avec les réalités et non pas seulement avec des vues théoriques.

*
* *

Cette collaboration de l'initiative privée et des pouvoirs publics a été recherchée essentiellement dans la concession' la régie intéressée, les régies coopératives, les corporations publiques de type anglais, les sociétés d'économie mixte, les nationalisations.

Le régime de la **concession** est trop connu pour qu'il soit nécessaire d'insister à son sujet. Le droit de satisfaire un besoin assorti d'un monopole est accordé à une entreprise moyennant certaines obligations qui visent la fourniture, le prix du service, ainsi que les extensions. L'entreprise peut se procurer d'une façon normale les capitaux dont elle a besoin, sans faire trop appel à l'Etat. L'inconvénient, c'est la durée

s'adapter à des circonstances changeantes bridée par des règles impératives de la comptabilité publique qui sont pour le budget très justes, mais ne sont pas faites pour une entreprise économique.

On a cru pallier à ces défauts, surtout apparents dans la régie directe, en créant des « offices » qui bénéficient d'une certaine autonomie de gestion, en ce sens notamment qu'ils sont soustraits aux règles générales de la comptabilité publique, qu'ils ont un budget autonome, que les dirigeants ne sont plus de simples subordonnés du ministre, qui exerce cependant un pouvoir de tutelle.

On avait mis beaucoup d'espérance, notamment en France, en ce type de gestion à tel point que les offices ont proliféré depuis une vingtaine d'années, ce qui était d'ailleurs la conséquence de l'extension des fonctions de l'Etat. Mais ces espérances out été déçues et depuis trois ans on assite à des mesures de suppression des offices en les transformant en régies directes soit en d'autres types que nous verrons tout à l'heure. En effet il subsiste toujours comme inconvénient majeur le manque d'intérêt personnel chez les fonctionnaires et d'autre part, malgré l'apparence d'autonomie budgétaire, comme c'est l'Etat qui toujours comble le déficit de l'entreprise, on ne fait aucun effort pour le réduire. A l'inverse une entreprise qui marche bien, qui fait un bénéfice a tendance à conserver ce dernier intégralement pour elle en faisant des dépenses somptuaires, engageant un personnel bien rénuméré, trop abondant et à ne rien verser au Trésor public. Les reproches faits à ces offices sont donc particu-

Les formes juridiques des entreprises d'intérêt général peuvent être classées d'après le degré de gestion ou de contrôle exercé par l'Etat, depuis les entreprises gérées directement par l'Etat dont le capital et le personnel sont fournis par lui (régie directe, offices) jusqu'aux entreprises qui sont en partie gérées, mais qui sont surtout contrôlées par l'Etat.

Les entreprises étatisées donnent lieu à critique en ce sens que la direction, n'ayant aucun avantage à la bonne gestion, n'apporte aucun zèle, ne s'applique pas à chercher l'abaissement du prix de revient, sachant que le budget de l'Etat ou des collectivités comblera le déficit. Elle prend des méthodes d'exploitation administrative tatillonnées, longues qui gènent les usagers. L'entreprise tend à être sclérosée et routinière. De plus on peut craindre une politisation de ces entreprises, c'est à dire le personnel serait nommé non pour sa compétence mais pour son appartenance à un parti ou à la clientèle du gouvernement au pouvoir, ce qui contribue à enfler le nombre du personnel, mais non à accroître sa capacité technique, financière, administrative. Enfin les règles de la comptabilité publique, qui sont faites pour contrôler l'exécution de l'emploi des deniers publics par le Parlement, se prêtent mal à l'exploitation d'une entreprise. La comptabilité publique exige une autorisation à priori, elle est formaliste, d'application lente et vise seulement l'enregistrement des entrées et des sorties. L'entreprise, elle, a besoin de distinguer les comptes en capital et en recettes et dépenses d'exploitation, de façon à faire apparaitre clairement les divers éléments du prix de revient et le bénéfice; également l'entreprise ne doit pas voir l'initiative nécessaire pour

un matériel, autopompes, tuyaux, eau, personnel considérable dont l'importance est calculée de façon à pouvoir combattre plusieurs incendies à la fois, mais qui restera inutilisé pendant la majeure partie du temps. L'entreprise d'intérêt général aura donc besoin d'un capital élevé supérieur à la normale pour payer ce suréquipement et un gros personnel qui ne sera employé que très partiellement, mais le tout est nécessaire pendant les quelques minutes, quelques heures, quelques jours ou quelques années de demande maxima. Donc une entreprise d'intérêt général par suite de l'importance de ses immobilisations a un prix de revient qui comporte un pourcentage élevé de charges de capital (cela pourra atteindre et dépasser 90 % pour une usine hydroélectrique).

De plus le chiffre d'affaires est relativement réduit par rapport au capital total, nécessaire pour ces immobilisations considérables pour faire face à la plus grande demande. Ces caractéristiques ne seront pas sans exercer une influence sur l'organisation, le financement et la politique des prix des entreprises d'intérêt général, comme nous allons le voir.

Mais tous les pays du fait de leurs situations diverses et d'un degré d'évolution différent n'ont pas les mêmes entreprises d'intérêt général, suivant le milieu, suivant le système économique certaines qui dans un pays sont uniquement privées sont ailleurs des entreprises d'intérêt général plus ou moins réglementées par l'Etat-

*
* *

d'intérêt général. Du moment qu'elle est seule ou presque à satisfaire un besoin auquel les conditions de vie du milieu donnent un caractère essentiel, elle doit être à même de le faire à tout moment, sans arrêt, sans interruption. C'est ce qu'on apelle en droit administratif **le principe de la continuité du service public.** En langage économique nous dirons que l'entreprise d'intérêt général doit pouvoir à toute époque satisfaire à toutes les demandes qui se présentent et cela sans interruption.

Le public compte qu'il trouvera toujours à n'importe quel moment du jour, de l'année le bien ou le service qu'il veut. S'habituant à cette idée et à ce fait il dépend donc du bon fonctionnement régulier de l'entreprise et cela le dispense d'avoir des réserves du bien fourni .

Mais être capable de satisfaire à toutes les demandes à n'importe quel moment cela signifie que l'entreprise d'intérêt général doit être suréquipée; elle devra toujours avoir un matériel et un personnel en supplément pour faire face à une pointe de la demande à un moment donné, puisqu'elle ne peut pas refuser des clients. Du moment que le public compte sur elle en toutes circonstances, elle doit être à même de le satisfaire en toutes circonstances.

Prenons un exemple. Le service d'incendie dans une ville doit être capable de pouvoir faire face à tout moment de l'année, du jour et de la nuit à **plusieurs** incendies qui éclatent simultanément dans plusieurs points de la ville. On ne peut admettre que les pompiers disent aux habitants d'un quartier touché par un incendie: « attendez, nous viendrons lorsque nous aurons éteint un premier feu. » Cela nécessite d'avoir

développée, bien plus nombreuses que les premières. Nous pouvons dire que le cadre administratif, de droit public traditionnel qui distingue services publics et activités privées, ne suffit plus à exprimer les multiples nuances de la réalité économique contemporaine et nous avons déjà proposé, il y a quelque quinze ans de désigner du terme de **service public économique** les activités satisfaisant un besion essentiel en position dominante et qui appellent ainsi une réglementation nuancée de la part des pouvoirs publics.

les services publics ou d'utilité publique sont simplement les services publics économiques que le législateur a assorti d'un statut administratif déterminé. Le cadre des services publics économiques ou entreprises d'intérêt général est beaucoup plus vaste que celui des services publics proprement dits et dépend des conditions économiques du milieu à un moment donné et non des formes administratives. Envisagés au point de vue financier et économique, les caractères des services publics économiques sont très voisins de ceux des services publics de droit administratif proprement dit. Cela ne nous étonne pas, si nous admettons que les services publics administratifs sont nés à partir des services publics économiques et simplement dotés d'un statut administratif soumis à un droit spécial, mais que les faits économiques qui les enserrent et les problèmes qu'ils ont à résoudre sont les mêmes, pour les uns et les autres.

Un service public économique ou de droit administratif, doit assurer le service, fournir la marchandise à quiconque se présente à quelque moment qu'il se présente. C'est une conséquence de la définition même d'une entreprise

ne peuvent leur substituer une autre entreprise, lui trouver une concurrente. L'Etat est presque forcé d'intervenir pour protéger le consommateur contre sa propre servitude et permettre justement que ces entreprises respectent dans leur fonctionnement et assurent dans leur développement l'intérêt général.

Comme la vie de la collectivité, du public dépend de ces entreprises l'Etat ne peut s'en désintéresser ni au point de vue statique, ni au point de vue dynamique ni de leur organisation, c'est à dire leur forme légale, ni de leur fonctionnement, c'est à dire notamment leurs prix, leurs tarifs, leurs salaires leurs profits, ni de leur développement, c'est à dire le programme de leur extension et des moyens pour y faire face. Cette nécessité de l'intervention de l'Etat, ne signifie pas toutefois que l'Etat va asservir et mettre en tutelle l'entreprise d'interêt général. Loin de là; au contraire, il doit se garder, semble-t-il, d'une trop grande immixtion dans les affaires de l'entreprise; car l'expérience montre qu'il s'y épuise et perd de sa force politique en même temps qu'il risque de tarir le dynamisme économique de l'entreprise.

Cette intervention de l'Etat peut aller jusqu'à assurer directement le service lui-même et à transformer une entreprise d'intérêt général en un service public, fourni par l'administration, comme les postes, l'établissement des routes ou des services d'utilité publique qui bénéficient d'avantages de droit administratif exhorbitants de droit commun, comme le droit d'expropriation, poser des lignes etc .

Mais si les services publics ou d'utilité publique rentrent parmi les entreprises d'intérêt général, ces dernières sont, surtout dans la société moderne où l'interdépendance est très

ses produits au marché, il est peu probable que dans l'ensemble les consommateurs soient affectés ; d'autres cultivateurs, anciens ou nouveaux apparaitront qui prendront sa place.

Supposons cependant que tous les agriculteurs qui fournissent une ville se groupent et décident d'avoir une attitude commune, une action concertée vis à vis des consommateurs, qu'ils fassent une grève passagère en vue de rançonner le public Alors dans ce cas, nous sommes, par suite de la coalition en présence d'un quasi monopole. Les deux caractères besoin essentiel, monopole sont réunis pour constituer une entreprise d'intérêt général. Il en est de même en temps de guerre, de blocus lorsque l'agriculture du pays n'est plus soumise à la concurrence étrangère. comme elle satisfait un besoin essentiel dans une position de monopole, elle devient alors une industrie d'intérêt général avec toutes les réglementations que cela peut comporter.

La distinction des entreprises en deux groupes, les entreprises ordinaires et d'autre part les entreprises en position dominante et assurant un besoin essentiel (marchandise ou service), dites d'intérêt général ou affectées d'un intérêt public suivant les termes de la Cour Suprême aux Etats-Unis, n'a d'intérêt que si elle amène les pouvoirs publics à traiter de façon différente les deux types d'entreprises.

A l'égard des entreprises qui ne fournissent pas des besoins essentiels qui sont en grand nombre et concurrentes, l'Etat n'a pas à intervenir. Il n'en est pas de même pour les entreprises d'intérêt général dont la situation dominante leur permet d'exercer des pressions abusives sur les usagers, usagers qui par hypothèse résultant de la situation de ces entreprises

l'étranger, tout le ravitaillement et les objets qui lui sont nécessaires pour vivre.

Les transports représentent donc de nos jours une entreprise d'intérêt général; mais ils ne sont devenus tels que dans les pays à grandes agglomérations de population et très différenciés. Autrefois dans uns économie rudimentaire où tout est produit sur place, dans de petits centres, ils ne l'étaient pas.

Si une entreprise d'intérêt général est toute entreprise dont le public dans son ensemble dépend d'une façon telle que sa vie économique et sociale serait bouleversée par son arrêt, il faut cependant ajouter un autre caractère pour que cette dépendance de l'individu vis à vis d'elle soit exacte. Il faut que cette entreprise se présente sous la forme d'un quasi monopole,qu'elle soit dans une situation de puissance vis à vis du consommateur en général.Donc d'une entreprise qui ait une position de domination vis à vis du consommateur dominé.

Nous sommes donc en présence d'une entreprise d'intérêt général lorsqu'elle réunit deux caractères principaux : elle satisfait à un besoin dont dépend la vie normale de l'individu dans les conditions de vie du milieu existant ; elle se trouve dans une position dominante par rapport à l'usager.

En effet l'individu, particulièrement celui des villes, dépend pour sa nourriture, besoin vital évidemment, de la fourniture régulière des denrées par les cultivateurs ; si ces derniers cessaient de cultiver en plus de leurs propres besoins et de lui apporter leurs produits, il périrait de faim.

Mais nous sommes là en présence de multiples cultivateurs concurrents ; si l'un s'arrête de travailler, n'apporte plus

interdépendance. Mais encore faut-il distinguer : parmi toutes ces activités sur lesquelles l'individu se repose, (activités qui sont accomplies souvent dans le monde contemporain par des entreprises sociétaires,) il y en a certaines qui ne jouent qu'un rôle effacé et, si elles disparaissaient, un des goûts de l'individu cesserait d'être satisfait, mais sa vie normale, courante ne serait pas modifiée. Qn'un fabricant de parfums, le pâtissier, le coiffeur interrompent momentanément leur production, il n'y aura rien de bien changé dans la vie quotidienne de l'individu.

Mais au contraire parmi toutes les entreprises, il en est certaines qui, si elles s'arrêtaient de fonctionner, gêneraient profondément son rythme de vie et même bouleverseraient sa vie — et cela d'autant plus que l'homme moderne s'est habitué à compter sur elles, à les avoir toujours sous la main, qu'il ne peut pas vivre sans elles. Ce sont là des entreprises que nous appellerons d'intérêt général.

Il n'y a pas besoin d'ailleurs que l'individu soit en contact direct avec une telle entreprise pour que cependant l'activité de celle-ci ne conditionne son activité propre. Prenons les transports par exemple. Il est bien évident que dans une grande ville très étendue le logement et le lieu de travail sont souvent trés éloignés, et l'individu, pour se rendre à son travail, à l'usine, au bureau, au magasin dépend du bon fonctionnement régulier ininterrompu des transports en commun. Mais même s'il n'avait pas chaque jour à emprunter ceux-ci, il dépendrait encore, surtout dans un grand centre urbain, des transports en général pour lui apporter de la campagne, des autres régions, voire de

LES ENTREPRISES D'INTÉRÊT GÉNÉRAL.(1)

Par Mr. Le Professeur FRANÇOIS TRÉVOUX

Le sujet abordé devant vous apparait sans doute un peu austère, mais j'aurais eu mauvaise grâce à ne pas accéder à la demande qui m'était faite de le traiter, d'autant plus que, même si dans chaque pays il prend un aspect particulier, c'est, semble-il, un problème qui est toujours et partout d'actualité.

Partons de faits très simples: dans l'économie contemporaine l'homme fait appel à de multiples activités pour satisfaire ses besoins. Sauf s'il est un cultivateur qui vit sur sa terre et des produits de sa terre et par suite à niveau de vie assez limité, il n'accomplit qu'une tâche spécialisée et s'en remet à l'activité d'autres personnes elles-mêmes spécialisées pour lui fournir ce dont il peut avoir besoin, en échangeant ses produits ou ses services, contre les produits et les services des autres. La division du travail entraine l'échange, et l'échange facilite la division du travail. C'est là un fait si connu que ce n'est qu'une banalité, mais dont il convient de partir.

Ces actes d'échange, si nombreux, auquels nous ne pensons même plus, impliquent autant d'actes de dépendance mutuelle. L'individu qui ne suffit plus lui-même à tous ses propres besoins dépend des autres, comme ces derniers dépendent de sa production. Echange signifie interdépendance. Dans la vie moderne tout est échange et par suite

---

(1) Conférence donnée le 5-4-50 au grand amphithéatre de l'Université Syrienne.

En effet la démocratie c'est avant tout un état d'esprit ou un état d'âme. C'est avant tout, je crois, le sens de la liberté: liberté pour soi-même d'abord, mais aussi liberté pour autrui, et tolérance. Le démocrate doit avoir le sens du dialogue, de la discussion, de la controverse; la majorité doit avoir le respect de la minorité. Le démocrate doit aussi admettre et souhaiter l'égalité conçue comme un moyen d'affermir la démocratie, de renouveler son élite dirigeante et d'élever le niveau matériel et moral de sa population. Il doit enfin manifester quand il le faut cette vertu où Montesquieu voyait le principe du gouvernement républicain : vertu, c'est-à-dire esprit public, souci de l'intérêt général, acceptation du sacrifice lorsqu'il est nécessaire. Si l'on songe à toutes les qualités qu'exige la démocratie, il ne faut pas s'étonner que tant d'hommes se prétendent démocrates et que si peu le soient. Mais ce n'est pas une raison suffisante pour ne pas essayer de l'être sincèremet car, pour tous ceux qui ont réfléchi à la condition de l'homme et aux dangers de la servitude, la démocratie demeure la plus noble des formes de gouvernement.

---

notre législation récente à la haute administration, puisque les grands corps de l'Etat et le personnel supérieur des ministères sont recrutés aujourd'hui parmi les anciens élèves de l'Ecole nationale d'administration, et que le concours d'entrée de cette école est ouvert aux fonctionnaires, sans condition de diplôme. L'égale admissibilité aux emplois publics et la diffusion de l'instruction sont des pièces essentielles dans la constitution sociale d'une démocratie.

Tout ceci conduit à une transformation de l'élite dirigeante. En démocratie l'élite dirigeante doit s'ouvrir sans cesse à de nouveaux éléments; c'est une aristocratie ouverte. Il semble par exemple que, depuis quelques années, dans les démocraties occidentales, l'élite dirigeante fasse une large place aux militants syndicaux. Par ailleurs son rôle aussi se transforme : il s'agit moins aujourd'hui de commander que de guider et de conseiller. La nouvelle élite jouera son rôle dans les institutions décentralisées, en initiant ses concitoyens à l'administration et à la politique : c'est ce que traduit la formule classique qui voit dans la commune l'école primaire de la liberté. Elle jouera également son rôle dans la création et le développement des partis politiques, qui sont un élément essentiel de la démocratie : l'élite nouvelle fournira de cadres et de programmes les partis nouveaux, qui seront de moins en moins des groupements d'intérêts et de clientèles pour devenir de plus en plus des partis d'idées.

*
* *

dans des termes inoubliables, il y a plus d'un siècle. Mais cette évolution ne comporte-t-elle pas des dangers ? C'est le même Tocqueville qui remarque que le désir d'égalité s'exaspère plus qu'il ne s'apaise par les satisfactions partielles. Il faut donc s'attendre à ce que la masse des électeurs exigent toujours plus d'égalité. Mais à partir d'un certain point, on s'aperçoit qu'une égalité plus grande ne peut être réalisée et maintenue que par la force d'un régime autoritaire; et, lorsque cette égalité plus grande est enfin réalisée, on s'aperçoit qu'elle enlève aux citoyens toute possibilité de résistance à l'oppression. Nous tenons à dire, bien qu'on l'ait déjà deviné peut-être, que pour nous la démocratie soviétique et les démocraties de l'Europe Orientale ne sont pas de véritables démocraties.

Que faire alors ? Faut-il sacrifier la démocratie à l'égalité, ou l'égalité à la démocratie ? L'art politique répugne aux dilemmes. Ici également il faut faire preuve de mesure, de bon sens, tenir compte des circonstances de temps et de lieu. Il ne paraît pas désirable de s'approcher d'une égalité complète qui risque de ruiner la démocratie et la liberté. Il suffit peut-être, après avoir supprimé les inégalités les plus choquantes, de donner à tous une égalité de chances. Que chacun ait la possibilité, s'il le mérite, de s'élever aux plus hauts emplois, et que chacun ait le sentiment de posséder cette possibilité. C'est l'exemple classique du milliardaire américain qui a commencé par être marchand de journaux. C'est le cas, fréquent en France, du paysan dont le fils devient instituteur et le petit-fils polytechnicien ou inspecteur des finances. Cette égalité de chances a été étendue par

une cause ou une conséquence. Il semble certain, par exemple, que la mise en vente des domaines nationaux par la Révolution française, qui a favorisé l'accès des paysans à la propriété du sol, a attaché ceux-ci puissamment au nouvau régime politique: si bien que, quelque vingt ans plus tard, la Restauration n'a pu que confirmer l'intangibilité de ces domaines. De même on s'accorde généralement à reconnître que la règle du partage égal ou relativement égal posée par le Code civil (il ne faut pas oublier que l'intéressé conserve la liberté de tester dans les limites de la quotité disponible) a multplié le nombre de petits propriétaires intéressés au maintien du régime politique existant.

Si l'on considère une époque plus récente et des pays différents, on constate que dans toutes les démocraties occidentales, et notamment en France, en Grande-Bretagne, aux Etats-Unis, il se produit une égalisation croissante des fortunes, des revenus et des niveaux de vie· Cette égalisation résulte notamment de l'augmentation des charges fiscales aussi bien du côté de l'impôt sur le revenu que des droits de succession, et du développement de la législation sociale qui, dit-on parfois, aboutit à une redistribution des revenus. Ce processus de nivellement a été considérablement hâté par les deux guerres mondiales . Il parait favorable à la démocratie en ce sens qu'il évite les trop grandes miésres et les mécontentements qui risquent de conduire au communisme ou au fascisme. Il parait en tout cas souhaité par la majorité du corps électoral dans les pays considérés.

Cette marche de la démocratie vers l'égalité économique et sociale parît donc évidente et fatale. Tocqueville l'a dit,

En effet la démocratie ne suppose pas seulement une constitution politique, mais une certaine constitution sociale, et nous allons aborder maintenant ce second aspect de la question.

*
* *

Au point de vue de la constitution sociale, il serait faux de dire que la démocratie ne convient qu'à un état social bien déterminé et défini une fois pour toutes. Ce qn'on peut dire sans doute c'est que la démocratie s'accommode mieux généralement de telle constitution sociale et aussi peut-être que la démocratie, lorsqu'elle fonctionne depuis assez longtemps dans un pays, tand à modifier la constitution sociale dans tel sens.

Il s'agit ici, vous le devinez, du problème de l'égalité. Non plus de l'égalité purement jurdique, de l'égalité devant la loi telle qu'on l'a proclamée en 1789, mais de l'égalité économique et sociale. Le problème a été posé dès 1793 par Gracchus Babeuf; il s'est imposé brutalement à l' attention de tous à partir de 1848 avec deux évènements sans lien entre eux mais tous deux éminemment significatifs, le Manifeste communiste et les journées de juin. Est-ce que la liberté même ne suppose pas un minimun d'égalité dans les conditions, est-ce que les excès du capitalisme au XIXe siècle n'ont pas tué la liberté en même temps qu'ils aggravaient la misère du prolétariat ? Grave et embarrassante question, bien souvent discutée en France dans les années qui ont suivi la libération, alors qu'on souhaitait compléter la dèmocratie politique par la démocratie économique et la démocratie sociale. On ne peut y répondre que d'une manière très nuancée.

Il apparit tout d'abord qu'une certaine égalité économique accompagne généralement la démocratie, qu'elle en soit

véritable démocratie. Ici également on ne peut pas poser de règle absolue : c'est une question de milieu social, de traditions, d'atmosphère politique.

Que le scrutin soit majoritaire ou proportionnel, les électeurs vont être appelés à élire des représentants qui géreront au nom de la nation les affaires publiques. C'est également un problème classique du droit constitutionnel que de savoir s'il vaut mieux une assemblée unique ou deux assemblées. Sur ce point aussi il serait arbitraire de formuler un principe absolu : disons seulement que le bicaméralisme, s'il comporte quelques inconvénients, offre en général plus de garanties de sagesse et de libéralisme.

Certaines constitutions prévoient que les électeurs ne se borneront pas à élire, mais seront appelés le cas échéant à prendre des décisions, ou tout au moins à approuver celles qui auront été prises par leurs représentants. C'est là le gouvernement semi-direct, qui fonctionne le plus souvent à l'aide du referendum. On peut y voir un moyen de limiter la toute puissance d'assemblées, qui parfois perdent le contact avec l'opinion publique. Mais le système ne donnera satisfaction que si le corps éléctoral est suffisamment averti des problèmes du gouvernement pour s'y intéresser directement, et si les consultations sont suffisamment rares pour ne pas engendrer la lassitude; d'autre part referendum risque de dégénérer en plébiscite lorsque la question est posée comme une question personnelle par un chef de gouvrenement ou un chef d'Etat trop influent, et l'on sait que le plébiscite conduit très facilement à la dictature.

Jusqu'ici nous avons fait allusion plus d'une fois à la structure sociale et à ses rapports avec la constiution politque.

Le suffrage universel ne s'est pas établi en un jour. En France, malgré la poussée de 1789 et surtout de 1793, il ne s'est installé de manière durable qu'en 1848, et encore sous la forme limitée de suffrage universel masculin; le suffrage universel intégral avec vote des femmes ne s'est introduit qu'en 1945. Il apparaît tout à fait légitime d'ailleurs de ne réaliser que progressivement le suffrage univrsel, en tenant compte de l'état social et de la mentalité du pays (par exemple il semble tout à fait raisonnable que la loi syrienne ait subordonné l'électorat féminin à certaines conditions de capacité) .

Si important que soit le principe du suffrage universel, sa portée serait bien limitée, s'il ne s'accompagnait d'une législation et d'une réglementation qui garantissent la loyauté du scrutin, on connaît depuis longtemps les procédés, somme toute assez simples, qui permettent d'assurer la liberté de l'électeur et le secret du vote. L'essentiel est que les gouvernements et les électeurs soient décidés à les respecter. Un des plus grands progrès de l'Angletere sur la voie de la démocratie a été le perfectionnement de son système électoral à partir de 1870 environ; c'était autrefois l'un des plus corrompus, c'est aujourd'hui l'un des plus honnêtes qui soient au monde.

Que penser du mode de scrutin proprement dit, c'est à dire du débat classique entre partisans du scrutin majoritaire et partisans de la représentation proportionnelle ? Nous n'en dirons rien, non que le débat soit sans importance, mais parce que nous croyons que tous deux sont compatibles avec une

tés que vous savez. L'expérience prouve que la séparation ne doit pas être un cloisonnement, et ne doit jamais exclure les rapports ni la collaboration. C'est ce que montre notamment l'histoire du régime parlementaire ou gouvernement de cabinet, où un ministère responsable ne se borne pas à gouverner et à administrer, mais entraine et dirige toute la machine législative. Aussi bien, de nos jours, est-il peu de partisans d'une séparation tranchée des pouvoirs.

Il est un point cependant où le principe doit être interprété strictement si l'on veut assurer la garantie des libertés: c'est l'indépendance des juges, avant tout du juge pénal, mais aussi du juge civil et du juge administratif. Il faut enlever au gouvernement toute possiblité de pression, non seulement en protégeant les magistrats en matière disciplinaire, mais en leur assurant un avancement normal.

Nous avons traité jusqu'ici des différents "pouvoirs" de l'Etat, mais sans indiquer d'où ils tirent leur origine et leur légitimité. En régime démocratique tous les pouvoirs doivent émaner, directement, ou indirectement de l'éléction. Nous rencontrons ici le troisième principe fondamantal de toute constitution démocratique (principe qui,d'un point de vue logique serait sans doute le premier mais qui historiquement est apparu plus trad) c'est **le principe du suffrage universel.** principe qui se rattache à la fois à l'idée de liberté et à l'idée d'égalité, puisque sa justification dernière est de permettre au plus grand nombre possible d'individus d'être libres, et puisque cette participation à l'éléction et à la formation des décisions politiques se fait en principe sur le pied d'égalité (le vote plural en effet est aujourd'hui généralement abandonné).

principe fondamental du droit constitutionnel démocratique, c'est **la séparation des pouvoirs.** Il n'est pas inutile de réfléchir quelque peu pour éviter certaines erreurs d'interprétation à son sujet.

L'idée est née d'une constatation banale, qui a été formulée en termes éternels par Montesquieu : « Tout homme qui a du pouvoir est porté à en abuser... Pour qu'on ne puisse abuser du pouvoir il faut que, par la force des choses, le pouvoir arrête le pouvoir ». C'est ce qu'un auteur anglais du XIX[e] siècle devait exprimer sous une forme un peu différente : « Le pouvoir rend fou, et le pouvoir absolu rend fou absolument ». A l'époque où s'élabore le droit constitutionnel moderne, la séparation des pouvoirs peut se réclamer aussi de l'idée de division du travail, qui commence d'apparaître dans la science économique. On va donc confier à des organes distincts les différentes fonctions de l'Etat, à la fois pour que chacun d'eux soit chargé des tâches pour lesquelles il est le mieux fait, et pour éviter que la concentration de tous les pouvoirs entre les mains d'un seul ne favorise l'arbitraire et le despotisme.

Voilà donc ce fameux principe, ou plutôt cette règle d'art politique. C'est une règle d'art politique et ce n'est pas un dogme. Mais pour des raisons diverses, tenant notamment au caractère abstrait et généralisateur de l'esprit du XVIII[e] siècle, on a eu tendance à faire un dogme de cette règle d'art politique. Les constituants américains de 1787 et les constituants français de 1791 ont prétendu organiser une séparation absolue et tranchée des pouvoirs. Il en est résulté les difficul-

même n'est pas tout-puissant; il ne doit défendre que ce qui nuit à la société. On reconnaît là les formules de la déclaration des droits de l'homme et du citoyen et de la constitution française de 1791. Elles garantissent non seulement la liberté dans le cadre de la loi, mais l'égalité devant la loi. Egalité devant la loi civile : la suppression des vestiges de la féodalité et la disparition des trois ordres font que la loi devient la même pour tous, soit en ce qui concerne les biens, soit en ce qui concerne les personnes. Egalité devant la loi pénale : la loi est la même pour tous, « soit qu'elle protège, soit qu'elle punisse »; le principe exclut bien entendu les tribunaux d'exception. Et la déclaration de 1789 prend soin d'ajouter le principe de la légalité des incriminations et des peines, qui prohibe la rétroactivité de la loi pénale et l'application du principe d'analogie par le juge. Egalité devant les charges publiques, c'est-à-dire notamment devant l'impôt et devant le service militaire.

Ajoutons que le principe de légalité et l'égalité devant la loi supposent aussi une administration indépendante des partis, au sens propre du mot, impartiale, et exclut toute application, avouée ou cynique, de ce que l'on a appelé ailleurs le spoils' system, le système des dépouilles.

Mais une fois posé ce principe, n'y a t-il pas des précautions à prendre pour éviter qu'il ne soit trop facilement violé ? Il n'est pas question d'envisager ici tous les procédés qui ont été proposés ou utilisés, pour assurer le règne de la loi et de l'égalité devant la loi. Bornons-nous à attirer l'attention sur l'un des plus connus, qui forme sans doute le second

politique, puis une certaine constitution sociale. Et, pour ne pas abandonner complètement notre idée première, nous essaierons d'établir en conclusion que la démocratie est aussi, sinon principalement, un certain état d'âme, ou tout au moins un état d'esprit.

*
* *

La démocratie suppose **une certaine constitution politique.** J'insisterai assez longement sur ce premier point, puisque vous m'avez fait l'honneur de m'interroger en tant que spécialiste du droit constitutionnel.

Cette constitution politique doit être à la base de liberté et d'égalité. Eternel problème de la science politique que la conciliation de ces deux éléments qui apparaissent tantôt complémentaires et tantôt contradictoire ! Il n'y a pas de liberté véritable, certes, sans un minimum d'égalité; mais l'égalité parfaite ne peut être obtenue qu'en sacrifiant la liberté. C'est une question de dosage, de proportions à déterminer suivant le temps, le lieu, la mentalité du pays. A tout le moins la démocratie suppose l'égalité juridique, c'est à dire l'égalité devant la loi.

En effet le premier principe d'une constitution démocratique c'est le **principe de légalité ou du règne de la loi.** En démocratie, seule la loi est souveraine, et non pas les gouvernants. La liberté se définit en fonction de la loi; tout ce qui n'est pas expressément défendu par la loi est permis, et le pouvoir de police ne doit pas supprimer les libertés en prétendant les réglementer. Bien plus : le législateur lui-

LES BASES FONDAMENTALES D'UNE CONSTITUTION DEMOCRATIQUE(1)

Par Mr. Le Professuer ROBERT PELLOUX

Comme d'un paysage, on serait tenté de dire de la démocratie que c'est un état d'âme. Pareille affirmation parait assez choquante dans la bouche d'un juriste, qui par profession même doit avoir le souci des institutions. Et cependand... Considérons quelques Etats qui possèdent incontestablement des régimes démocratiques et possèdent aussi une longue tradition démocratique : l'Angleterre, la France, les Etats-Unis d'Amérique, la Suisse, pour ne rien dire d'autres pays que je connais moins. Eh bien ! nous constatons chez eux une telle diversité d'institutions qu'il est difficile au premier abord de dégager les bases fondamentales : d'un côté, le régime parlementaire, de l'autre le gouvernement présidentiel, de l'autre un type assez particulier de gouvernement d'assemblée; d'un côté le gouvernement purement représentatif, de l'autre le gouvernement semi-direct ; d'un côté le scrutin majoritaire, de l'autre la représentation proportionnelle. Il nous faut donc creuser assez profond pour trouver ces principes fondamentaux qui font que la démocratie est autre chose qu'un état d'âme. Ainsi donc, renonçant à la boutade qui nous aurait permis de répondre à trop bon compte à la question posée, nous essaierons de démontrer que la démocratie implique une certaine constitution

---

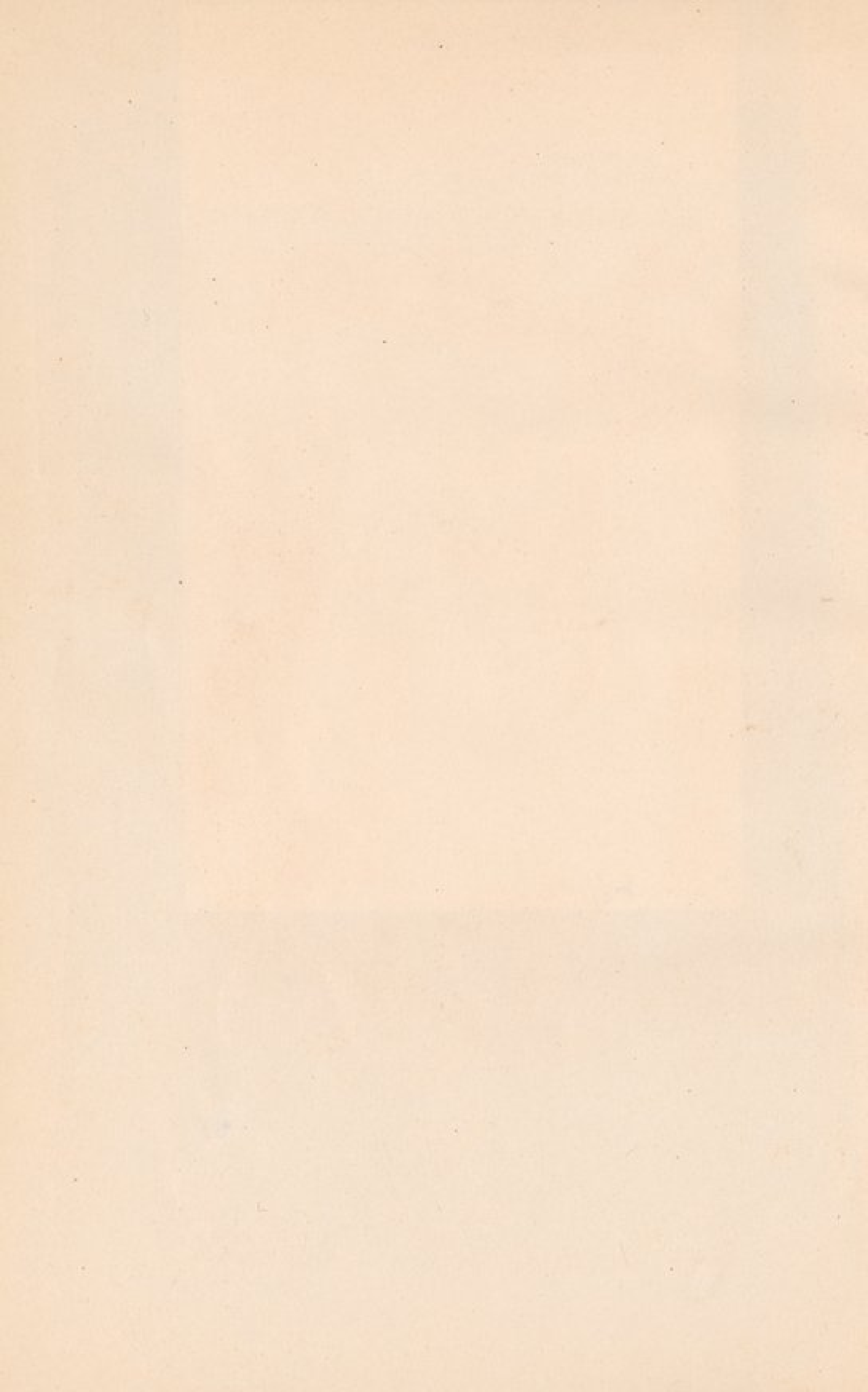
(1) Conférence donnée le 4-1-50 au grand amphithéatre de l'Université Syrienne.

UNIVERSITE SYRIENNE

CONFÉRENCES PUBLIQUES

ANNÉE 1949-1950

Imp. de l'Université Syrienne — Damas 1950



DATE DUE


AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الاميركية في بيروت

